أنهر بنت الرافدين

هيثم نافل والي

obeikandl.com

الكتاب : أنهر بنت الرافدين (رواية)

المؤلف : هيثم نافل والي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٦

رقم الإيداع : ٢٧٨٥٦ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978-977-493-241-0

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة . الهضبة الوسطى . المقطم . القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٣٨٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

لوحة الغلاف : الفنان مازن لطيف

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

obeikandl.com

شمس للنشر والإعلام

obeikandl.com

أنهر بنت الرافدين

رواية

هيثم نافل والي

obeikandl.com

إهــداء

إلى الذين كانوا وراء خوضي تجربتي الروائية الأولى التي لم تكن على البال مطلقًا، مكتفيًا بادبي القصصي القصير..

زوجتي: نهاية إسماعيل بادي

الطبيب: سلام جاوي فرحان

الفنانة: سوسن سيف سلمان

إليهم أرفع روايتي المبللة بدموع الحزن والفرح

مع جلَّ تقديري واحترامي...

هيثم نافل والي

٢٣ آذار ٢٠١٥

obeikandi.com

obeikandl.com

مدخــل

الكتابة في نظر الكثيرين الوسيلة التي تنطق فيها الكلمات معبرة، بالاعتماد على ما هو مخزون في الذاكرة من رصيد أدبي. لكنني وجدت نفسي هنا مضطرًا لأن أكتب ما رأته عيناي وما خزنته ذاكرتي. وأقسم بعمري الذابل، وروحي التي سكنتها الجراح من قبل أن تولد، والأمل الذي لا أعيش من أجله؛ أنني أعدت كتابة الرواية عشرات المرات بقناعة لم تقنعني.

أرجو أن لا يطالبني صديقي القارئ الذي يشبهني بأن أكون منصفًا حينما أذكر الواقع بمُرِّه دون تزويق ساحر، لأنه لو فعلها سأستغرب منه ذلك بنبرة استنكار لا تخطئها العين السليمة، اعتقادًا بأن الواقع المُر هو السخرية بحد ذاتها. ومن يرفض الظلم لابد من محاربته بها إن لم يقدر على وسيلة أخرى، كتبتها بدقة كدقة وتر الكمان، وبأسلوبي الذي أذوب في تلابيبه كعاشق ولهان وهو يجرب حبه الأول منسلخًا بلهيب ذلك الحب المسعور، إيمانًا مني بأن الكتابة: جد على سخرية، ثورة بيضاء لا تحمل السلاح، معنى روحي لا يفهم للمادة من وسط، عطاء، لوعة، وجد وشوق واحتراق، ومضة برق، قرقرة رعد، انفجار بركان، صحوة في عز الليل وأرق مستمر

obeikandl.com

لا ينتهي إلا بانتهاء ما يسطره صاحب القلم على القرطاس؛ ثم تبدأ رحلة الشك واليقين، النقد والطنين، الشوق والحنين، وكلمات الحب والتثمين. لذلك أتوق لأن أكون كاتب قضية يُشار له بالبنان والعرفان حتى وأنا بعيدًا عن الوطن. أريد أن أحمل تلك الشارة، ذلك الوسام الذي لا يعرفه الكثير من أدباءنا، بغض النظر من هو في الداخل أو في الخارج.

فمن في الداخل تتلاطمه أمواج التيارات الحزبية التي يصعب مجاراتها أو مقاومتها. وفي الخارج نجد تلك التيارات التي لا تمثل الحزبية لكنها أشد هولاً ودمارًا بسبب أخلاقيات الغربة. وهنا لا أريد إلا أن أمثِّل نفسي وهي وفية لذكرى الوطن.. ترابه، ماءه، وناسه بكل أطيافه بناءً على مبدأ الكلمة الصادقة الملتزمة التي تعني في ناموسي الفعل، والفعل حركة، والحركة بناء وتطور، لا وقوف على الأطلال والتذكر.

زمن الرواية زمن منهوب، حفرة كبيرة مثل جبل في الظلام. مسرحها كل العالم إلا الوطن. موضوعها يتعلق بالحقيقة، والحقيقة القاسية المؤلمة أو المخجلة في بلادنا يجب أن تبقى سرًا كالفضيحة، وهنا لا عمل عندي غير كشفها وتعريتها بعد أن جعلتها تمر على

openkandar.com

حواسي لتنعكس رواية كالمرآة وهي تردد: هذا أنتم وهذه هي حياتكم!!.

ها أنا أضع بين أيديكم أولى بصماتي لأول عمل روائي بعد محاولات في الكتابة لأكثر من مائة وعشرين قصة قصيرة، وأقول محاولات لأنني لم أخرق بعد حاجز ناقدنا الأدبي العربي. أرجو أن تكون قدر الأمنيات وتكون لبصمتي أثر لا يمحها بسهولة الدهر، وما التوفيق إلا من عنده، سبحانه وتعالى، هو الذي خلق الفكر ليُنشر لا أن يمُنع أو يُقهر.

هيثم نافل والي

ميونخ – ألمانيا

٢٣ آذار ٢٠١٥

openkandil.com

obeikandl.com

- ١ -

خطايانا عنيدة، وتوباتنا خسيسة، ونحن نتقاضى ثمنًا غاليًا لاعترافاتنا، ونعود بفرح إلى الطريق الموصل معتقدين أننا بدموع حقيرة نغسل جميع أوساخنا...

بودلير

تنويه :

لا أطلب من القارئ المنتفخ بالغرور والعظمة مثلي، الذي يدعي أنه سيغرق العالم بإيمانه أثناء قراءته للرواية التي لن يجد فيها وقتًا للضحك أو البكاء أكثر من صبره.

المؤلف

• • • •

بجرأة تستحق الإعجاب؛ اعترفت أنهر يومًا لخطيبها برسالة كاوية كالشمع المنصهر، أسكنتها لوعتها، تفضح فيها حياتها قبل أن تصبح زوجة له:

حبيبي.. يا بسمة على شفاه الأطفال، يا أغنية يرددها العشاق بجذل، يا أغلى ما أملك، تُرى، هل أملك منك شيئًا حقًا؟ أنا لا

obeikandl.com

أحب الامتلاك، أنت تعرف ذلك، ما قصدته هو أن أعبِّر عن فتنتي بكَ وقوة حبي فقط.. أحيانًا أكاد أعتقد بأننا ولدنا كي نجن، مهزلة لو كانت الحقيقة هذه!! انحنيت على طاولتي التي أجهل شكلها، طولها وعرضها، المزروعة بالأوراق البيضاء والسوداء والأقلام النائمة وربما الميتة مثلي بعشوائية مجنونة كوجودنا على الأرض؛ وكتبت ما أشعر به لحظتها في ذلك الغبش من فجر الحلم بهوس العقلاء الذين يحيطون بي من وراء كل سنة متّها دون علمي في عالم طافحٌ بالجمال والخيال الوهمي الذي لا يمكن الوثوق به أو تصديقه.

ويحنا يا حبيبي...

نجيد الصمت ارتجالاً في كل لحظة من عمر زمننا الغارق في فراغ من العبث غير المنتهي خارج أحكام الأزل المتوجس، القلق والخائف من ماضيه الذي يراه ميتًا أمامه، منتصبًا كالرمح كفجري الغائص النائم الحالم في العدم وربما الوهم.

إلى متى نبقى نهرب من الهروب والعجز؟! هذه هي حكايتنا التي نتغنى بها كل صباح بدلاً من فيروز. العراقي لا يطيب له غير الحزن! لماذا الفرح؟ وشفاهنا لا تحب أن يرطبها غير ملح دموعنا، ولا نسكر طربًا إلا لنحيب الأغاني الحزينة، وهمتنا الوحيدة في سجل قيدنا التي نواجهها منذ قرون هي غربتنا التي ارتكبناها غير

المنتهية، سبحان الله، لها شبه كبير من زمننا الغارق في اللهو والفراغ العبثي مثل خيبات أملنا المتتالية والمستمرة!.

صراخ بلا صوت كلغة كوابيسنا، رعب مستعار، وحقائقنا لا تروم النوم إلا بعد أن تضاجع القمر المسكين. حياتنا باتت نتنة كدم المقتول البائت. ما أروع زمننا في فجر الثالثة من الحلم! يختلط فيه الحزن مع الفزع، يتبادلان الأدوار كصباح ومساء موتنا الذي نحياه حتى الأبد بعد انفجار صدمة صبرنا في أجسادنا، كمناصفة صديقين الموت وجعًا بالفشل والملل.

حبيبي.. يا بهجة حياتي وسرها، هل ستحميني مثل مدينة تحرس البحر القابع عند جدارها؟ أراك صافيًا ونديًا كالفجر في أول طلوعه، بريئًا ونقيًا كدموع الأطفال، كقطرات الندى الجالسة بشموخ وكبرياء على أوراق الورود، لا تعرف كيف تخبئ الريح في ثيابك كما يقال، واضح وصريح، لا تملك جلدًا ثانٍ غير جلدك، تكره الرياء والكذب، لا تطيق مدمنوهما، تنبذهم، لا تستأثر بصداقاتهم ولا تحب عشرتهم، تهرب منهم أميالاً، أنت كالشمس في النهار، لا ينكر وجودها حتى الضرير، جريء وخجول جدًا لا تعبأ أو تحاذر المصير، كطبع العبقري، خجول في الحياة جريء في العمل، هذا التزاوج الغريب بين الخجل والجرأة جعلك متميزًا وفريدًا في

أعمالك وحياتك؛ تُرى هل هذا التوافق بين الخجل العذري والجرأة القاصمة هو الإنسان بذاته دون رتوش؟ أم هناك نوعٌ آخر نجهل فصله وأصله؟ لكنني – وهذه هي قمة سعادتي ونشوتي – أعرفك كما أعرف باطن يدي، طيبتك غالبة على شخصيتك، ساذج وتصدق كل شيء بسرعة كالإنسان الأوروبي، تعشق الحياة بشكل جنوني وكأنك ستحيا ليوم واحد فقط! تحاول دائمًا أن تقتنص لحظاتك بدقة خارقة؛ لكنك لا تحاول أن تستغل لحظات سعادتك فقط لتعيشها بكل جوارحك، بل تعيش ساعات حزنك كما فرحك بنفس القوة وعلى ذات الوتيرة، وهذا ما جعلني أعشقك حد الهيام والعبادة!..

خذلتني الحياة في موت مبكر كنت أهواه، حظي أعرفه كحظ العصا من الطبل، وهبني الله روحًا أحببتها، فقالوا أشركت فلا حب لغير الله! عشقت كل أنواع الفن؛ فما فائدته وليس هناك جمهور! صدقنا ذواتنا فأكتشفناها ضبابًا !.. الدموع يا نبض قلبي لغة بلا حروف، ليس لها قاموس، مادة لغسل الخطايا العالقة بالروح، لكن هل كانت يومًا سبب لحب أو لكره؟! يمكن تصديقها، التأثر بها، لكنها لا يمكن لها أن تكون حُبًا أو تتحول كُرهًا؟ هل تحيي أو تمنع عزيزًا كُتب عليه الموت، أو تأتي على قاتلٍ متعديٍّ في غير حينه؟!

هل لها القدرة على فعل ذلك؟ مسكينة ورخيصة هي دموع الإنسان، ربما تفيده في تعزيته!..

أقسمت أن أفضي لمن سأرتبط به كل أسراري، أودعه حزني لكي يشاركني حياتي ويحمل جزء من مأساتي.. دنيا عجيبة، الحياة يقال عنها ظالمة، الإنسان يخطئ بحق نفسه ولا يعترف بخطئه، ثم يقول متكدرًا: الحياة ظالمة، هل هي فعلاً يا حبيبي كما يصفوها.. فاجرة تميل للإغواء وتتصف بالظلم؟!

أشياء كثيرة تحدث لنا، غالبًا لا نجد تفسيرًا لها، لا نستطيع التحكم بها أو اختيار ما يناسبنا منها، كالحياة والموت، الصدفة، الحظ، مكان الولادة وزمنها، والدين أحد هذه الأشياء التي لا يتدخل الإنسان فيها كوجودي داخل أسرتي التي سأحدثك عنها الآن..

هجرت أمي أبي...

لكن أبي لم يرضخ لهجرة أمي ولم يطلقها!

أمي لم تتنازل وتترك البيت؛ بل اكتفت بمقاطعته جنسيًا!!

الأسباب التي دفعتها لفعل ذلك كثيرة؛ أهمها بخله على أسرته، سكره ومعاقرته المومسات اللائي يترددن على متجره، ذلك الذي جعله للرزق وتعاطي المزاج! عشق أبي الخمر، أحب النساء، وانغمس في الملذات الشيطانية، وكأنه متشرد لا أسرة له! كان أميًا، عكس أمي

التي أنهت دراستها الابتدائية؛ لكنها كانت تعي أشياء وتحسها بإدراك خفي ضامر.. في اعتقادي كانت أفضل كثيرًا من بعضهن اللاتي أتيحت لهن فرص التعليم المتقدم العالي، لأنهن سكن خطواتهن البطيئة وكادت رقابهن تنكسر لكثرة متابعتهن ظلالهن المنهزمة المرتجفة! ألا تؤمن مثلي أن الإنسان المتعلم المثقف يكون أكثر عرضة للتناقضات وممارستها بحكم الظروف التي خلقت منه تلك الشخصية أثناء تخطيه مراحل التجربة ليدخل الحياة؟

بمرور الوقت أدمن أبي على أن يكون مع زوجته قاسيًا جدًا، وكأنها عدوٌ له! عاملها بخشونة وفظاظة، وفي أحيان كثيرة كان يضربها ويشد شعرها الحني الطويل الجميل برعونة ووحشية، خاصة عندما يجن الليل!! في حين اختلفت معاملته معي بالتحديد لسر أجهله، ظلَّ معي رحيمًا ودودًا، لطيفًا ومبذرًا...

أمي كانت تعلم عن رذائله الكثير، ومع ذلك بقيت له وفية، رؤوفة ورحيمة أثناء النهار.. وما أن يقبل الليل عليها، حتى تلبس شخصية أخرى، تضع على وجهها ملامح الحزم والصرامة والعبوس، وربما كنت ألاحظ الكره يعلو نظراتها، عندما تزر أبي بعينيها الجميلتين، وتراه وهو يعاقر الخمر وحيدًا في غرفة الجلوس التي لا يقبل لأحد شراكته بجلسته تلك مهما حصل!!

obeikandi.com

تعودنا نحن بناته الثلاث اللاتي لم نتزوج بعد أن نترك الغرفة لحظة دخوله البيت عائدًا من عمله، نختبئ في غرفتنا، ننكمش على أنفسنا مذعورات كالقطط الخائفات رغم وداعته ولطفه معنا وبالأخص معي كما ذكرت. لم تستطع أمي رغم محاولاتها المتكررة أن تغير من سلوكه الشائن ذاك شيئًا.

رضخت للأمر الواقع، قبلت بقدرها، ولا أظنك تجهل بأن الأقدار لن تتغير، ألم يختر القدر بلدنا الحبيب العراق؟! ألم يختر أخيك سعيد كما أخبرتني عندما مات بطريقة غير متوقعة، من المفروض أن يكون في ليلة موته في المعسكر الذي يخدم فيه، وليلته تلك التي تعرض فيها لحادث سير ودع الحياة من أثرها كانت نوبته للحراسة! أليس كذلك؟ ترى لماذا غادر المعسكر وعليه النوبة؟ بعد أن عرفت تلك القصة، آمنت بحسم ما كنت به أعتقد، بأن الأقدار لن تتغير، وما لقاءنا غير الموعود إلا دليل على ما أقول.. الماضي جنازة، جثة حتى لو مرَّ طيفها أمام ناظريك لن تنبض فيها الحياة مجددًا، الذكرى زمن مستسلم فائت، تسربت لحظاته من عمر الإنسان، سقطت منه، تسللت، نزفت كما ينزف الرمل القابع في حفنة يديك دون أن تحس به، مثلما ينسحب سارق محترف من مكان جريمته، زمننا يا مهجة قلبي بداية الطوفان الذي سيجتاح الأرض، يغرق الزرع،

obeikandi.com

يطفئ نجمه، يختفي، يتوارى، يخبّ في سماء سحيقة، يضيع، لن يكون له من وجود، هل سيظهر مرة ثانية في سماء العراق يسطع؟ متى؟!

مع الوقت أصبحت أمي لأبي زوجة.. لكن بلا رجل! زوجة في الأوراق فقط، أمام الناس والمجتمع.. في واقع الحال عاشت زاهدة فيه، لا تتمتع بأي حقوق زوجية، وافقت على حياتها تحت وزر القهر والحرمان ذاك من أجل بناتها وابنها.. من أجل حياتهم ومستقبلهم لا غير.

في الليل يتغير لون وجه أمي الأبيض الملائكي.. فيبدو أسودَ ممتقعًا، ثم أسمع صوتها اللجوج اليائس الخائف يرتفع في أرجاء البيت وهي تنادي وتطلب ابنتها الصغيرة، ليس لتقبّلها قبل أن تنام، أو تحكي لها حكاية من حكايات الأطفال، بل لتدعوها أن تتمدد بجانبها، أن تبقى في حضنها، معها في السرير، لتتوسط بين الزوجين، لتحمي الأم من إزعاجات وإلحاح الزوج المهجور!!

البنت الصغيرة كانت تسمع توسلات الزوج وهمساته، أنينه وشتائمه البذيئة.. ثم ترى الأم وهي تصده وتتمسك بها وترصها إلى جانبها بقوة، فتكاد أضلعها الفتية الرقيقة تنخلع من مكانها أو تتحطم. الطفلة، تعي، تبكي، تتلوى تحت الغطاء وبين أضلع أمها الدافئة.. مدفونة محبوسة بالآهة والقلق والرهبة، تنظر بعينين بريئتين

obeikandl.com

مكبلتين بالخوف إلى أمها، وهي ترى أباها يشد شعرها من فوق رأسها ولا تبدي حراكًا سوى الكتمان والشعور بالكره والبغضاء لأبيها، رغم حبها له، لقسوته المفرطة بحضورها القسري!! كل شيء كان على مرأى ومسمع منها، قبل أن تغفو وتنام وهما لا يدركان. تبًا لقهرهما ولرعونتهما ولغبائهما البليد.

تلك الساعات البطيئة من الليالي المظلمة، القاسية، الحقودة، المؤلمة التي كانت تمر عليها وهي لا تقوى إلا على السكوت والتقهقر والرضوخ من أجل أمها. ترعرعت تلك الطفلة بين أحضان التمنع والقسوة، بين جنون وهوس الزوج المهجور والزوجة الزاهدة البائسة المحطمة. كبرت الطفلة وأصبحت فتاة في سن الزواج وهي تخاف الليل وتتمنى أن لا يكون أو يعود عليها مجددًا!! عاهدت نفسها بأن لا تجعل حياتها امتدادًا من حياة أمها وأبيها، ألا تتكرر المأساة في بيتها الزوجي المستقبلي.. ألا تمارس الضغط على أبنائها أو تشاركهم مأساتها إن حصلت.. خاصة، كما تعرف ما تعرضنا له من قِبل أهلك قبل رضوخهم لطلبنا ورغبتنا في الارتباط، ورفضهم غير المبرر بسبب السمعة التي تناقلتها الألسن عن علاقة أمي وأبي التي يجهل تفاصيلها الأقربون!! هل تعرف يا حبيبي من تكون تلك

الفتاة؟ أنا.. بلحمي وشحمي ودمي وذكرياتي التي أسردها لك!! ومن أجل ما ذكرت، أخبرك.

ثم ذيلت رسالتها بتوقيعها الجديد الذي اختارته بعد خطوبتها، بحرفين من اسميهما باللغة الإنجليزية يعلوهما خط مخربش ليس على استقامة واحدة، بعدها يحضن الحرفين لينتهي من فوقهما مقوسًا كخيمة تظللهما، وهي في غاية السعادة باختراعها توقيعها الجديد!.

obeikandl.com

- ٢ -

ولدت أنهر كآخر العنقود في أسرة عراقية تعتبر نفسها محافظة وهي ليست كذلك، لأنها مع التعصب للدين وضد التعصب في الدين، والحقيقة هي مع الدين والحياة. تعودت أن تسير وأرجلها خالية من القيود، في محلة تضج بالمسيحيين في جانب الكرخ تُسمى الآثوريين. قضت وطرًا من حياتها كل مساء ترتجف ابتهالاً وخشوعًا وهي تستمع لآذان العصر.. فلا تجد تفسيرًا لما كان يحصل لها، يكفيها الهدوء والسكون والراحة النفسية التي تنعم بها أثناء سماعها كلمات الله عبر مكبر الصوت للجامع القريب منهم.. عندما تقدم العمر بها لم تنسَ ذلك مطلقًا، تتذكره بقوة وكأنه حاضرٌ معها أينما حلّت، ولم تستطع تعليل ما كان يحصل لها.

من نسل القوس الذي لا يعرف خيبة الريح التي لا تهز غصنًا، دائمة القول: من الفحم يخرج النور، أن تُعطي ولا تفكر بأن تأخذ، السعادة بسمة على شفاه الآخرين، متى ما رأيت ذلك، أعلم بأنك إنسان تسكن في قلب الله.

تعشق الطبيعة كعشق النورس للبحر، تعيش لحظاتها بعفوية خارقة كالطفل عندما ينسى نفسه في اللعب على شاطئ، تضحك من

صدرها، تبكي من قلبها، تئن وتتنهد من عظامها، تساعد بكل ما تملك ومن أعماق كيانها وحد نخاع عظامها...

وقصتها مع صاحبة قلب السلحفاة الألمانية الأصل ما هي إلا دليل على طبعها ذاك؛ حيث التقت صدفة في مدينتهما الجميلة – باد فيرسهوفن البافارية – التي تعمل وتسكن فيها منذ قرابة خمس سنوات بعدما أتعبها صخب الواحد والعشرين سنة التي عاشتها في مدينة ميونخ، فوجدت ضالتها في تلك المدينة الهادئة الغافية على أكتاف الجبال الألبوية التي تلمع قممها ناصعة البياض في الشتاء كنطفة الرجل، بعد أن هجرت العراق بصحبة زوجها قبيل حرب الخليج الأولى.. مدينتهما الصغيرة تلك مثل قرية سياحية، يشقها جدول رقراق ساحر إلى نصفين، تنتشر فيها عيون المياه المعدنية في كل مكان كتواجد الأشجار، والينابيع تلك يمكن استخدامها مجانًا؛ تقع في الجنوب الغربي من ألمانيا، محاذية لسلسلة جبال الألب الشهيرة العملاقة، اتخذت المدينة سمعتها وانتشرت لأغراض العلاج الطبيعي ضد أمراض الجلد والعظام...

تلك الطُرق الطبيعية للعلاج اكتشفها الكاهن كنايب في القرن التاسع عشر، والمرأة التي التقياها كانت قادمة من مدينة دريزدن الألمانية المعروفة بكثرة وقِدم كنائسها التي صمدت أثناء الحرب

obeikandi.com

الكونية الثانية وعلى مر الزمن والتاريخ، لقد كانت امرأة رائعة حفظها سبحانه مثل قديسة، فاتنة الجمال رغم تقدمها في العمر فظهرت وكأنها أميرة بقلب يخفق بالحب والرحمة كقلب السلحفاة، يبقى ينبض حتى بعد ذبحها لعدة ساعات!.

عند ذلك الصباح الذي كانت نسائمه عذبة رقيقة وترقص طربًا؛ هكذا وجد الصباح زوجها؛ وهو يشعر بلحظات من السعادة يعجز عن وصفها بعد أن غرق فيها وفي كل أجزائها من قمتها حتى نخاعها، بصخبها وهدوئها، سعادة لا مثيل لها، كسعادة المجنون في أتوج غروره، رغم تأخره وزوجته عن موعد عملهما. ظل يشعر بتلك اللحظات الفريدة من عمر الإنسان وسط كل ما يدور حوله من ألم وعذاب، لحظات يعرف حسابها جيدًا، لو مرت سوف لن تعود، وإن عادت، ستكون أقصر من سابقتها، لأنها لحظات من عمر الزمن الراهن!.

كانت المرسيدس السوداء سيارتهما التي يقودها بنفسه تهدر مسرعة وزوجته بجانبه يشع وجهها فرحًا وطيبة وهي تنظر لزوجها بشجون عاطفي منقطع النظير وتعيش لحظات سعادته التي تجهل أسبابها معه بكل عنفوان وحرص وطيبة، حتى ظهر على مرمى من نظرهما امرأة عجوز واقفة بقلق على رصيف الشارع، ترتكز على عصا طويلة

مصقولة انعكست عليها أشعة الشمس فظهرت وكأنها من العاج، تُشير بيدها وتلوح بعصاها العاجية عاليًا لإجبارهما على التوقف، همست أنهر لزوجها بلهجة ود وبنبرة لا تحتمل الاعتراض في الوقت ذاته أن يتوقف ويسألا المرأة عن حاجتها، تردد قليلاً وشرع قائلاً:

– لكننا سنتأخر أكثر..

– أرجوك توقف.

كرر امتعاضه بطريقة مقتضبة أخرى:

– الوقت!!

– يذهب إلى الجحيم.

– ماذا عن عملنا؟!

– إلى الشيطان..

وأردفت بنبرة رصينة لا تقبل الشك:

– كل ما يهمني الآن أن أعرض مساعدتي على تلك المرأة لعلها في مأزق!

– حسنًا..

وتوقف أمام العجوز مباشرة وهو ينظر إلى ساعته وكأنه يناجي نفسه بسخرية. رأى المرأة بوضوح تام.. شقراء الشعر، بيضاء البشرة، زرقاء العينين، طويلة ومنتصبة بقامتها وكأن الدهر الطويل الذي عاشته لم يمر عليها، وقدر عمرها بالثمانين وربما يزيد قليلاً.

obeikandi.com

عندها لم تتوانَ أمُر ولم تنتظر.. أنزلت زجاج نافذتها وسألت المرأة بصوت دافئ يقطر مودة وحنانًا:

- سيدتي.. كيف لي أن أساعدكِ؟

بلهجة واثقة:

- أنا سائحة وأريد أن أصل إلى مركز المدينة.. لم أحصل على سيارة أجرة، بعد برهة توقف أخذت فيها نفسًا عميقًا، شرعت مستطردة: ماذا أريد أن أقول؟ نعم، تذكرت، هل لكما أن تقلاني معكما إلى مركز المدينة؟!

نظر إلى زوجته بحدة دلالة على عدم الرضا، فتلافت نظراته وهي تفتح باب السيارة، ترجلت منها بسرعة وهي تقول للعجوز:

- طريقنا واحد سيدتي.

نبر زوجها في نهاية المطاف معقبًا:

- هذا صحيح، فمكان عملنا أيضًا يقع في مركز المدينة ونحن متوجهان له، وغيّر نبرة صوته فجعلها أقرب إلى المناجاة والتسبيح: بسرور سيدتي، تفضلي، لن نخسر شيئًا.

وهو يخزر زوجته ويصليها بنظرات شرسة دلالة عدم الاقتناع بما كانت تفعله! وأمُر منهمكة ومشغولة بالعجوز وهي تشد على صدرها وكتفها حزام الأمان بعد أن عرضت عليها أن تجلس في الأمام.. رفضت المرأة بطيبة نادرة معتذرة عن قبول عرضها بقولها:

obeikandi.com

- أنتما مازلتما في مقتبل العمر، والحياة مقبلة عليكما بانفتاح وروعة، وما عليكما سوى الاندفاع نحوها لالتقاط دقائقها، ثم استطردت بحنية: لا تجعلا هذه الدقائق الثمينة تذهب هكذا سدى دون حب وسعادة وأنتما أهلاً لها؛ أما عني فأفضل الجلوس في الخلف فهذا يعني نهاية المطاف وعلامة من علامات الرحيل..

ثم ساد الصمت، وزوجها لم يتوان.. انطلق مسرعًا متوجهًا إلى مكان عمله.. فبادرته العجوز بسؤالها مستوضحة:

- أرجو ألا أكون مخطئة.. لقد قلت مذ قليل إنكما تعملان في مركز المدينة، أليس كذلك؟

- هذا صحيح سيدتي!

بجرأة مخلوطة بالعذوبة:

- عذرًا على تطفلي، لكن لي فضول أن أعرف في أي مجال تعملان؟

باهتمام مبالغ فيه:

- في مجال الصياغة وبيع الساعات اليدوية ثم أردف بتملق ملحوظ: نملك متجرًا صغيرًا هناك.. حيث نديره أنا وزوجتي منذ سنوات عديدة.

قال ذلك وهو يزر زوجته بنظرات جانبية كالسمكة ويغمزها.

ناحت العجوز متأسفة:

obeikandi.com

- آه.. لقد أقتنيت يوم أمس ساعة جديدة، لو كنت أعرف بأني سألتقي بكما لاشتريتها منكما.

برصانة ورزانة رد عليها:

- لا عليك سيدتي.. فكل شيء قضاء وقدر، هكذا أعرف الحياة وأفسرها، والرزق يأتينا بمشيئة علاّم الغيوب من دون أن نعلم!..

- بالضبط يا بني.. ما تقوله عين الصواب.

وهي تطلق زفرات مقلقة، سمعتها أنهر التي تجلس أمامها مباشرةً فشعرت بأنها صادرة من رئة العجوز وكأنها مصابة بالربو فبادرتها قلقة بسؤال:

- هل سيدتي تعاني من الربو؟

- لا داعي للقلق، فمن يعيش ما رأيته في حياتي يصاب بأكثر من مرض، والربو شيء لا يستحق الوقوف عنده كثيرًا، خاصة وأنا عاصرت الحرب العالمية الثانية بكل آلامها، مرارتها وعذاباتها، لذا أشكركما على شعوركما الطيب نحوي وقبل أن تلوذ بالصمت رددت: هذا لطف كبير منكما وجميل لن أنساه بسهولة. همس الزوجان دون تردد، بثبات وبصوت واحد وكأنهما متفقان:

- لا داعي للشكر..

في هذه الأثناء وصلا إلى مكان عملهما وترجل زوجها مسرعًا إلى متجرهما وترك زوجته تساعد العجوز، والأخيرة مازالت تغمغم

بزفرات لا تنقطع كالشخير.. ما أن فتح باب المتجر فوجئ بدخول زوجته بصحبة العجوز.. ولم تمضِ دقائق حتى كانت العجوز قد اتفقت مع أنهر على نيتها لشراء عقد صغير من الذهب. ذُهل من سرعة رد الجميل وهو مازال لم يعرض للزبائن بضاعته في واجهة المتجر- هذا ما راودته قرارة نفسه - شعر بأن السعادة التي كانت تغمره قبل دقائق معدودة لها دوافعها وأسبابها رغم جهله لها، فارتفعت ضحكاته الرنانة وبدأت خطواته تكون سريعة كمن يفر راكضًا.. لكنه امتعض مجددًا فجأة وانقلبت سحنته وتغير مزاجه المرح الفرح الذي كان للتو عاليًا، عندما سمع المرأة وهي تقول وتكرر جازمة:

- أين أنا الآن؟

ثم تساءلت عن الوقت! وعن سبب وجودها في هذا المتجر، وما شابه من هذه الأمور التي جعلته يشعر بالريبة من قواها العقلية، وما أقلقه أكثر.. سؤالها عن سعر العقد أكثر من مرة رغم تلقي الجواب من زوجته بكل وضوح! ثم فجّرت العجوز أعصابه وأزعجته كثيرًا بقولها:

- أنا لا أملك الآن محفظة نقودي.. لقد تركتها في الفندق الذي أسكن فيه، وشرعت: لا أعرف بالتحديد الطريق الذي يؤدي

opelkandr.com

إليكما! ولا حتى كيف أرجع إلى هنا مرة أخرى.. فأنا هنا وكما قلت مجرد سائحة، لم أصل إلا قبل أيام قليلة!!

تدخلت أنهر بصدق حميم كعادتها:

– نستطيع أن نلتقيكِ في نفس المكان الذي رأيناكِ فيه مذ قليل وذلك عند الساعة الثانية بعد الظهر، وهو الوقت الذي نتوجه فيه بعد استراحة الغداء مجددًا إلى المتجر، ها.. ما رأيكِ سيدتي؟

– عظيم، اتفقنا إذن.. وأضافت: لكن لي رغبة أتمنى أن تُسديها لي!!

– بكل سرور.. أجابتها أنهر.

– خذي خاتمي هذا لتنظيفه، وعندما نلتقي بعد الظهر آخذ الخاتم والعقد معًا!.

– بالتأكيد.. سأجعله يلمع كالماس تحت الشمس.

نهضت العجوز بقامتها الطويلة الثابتة وغادرتهما.. وزوجها يشعر بعدم الرضا لعدم تأكده من لقائها مرة أخرى كما اتفقا، وما أقلقه بالتحديد، إحساسه بضعف قدرة المرأة العجوز على التفكير والتواصل والتذكر؛ فرنت كلماتها التي كررتها حول السعر ومكان وجودها والوقت كالطنين في رأسه.. فأعطاه شعورًا غريبًا غير مستقر، لا يؤكد له قدومها مجددًا وهو يردد على زوجته كلمات اللوم لطيبتها المفرطة مع الآخرين حتى ولو كانت على حساب حياتهما.. ولم يعد يشعر بلحظات الصباح السعيدة ولا بنسائمه

obeikandl.com

العذبة الرقيقة، وكل ما كان يفكر فيه الربح الذي سيجنيه لو اقتنت العجوز العقد، خاصة وهو يقلب خاتمها بيده اليمنى فوجده ليس إلا خاتمًا عاديًا من الفضة لا يساوي حقه أكثر من خمسة عشر يورو! وأنهر تنظر له وتهز رأسها لمغالاة زوجها وسوداوية أفكاره وتصوراته وتسرعه في الحكم على الآخرين دون عناية أو تفكير عميق..

حلت الساعة الثانية بعد الظهر وهما في سيارتهما كالعادة، يسترق زوجها النظر إلى الطريق على غير عادته بقلق محموم، يتلهف لرؤية المرأة العجوز كما رآها عند الصباح، وما أن استدار نحو اليمين حتى وجدها تنتظر كما وعدت بنفس الهيبة والملابس.. لم يصدق نظره، لكن قلبه أصبح يخفق بالسعادة مجددًا طائرًا من الفرح.. ركبت العجوز السيارة بمساعدة أنهر وهي تمهمهم معتذرة عن الإزعاج الذي سببته لهما، وبكلمات جاءت أقرب إلى الدعاء..

لم تمضِ إلا ثوانٍ قليلة حتى نقدتهما العجوز خمسمائة يورو ثمن العقد وتنظيف الخاتم وطلبت من زوجها برجاء خالص أن يسمح لزوجته أن ترجعها إلى فندقها بسيارتهما.. وافق بكل ممنونية وهو ينظر إلى النقود الورقية ويعدها بحرص ثم يدسها في خانتها التي يعرفها جيدًا بعد أن رصها.

في الطريق سألت أهر العجوز مستفسرة عن سبب خروجها عند الصباح، بعنفوان وصدق أجابتها:

– الحقيقة لم أكن أملك هدفًا محددًا!

بذهول:

– هذا يعني لم يكن لديكِ عمل أردت القيام به في مركز المدينة؟!

– لا تفهميني خطأ، أنا لم أقصد ذلك..

ثم سكتت متأملة، سارحة وكأنها في عالم آخر! أعادت سؤالها باستغراب:

– كيف يعني؟ ليس لديك هدف وفي نفس الوقت تقولين لا تفهميني خطأ! أرجو أن توضحي لي ذلك سيدتي إن رغبتِ...

برزانة:

– ما أردته فقط، كيف أشرح لكِ ذلك؟ أعني لم يكن لدي شيئًا محددًا!!

– معذرةً لم أفهم!!

– آه.. وهي تطلق شخيرها، يقصد، زفيرها الصادر عن رئتها المتعبة، ما أريد أن أقوله هو إني كنت قد قررت عند الصباح أن أزور الكنيسة فقط..

فقاطعتها أهر شاهقة:

– تزورين الكنيسة فقط؟!

بصوت هزيل أقرب إلى الهمس:

– نعم يا فتاتي الغالية، أردت زيارة الكنيسة، وأشعل شمعة أتفاءل بها، وهذه عادة أمارسها منذ زمن طويل.. وقد قمت بذلك بعد أن غادرتكما في الصباح ورجعت إلى الفندق، لكنني وفي متجركما عثرت على هذا العقد الجميل الذي كنت أمتلك مثله يومًا ما، وأهديته إلى امرأة كانت تقيم معي في نفس الغرفة في المستشفى قبل عام تقريبًا، وعندما وجدته عندكما قررت اقتناءه في الحال.

ثم عبَّرت متابعة بسجيبة عفوية وبحساسية مفرطة كي لا تجرح مشاعر أهر قائلة:

– لا تعتبري شرائي للعقد رد للجميل، فأنا لا أفكر بهذه الطريقة المباشرة.. واستطردت: يكفي بأن العقد سيجعلني أتذكركما دائمًا وما فعلتماه معي له أكثر من معنى واعتبار، ناهيك عن تأخركما عن موعد عملكما وهو مكان رزقكما وما فعلته أنا لا يساوي القيمة الإنسانية التي تلقيتها منكما، ثم نوهت مبتعدة عن الموضوع: لكِ يا فتاتي الحسناء طيبة ساحرة تسع العالم كله، وقلب رحيم كقلب السلحفاة يبقى ينبض بالحياة حتى بعد ذبحها لساعات طوال!!

مندهشة:

– عجبًا!!

– ولَمَ العجب؟

- لأن زوجي قد قال عنكِ وردد الجملة ذاتها، بإنك تملكين قلبًا رحيمًا كقلب السلحفاة!.

ضحكت أنهر بعفوية رائعة كالأطفال.. شاركتها العجوز الضحك، وتحولت فجأة رناتهما وانقلبت إلى قهقهات عالية وكأنهما يشاهدان فيلمًا سينمائيًا كوميديًا.. بعد أن نست العجوز زفرات رئتها وصعوبة تنفسها وهامت في رحاب من المتعة غير المنتظرة أو المقصودة تمامًا كأنهر، خاصة بعد أن اعترفتا الواحدة للأخرى بأنهما أختان في البرج، حيث لهما نفس الطبيعة التي جبلها الله لبرج القوس الحازم، الحاسم، الصادق، الطيب، الرحيم، واستمرت أصوات الضحك تسمع عن بُعد كصهيل الخيول النافرة التي ترفض أن تروض!!

••••

تخلصت أنهر من رقابة العقل لها، في صمتها حديث ناطق، سكونها حركة وانطلاق، حياتها نذر، صلاتها دعاء، موتها فداء، ووقتها وما تملك طوع من تحبهم، وهي تحب الجميع وكأن الجميع أهلها؛ هذا كله لا يمنع من أنها غير منزهة عن الضعف البشري.

لا يقهر من يريد أن لا يقهر، أنهر تؤمن بهذه المقولة حد الاعتقاد الكامل.. لها معرفة عجيبة لا يعلم المرء الذي يعاشرها من أين

كانت تأتي بكل تلك المعارف، فهي مثلاً تكره العقاقير الطيبة، لا تقربها حتى في أشد حالات مرضها، ترفض استدعاء طبيب في حالة انتكاستها صحيًا وأثناء نوبة مرضها يظل الجميع يردد: ستهلك لو رفضت معاينة الطبيب لها، ستموت لا محالة.. لكنها وبقدرة خالقها وتناولها لبعض الأعشاب وورق بعض النباتات التي يجهل الشيطان نوعها أو اسمها بعد غليها وشربها، وما هي إلا أيام قليلة معدودة، تنهض فاردة طولها في البيت بكل عنفوان، كصارية مركب تخب البحر بكبرياء وشموخ مواجهة الريح والأقدار.

سبحان الله في طبع أمر، لها خفة الظل وهو يتحرك خلف صاحبه، لا يعجز ولا يهن، يختفي فجأة وإلى العدم، لا تعلم من سره شيئًا، ثم يظهر ثانية كما اختفى يسامر صاحبه، يلعب معه، يذهب، يأتي دون أمر، لا يمل، ويحافظ على أسرار من يتبعه بصمت وسكون، بلا لغة.

لا تعرف النوم إلا بعد تأكدها بأن الجميع قد غطوا في نومهم، عندها تشعر أن واجبها لذلك اليوم قد انتهى، فتخلد للراحة وهي مطمئنة. غريب عالم المرأة خاصة عندما تشعر الواحدة منهن بأنها تحيا وتعيش فقط من أجل أسرتها وهي مقتنعة بما تفعل؛ وإلا كيف تُفسر رغبتها في كتابة وصيتها لسبب وجدته هي يستاهل!.

ففي صباح مازالت الشمس خجولة في الظهور على مسرح الكون، تصدر منها آهات مسموعة متقطعة بجلستها تتربع سريرها وشعرها تناثر حولها كنافورة ترش الماء، فزعت أصواتها زوجها، ينظر لها بهلع غير مصدق ما يدور حوله، تمسك رأسها براحة يديها وكأنها تلتقطه بعد أن انفصل عن جسدها! كان منظرها يجلب للمرء السكتة القلبية، سألها زوجها باستغراب مندفعًا:

– ما الذي حصل؟ هل تعانين من مشكلة؟ كيف يمكن لي مساعدتك؟

تجاهلت توسلاته، وبدأت بالبكاء وهي تندبُ حظها العاثر بأسى:

– إنني إنسانة بائسة، ليس لدي أي حظ في الحياة ولا نصيب من السعادة التي أسمع عنها ولم أتعرف عليها...

ثم علا صوتها وبدأت بالنحيب المتشنج وكأن شخصًا عزيزًا لها قد توفي توًا، بعد هنية أردفت:

– لا أريد أن أحيا بعد اليوم...

ثم بصوت مرتجف متهدج وهي في حالة من الهستيريا:

– أريد ببساطة أن أنهي حياتي، أن أموت، لا أطمحُ بالحياة بعد وبهذا الشكل، لا.. لا أريد.

ثمَ أجهشت في البكاء المُر الذي يقطع أوصال من يسمعها.. بعد أن عادت لتكرر الكلمات التي قالتها قبل لحظات:

– أنا إنسانة بائسة، تعيسة، لا أفقه من الحياة سوى عذابها، وليس لدي أي طموح ولا حتى بصيص أمل يجعلني أعيش من أجله..

فقاطعها زوجها مقتربًا منها، سرح شعرها المائي، محاولاً تهدئتها قائلاً:

– عزيزتي ماذا تقولين.. ما الذي أصابك؟ أنا لم أعهد فيك هذا التشاؤم من قبل وخاصة عند الصباح، فنحن وكما ترين مازلنا في السرير لم ننهض منه بعد! هدئي من روعك أرجوكِ واشرحي لي بهدوء الموضوع، كي يتسنى لي فهمه ومساعدتك..

اكتفت بأن أدارت له ظهرها وهي تشهق بالبكاء وكأنها في مأتم عربي.. فقال مترددًا كالذي يعتذر:

– سأتصل بالطبيب حالاً ما دمت لا تجيبينني ولا تحبين أن أساعدكِ.

قام من السرير ونظره لا يفارقها، لكنها شعرت فجأة بالحرج، نبرت وهي تصوب نظرها دون أن تطرف إلى اللوحة الزيتية المعلقة على الجدار، الأصلية، لرسام هولندي، زرعت فيها الطبيعة الحانية في فصل الربيع وطفلان يتنزهان وهما متشابكا الأيدي بصوت خفيض:

– لا داعي...

ثَم صمتت، لكنَ بكاءها لم يصمت!.

– أستغفر الله، قال متذمرًا وتابع: ماذا عليّ إذن أن أفعل؟

openkandi.com

متسرعة كالشخص الذي لا يخشى شيئًا أو حتى لا يهاب الانتحار:

– لا شيء، لا تفعل شيئًا، وتابعت: اتركني أرجوك، فما أعانيه قد لا تقدّرهُ حتى لو فهمته، اتركني، أتوسل إليك.

وأجهشت في البكاء مجددًا.. القلق بات يأكله، همس برقة لم يتعودها:

– زوجتي الحبيبة، ما عليك فقط هو أن تثقي فيّ وتقولي ما تعانين منه، سأتكفل بكل الأمور الأخرى.. أعدكِ بذلك، وأضاف بلهجة الواثق من نفسه: لا تشغلي بالكِ أبدًا، لا تحملي أي هم، ثمَ أنا لا أطلبُ أكثر من هذا.. وتابع طافقًا بلهجة متوسلة فبدا كالشحاذ: بالله عليك هل هذا كثير؟!

تغيرت لهجتها، أصبحت عصبية المزاج فجأة، ترددت للحظات وهي ترتجف وكأنها تعاني من الحمى:

– الموضوع لا يخصك، صحتي جيدة ولا أعاني من أي آلام عضوية، ثم أردفت بإصرار: ومع ذلك أتوسل إليك وأقول.. اتركني وحدي الآن، أرجوك!..

غاصت في السرير مرة أخرى لتبدو وكأنها ليست موجودة، إلا من آهاتها وزفراتها الحارة، بعد لحظات قليلة معدودة، رفعت رأسها وكأنها تذكرت شيئًا تود قوله، ناحت:

- ليأخذني الشيطان، فأنا وكما قلت لا أريد الحياة، بل أمقتها، أرفض الخوض في مضمارها.

وبكل ما تملك من إباء وحزم وصرامة بعد أن جمعت قواها، صرخت مصرحة بإخلاص:

- أريد أن أقتل نفسي، لا أريد أن أعيش، هل هذا مفهوم يا رجل؟.

وهي تنظر له بأسى دون رحمة وتشير بأصبعها الصغير الرفيع الجميل بطريقة آمرة يملؤها الحزن:

- اجلب لي ورقة وقلم، أريد أن أكتب وصية! وابننا الصغير سيبقى أمانة في عنقك، ليس لدي أمنيةٌ أخرى أود تحقيقها أو تسجيلها سوى أن تربي ابننا على الفضيلة والأخلاق الحميدة ولا تجعله يحتاج شيئًا، أرجوك عدني بذلك، بل اقسم لي الآن وأمامي، بأنك ستنفذ وصيتي هذه بحذافيرها، هيا... عدني أرجوك...

ثم بدأت تصرخ بشكل غير مألوف، مما جعله يفقد توازنه المعهود ورصانته وحكمته التي يشار لها بالبنان في المواقف الحرجة والصعبة! لم يستطع التركيز فيما يجب أن يفعله، وشجاعته في تلك الصولة خانتنه تمامًا وكما يقال: "المرء يكون قويًا أبيًا وحكيمًا؛ عندما تكون المشكلة لا تخصه، وما أن يقف في المواجهة والموضوع يتعلق به شخصيًا، فسرعان ما يذوب لوعة.. ينهار وينصهر كالشمع المحروق".

opeikandi.com

بقي جامدًا كالصنم بلا حراك، ينظر لها وقلبه يدق بقوة ليبدو وكأنه يود أن ينفجر أو أن يخرج من مكانه.. في هذه اللحظة بالذات رن جرس باب شقتهم بصورة متواصلة مثل صوت إنذار لسيارة إطفاء مما زاد موقفه تعقيدًا وارتباكًا وحرجًا؛ هرع لفتحه.. وإذا بابنه الصغير يدخلُ عائدًا بعد أن غادر المنْزل قبل عشرين دقيقة تقريبًا متوجهًا إلى مدرسته، قال له متسائلاً باستغراب شديد، وملامح الحيرة وشعور من الغضب والرجاء رسمت على وجهه المتعب الناعس الذي لم يغسله بعد:

– ما الذي جعلكَ ترجع مجددًا يا بني؟ هل هناك مشكلة؟

تركه كعامود النور مصلوبًا واقفًا عند الباب ولم يرد على أسئلته، ليتوجه راكضًا مسرعًا إلى أمه، التي مازالت في السرير وعيونها تذرف الدموع الغزيرة بسخاء وهو يهمس لها مبتسمًا:

– ماما.. معذرةً، لقد نسيت أن أقول لكِ مع السلامة وأنا أغادر البيت، لقد كنتُ في عجلة من أمري.. لكني..

ولم تنتظر أمه أن يكمل صغيرها كلامه، خطفته من الأرض بحركة مذهلة، مدهشة، سريعة وخاطفة، بعد أن قفزت من على السرير كالأرنب لتضمه إلى صدرها وتقبله بحرارة وكأنها لم تره منذ سنين وهي تبتسمُ ضاحكة:

– لو لم ترجع الآن يا بني لقتلت نفسي..

بينما صدحت ضحكاهَا المرحة، الفرحة في كل أركان المنْزل، بعد أن عادت لها الحياة وبُعثَ فيها النشاط والحيوية فجأة، لتبدو وكأهَا في اللحظة التي قالت أمام الشيخ الذي عقد قراهَا: نعم، أقبل به زوجًا.. زرع ابنها قبلة على يدها الناعمة الملساء التي تُشبه سطح الزجاج وهو في الحقيقة لم يفهم ما كان يدور من حوله، لأنه مازال لم يتجاوز بعد عامه الثامن!.

••••

أسرهَا كانت ميسورة الحال، دُللت من قبل داوود أبيها.. وسلوك أبوها هذا في الحب والدلال سبب لها مصاعب جمّة في حياهَا من قبل المقربين منها. يدير متجرًا للصياغة في أحد أفضل شوارع بغداد على حافة نهر دجلة والمسمى بشارع النهر. أبيض البشرة، حليق الوجه قليل شعر الرأس، بدينًا قصيرًا، وله خاصية فريدة تمتع بها منذ صباه، حيث يقدر أن يتفوه بمائة كلمة في الدقيقة، يضحك بملئ قلبه، لا يهمه من الحياة سوى مسراهَا، ينفق على نفسه بإسراف غير محدود كما لغيره، خاصة النساء اللواتي يتعرف عليهن من خلال تجارته في الحلي، في حين لا يعطي لأسرته إلا النزر القليل على مضض، خاصة عندما يكون ممتعضًا، فيصيح بزوجته الطويلة

الجميلة المقتدرة على مواجهته كلما استدعت الحالة: من أين أتي لكم بالمال؟ هل تريدون مني أن أسرق؟!

لا أحد يعلم في هذه الأسرة المغضوب عليها، من هو المسؤول عنها ماليًا بالضبط. فقد كانت بدرية زوجته جميلة، وورثت عنها أنهر جمالها وحسن طلعتها وقليلاً من عنادها؛ قوية، نافست زوجها العمل والجدل، والأخير يأتي نتيجة الفهم، وعدم أخذ الأمور على علاتها دون فهمها وتحليلها ومن ثم إعطائها الحلول المناسبة، حيث تجد نفسها مخيرة لا مسيرة، وهذا ما كان يغضب زوجها منها، فهي لا تغض الطرف على تصرفاته متى ما رأته قد تجاوز حدود المعقول، عندها ترده إلى جادة الصواب بالقوة التي تملكها، الحكمة الفطرية التي تتمتع بها بعض من نسل حواء، وهذا كله لا يرغب به زوجها، يسميه تجاوزًا على رجولته الشنيعة التي لا تعترف بحق المرأة كإنسان كامل مثله.

أخذت ابنتها أنهر بالإضافة إلى جمالها بعض من قوة شخصيتها لكنها أهملت الأخيرة تناقضات أمها التي تمقتها وكم كانت تكره ميزانها غير العادل في تقسيم حبها لأسرتها! والدة أنهر امرأة مدبرة، تعودت أن تشتري وتبيع، عرفت كيف تأتي بالمال، ولهذا السبب ربما كان داوود لا يحب أن ينفق على البيت من ماله الذي يسميه الخاص!،

يشتد الصراع ويبلغ ذروته عندما يطالب زوجته بمضاجعته، حيث تناقلت الألسن بالسر والعلن: أن زوجته أودعته السجن بتهمة لفقتها له بانتمائه إلى أحد الأحزاب المعارضة، كما يقال والله أعلم، بأنها لم تكتفِ بذلك، بل أدخلته مستشفى الأمراض العقلية بسبب لوثة عصبية أصابته للتخلص من لعناته ونزواته وتعسفه وما يمارسه من ظلم وطغيان داخل بيته.

شاء القدر أن يبخل على والدها أسباب الترف والراحة، مع الوقت تحولت بدرية دون أن تعي لرجل البيت!. هي من تقرر للعائلة، هي التي تصرف عليها، استقلت ماليتها عن زوجها، سعادتها أن تعير أحدهم نقودًا، أصبحت تحب أن تقرض الآخرين، تعطيهم دون حرج أو سؤال، تقول لهم خذوا، أرجعوا النقود متى ما تيسر لكم، هي لم تكن تبذر مالها كما يتوهم للبعض، بل حريصة جدًا على نقودها حرصها على سمعتها، لكنها تريد أن تشعر بأنها السيد الذي يمتلك زمام الأمور، وكلما ازداد زوجها إهمالاً لأسرته، توسعت صلاحياتها وسيطرتها وسطوتها، حتى باتت مع الأيام رجل البيت دون منازع.. ناهيك عن هجرانه دون أن تسمح له بطلاقها، فدينها لا يسمح بممارسة حرية الطلاق بسهولة، أجبرت نفسها على الحياة والاستمرار معه تحت سقف هذه الظروف غير الطبيعية لأسرة عراقية، زهدت به جنسيًا وعودت نفسها بأن تحيا من أجل

openkandari.com

بناهًا وابنيها فقط - كراهية - لا تسعى إلى الحصول على متعها الطبيعية كزوجة، ولم تطالبه يومًا بحقها ذاك منذ سنوات طوال..

• • • •

الأمر هذا الذي ذكرته أنهر برسالتها لخطيبها؛ كان في الحقيقة الشرارة التي تسبب إشعال كل نزاع ينشأ داخل الأسرة، بين الأب الذي لا يهتم إلا بالترويح عن نزواته خارج بيته، وبين الأم المغلوبة على أمرها، القوية التي لا هم لها غير أسرها، رغم هالة تناقضاها الرهيبة الشنيعة التي لم تعرف يومًا الرحمة، خاصة مع أنهر..

مضت الأيام مشحونة بالتوتر داخل الأسرة.. غائمة، ماطرة، لا تتحمل الكلمة أو النكتة أو حتى الابتسامة، في هذه الظروف الصعبة ولدت أنهر، عاشت وترعرت لكن اختلف الأمر بتعامل دوواد معها، إذ كان يفتقدها باستمرار على غير عادته، يسأل عنها لو لم يرها أمامه عند المساء حين يرجع قافلاً إلى بيته، وما أن يحضنها ويشمها ويقبلها ثم يضع في جيب فستانها القصير المطرز بالورود نصف دينار، وفي أحيان يكون قد أخذ الطرب منه مأخذًا، أو أن يكون قد قضى حاجته خارج البيت على أفضل شكل.. فينقدها دينار كامل قبل أن يبدأ جولته مع السكر وحده في غرفة الجلوس.

هذه العاطفة الأبوية التي تعتبر نادرة في أسرهًا أثارت غيرة وحسد وحفيظة أخواهًا؛ كمال الذي يكبرها بثلاثة أعوام بالتحديد لأنه الذكر الوحيد في عائلة شرقية! وأختيها كذلك على هذا التمييز في التعامل، والغريب أن أمهم لم تختلف عنهم! إذ سايرهم في غيهم وظلت تكيل لها الشتائم في كل داخلة وخارجة وتعيرها بما لا يعيب، وجعلت لها من أخوها كمال خير رقيب، ناهيك عن ضربها وحبسها في البيت لأيام طويلة دون أن تأتي بخطيئة أو تجني ذنبًا.. والسبب كله يعود إلى شخصية أهر القوية الجذابة التي ينفر منها الأنانيون المتناقضون..

تعشق الأطفال حد الجنون، يصعب شرح ذلك بالكلمات، وما تتجمل به من طباع كانت توحي للمرء بعد التقرب منها، بأنها مازالت طفلة في الرابعة من العمر، وحين تتكلم، يصدق من يسمعها مباشرة للدفء والحميمية الموجودان في صوتها لتبدو وكأنها تعتذر.. هذه هي أهر بالمختصر...

جميلة الطلعة يخجل الجمال من فتنتها مثل أميرة بابلية، رقيقة كالنسمة، وجهها الدائري الأبيض الطافح بالحيوية والناطق بالحياة، في حنكها شامة لم ترتح لها، تخلصت منها بأشعة الليزر فيما بعد، صوتها الدافئ الحنون، شعرها الحني الطبيعي غير المعامل بالأصباغ

openkandi.com

المفروق من الوسط يتموج على كتفيها، كما يترجرج صدرها بوقاحة لا يحسن تجسيد وصفه خلف قميصها الأبيض الحريري ذات الأزرار الناعمة السوداء، الذي قابلت به فتى أحلامها آدم ليلة وصولها إلى منتجع الحبانية السياحي؛ ممتلئة الجسد باتزان، عيناها الخضراوان كفصين من زمرد يشعان بريقًا نادرًا يخجل ويبهر، يعطيانك شعورًا بالأمان ويجعلك تركع صاغرًا تصدقها في كل ما تقوله، لا يطرف لها رمش وهي تحدق بمحدثها فتكبر عيناها وتتوسع بشكل مخيف وجميل في ذات الوقت، خاصة في لحظات انفعالها، وهذا الأمر يسبب رعب غير قليل لمن يواجهها في تلك اللحظات الحاسمة.

تعودت أن تسير بغنج كالزرافة، بل كانت تعطي انطباعًا عندما تمشي بأنها ستقع، فتمشي معها ويدك على قلبك خوفًا عليها من السقوط! ضحكتها ساحرة تسمع فيها رنة الذهب، في نبرة صوتها حنّية دافئة تغرق سامعيها بالشوق والوجد، وكأنك أمام قديسة تبتهل في حضرة نبيها. في وجنتيها غمازتان رقيقتان أكسباها طابعًا متميزًا، خاصة عندما تبتسم فتغرق الواقف أمامها بسحر طاغٍ لا مجال إلا الغوص فيه دون مقاومة تذكر.

مولعة بالقراءة وتعشق رقص الباليه، كانت تتمنى من أعماقها أن تكون يومًا راقصة في إحدى المسارح أو مدارس الباليه، كل هذا يجعلك تلقاها لتسلم سلاحك لها من أول وهلة فتشلك بجمالها وتصرفاتها الطفولية البريئة المدهشة التي لا تنم على فتاة في سنتها الأخيرة في الإعدادية، قاربت التاسعة عشر، تصرعك مأخوذًا كأن شيئًا قد نُهب منك دون أن تشعر، يا له من إحساس لذيذ يزيد الدهشة روعة، فيخال لك ساعتها أن قلبها يدق في عينيها، واضحة تعرف سبيلها كما تعرف ربها..

بعد مداولات عديدة ونقاش دام أيام، كأنهم يقولون بصوت واحد: أيها العمر العليل المحسوب علينا بالثواني كم تبقى منك؟ قررت أسرتها أن تحجز شقة على شاطيء بحيرة الحبانية يقضون فيها أيام العيد، بالاتفاق مع عائلة ابنتهم الكبيرة سمر وزوجها اللئيم الصعلوك الذي تخافه الشياطين، عاصم غير المأسوف عليه، الذي يستحق الإعدام رميًا بالرصاص.

- ٣ -

بأنانية متسلطة رفض غير المغفور له الوغد قبيح الطبع، سيء الذكر، عديم الذوق عاصم الذي له عينان صغيرتان مدورتان كعيني أفعى مرقطة لا يؤتمنان، زوج سمر ابنتهم، في آخر لحظة من الانطلاق معهم كما كان الاتفاق؛ قرر أن يسافر إلى المنتجع مع عائلته مباشرةً دون الانضمام إلى قافلتهم، على أن يلتقي بهم هناك. انزعجت الأم لتصرف نسيبها، ابتسمت رغمًا عنها، شتمته بصوت مسموع وهي ترفع منكبيها استهانة: إلى الجحيم دون ابنتي وولديها، يرفض الانضمام إلى قافلتنا قال..

لم يعقب الأب، التزم الصمت، والصمت موهبته التي تفنن بها، سارة ونداء لم يعبئن، وأنهر شعرت بالضيق لأنها حرمت من متعة اللقاء بابني أختها أثناء الطريق، ضمرت ضيقها في نفسها كالعادة، فلم يظهر عليها تأثرها، تستطيع أن تضحك وداخلها يحتضر. ألقوا أنفسهم داخل السيارة، اندسوا فيها كيفما اتفق إلا أنهر!

صهل كمال من أعماقة لاغيًا:

– أين ذهبت هذه؟ دائمًا هي هكذا.. لا تريد أن تتغير!.

نبرت السمراء نداء برعونة محرّضة وبانتهازية مكشوفة:

- تراها الآن أمام المرآة تصفف شعرها، أو تضع الأحمر والأخضر، يعني تتغاوى كما تعرفون!

بتقريع ناحت الأم كعادتها:

- تحتاج إلى قص رقبتها كي تتعلم!.

في هذه الأثناء ظهرت أنهر بعد أن تأكدت من إغلاق كل الأبواب والشبابيك، وأسدلت الستائر التي كانت تقف خلف الشبابيك لتحرسها، وهي تحمل حقيبة بيدها والابتسامة لم تفارق محياها، رن صوت الذكر لابكًا منفجرًا داخل السيارة مجددًا كهزيم الرعد:

- هذه حقيبتي، اللعنة، لقد نسيتها على السُلم!

دستها أنهر بصمت في صندوق السيارة، وهرولت نحو أبيها فجلست بجانبه في الأمام، مالت عليه قليلاً، فاستراح رأسها على كتفه.. حاول كمال شكرها، لكن، لم تطاوعه نفسه.. كيف يشكر أخته وهي البنت؟ الرجل لا يخطئ ولا يشكر ولا يعتذر!! ردد ذلك في سره، ثم نبر مراوغًا:

- لقد التهيت بتنظيف السيارة وتهيئتها، فانشغلت عن أهم أشيائي التي تخصني، هذا كله من أجلكم!..

غمزته أنهر بفتنة خلابة وهي تشعر بفيض من سعادة دافقة تثني على عمله بعد أن مطت رقبتها:

- سائقنا الورد سيوصلنا ويرد، ليس لنا غيره، هو الخير والبركة ولولاه لما استطعنا أن نخطط لهذه السفرة..

قالت ذلك لأنها تؤمن بصدق أن الثناء والإطراء والحب الخالص الخالي من الرياء والنفاق يأتي بثمار رائعة تصل حد الإتيان بمعجزة، وتعلم كذلك لو كررت الكلمات المحبطة التي لا تشد من أزر المرء، كأن تقول له كسول أو خائب أو فاشل، بعدها سوف لن يكون إلا كذلك حتى لو ملك ملكوت أذكياء العالم كلهم مجتمع فيه... وما أن أتمت إطراءها حتى ردَّ بحرج مثل شيطان يتجلى في ساعة صفاء:

- شكرًا لأنك جلبتِ حقيبتي، ففيها كل ما أحتاجه، ولو وصلنا ولم أرها لصعقت!

التمعت ابتسامة على شفتيها، تورد خديها من الخجل، همست بخشوع محبب:

- خوش*، ثم برنة صافية دلت على طيبة عريقة متأصلة فيها هامت: لا شكر بين الأخوة عزيزي.

طبطب الأب على يد ابنته وهمس مادحًا:

- كما عرفتكِ دائمًا، تسدين النقص وحيثما يكون بصمت كالظل، لا يعرفه إلا العاملون المبدعون.

---

* خوش : جيد

obeikandl.com

قبلته على وجنته وضحكت برقة. همهمت الزمرة في الخلف بكلام غير مسموع.. لم تهتم ولا أبيها للغيهم ودمدمتهم..

• • • •

تحرك قبطان السيارة الجالس في منصة القيادة.. أحكم بعنفوان حزام الأمان على صدره بعد أن غاص في مقعده خلف المقود، ذكرهم الوحيد كمال، ذلك الوسيم المغتر بنفسه كالطاووس، أشقر الشعر، بشاربين رفعين مثل هلالين مقلوبين يحرسان شفتيه، واضعًا نظارته الشمسية أمام عينيه الجميلتين الزرقاوين وهو يشعر بانتعاش عجيب، كعادته المزمنة التي يصعب على الشيطان تغييرها.

نهار ٢٣ من آذار لم يبدأ بعد صباحه، كان مترع بالشمس التي تحيهم وتودعهم وهي ترسل لهم بسماتها. ينطلقون بسيارتهم وهي ترتجف، ما بقيت ساكنة، تتحرك عجلاتها فيهرب الطريق من تحتها تسابق الزمن، تحك بلاط الشوارع بقوة، بحنق متمنية أن تغادر بغداد، بغداد التي بدأت تصحو منذ ساعات الفجر الأولى على الرعب، أزيز الطائرات، صوت الانفجارات، والمذياع لم يتعب ولم يبح صوته وهو يعلن عن بيانات الحرب المدمرة، أرقام الشهداء تزداد كما الأرامل واليتامى، بكاء ونحيب، دروب خاوية كالبطون،

والرجال في الجبهات يقاتلون، يحاربون، الكايزر يقول منتصرون ولن نهزم بإذن الله، العدو يردد القول نفسه، لم تعد تعرف الحقيقة، الحقيقة باتت نكتة ساخرة تتردد على اللسان، ضاعت وسط صراخ المطبلين.

تسلقت أهداب الشمس هامات البيوت وأسطحها، استحلتها وفرشت نورها عليها، لا مجال لتراجعها إلا بعد أن تسعد من حولها، ابتسمت بجذل، ابتسامتها كانت أمل، والأمل آخر من يموت كما يقول المثل الألماني العتيق.. راقبتهم الشمس من وراءهم وسيارتهم تخترق قلب بغداد مندفعة بفرحهم، ونسيم الهواء كان عليلاً يزفهم، يشفي الروح من أدرانها ويطهر خطاياها. حركة السير والمرور كانت انسيابية، ساعدتهم كثيرًا على تناوش❁ ضواحي العاصمة بوقت قياسي مذهل..

على جانبي الطريق انتشرت ثكنات الجيش ومعسكراته، أبوابها كانت واسعة وكبيرة بحيث تدخل وتخرج منها الدبابة وكأنها جرادة.. تصدّرتها جداريات أكبر من البوابات طولاً وعرضًا، صلبت عليها صور الكايزر العراقي بهيئات ووقفات مختلفة، تفنَّن في رسمها الدلالون المقاولون بإلهام ووحي منطقهم القائم على اللعب بالبيض

❁ تناوش : التقاط

obeikandl.com

والحجر كالسحرة المشعوذين، هم يعرفون حقيقة سيدهم الذي ولد في حاضنة التصفيق والتهليل، والأخير لا يحب في حياته ولا يشعر بلذة الترف إلا في هذه الأجواء الملوثة التي توهمه بأنه المنتصر دائمًا، لا يقهر ولا يموت، كرب العباد! في الطريق همست أمهر برقة بأبيها الجالس بجانبها أن يطلب من أخيها التوقف.

- أنتِ تأمرين دميتي الجميلة، مَلاكي الذي يحرسني، لكن هل لي أن أعرف لماذا؟

- لقد رأيت للتو خيمة يبيع صاحبها البطيخ الأحمر، أشتهيته! أرجوك دعه يتوقف..

صاح دوواد بابنه:

- توقف يا بني، ثم استدر حيث تلك الخيمة التي مررنا بها، أنا أراها من هنا، ذلك الذي يبيع صاحبها البطيخ.

هوس معتاد منفعلاً:

- ماذا، رقي، في هذا الوقت من الصباح؟

لم يستجب لنداء أبيه وظل يقود السيارة معرتًا بالمقود يلاعبه يمينًا ويسارًا.. فعاط به أبوه مجددًا وصوته يحمل بقايا من غضب:

- طلبت منك التوقف حيثما قلت لك.. هناك عند الخيمة التي يبيع صاحبها البطيخ..

obeikandi.com

استدار بتمنّ وهو يتأفف وينفخ غضبًا صاحبنا الوسيم الذي وسامته كانت سبب فشله، عكس أخته أهر، فجمالها وطبيعتها جعلاها فتاة ناجحة في حياتها، في حين تمرد أخوها بمساعدة دلال وتربية الأم الخاطئة المعتمدة على مفهوم غض النظر لأنه الذكر، أفسدت ابنها دون وعي وأتت على ما كان سليمًا معافى، فازداد غرورًا وعنجهية خاصة عندما تعلق بفتاة من دينه، سيرتها كانت أقرب إلى البغي، أحبها حُبًا جارفًا يفيض نزوات شهوانية بلا عقل يكبحها، أخفق في دراسته في المرحلة الإعدادية ولم يستطع تخطي حاجز امتحانات البكلوريا الوزارية للمرة الثانية على التوالي، أُجبِر على ترك المدرسة والدخول لخدمة العلم في الجيش، والحرب العراقية الإيرانية نارها مستعرة في سنتها الخامسة لم تخمد بعد.. وقتها سمع أن فتاته قد تزوجت وانقطعت أخبارها عنه، فزاده المسكين ذلك تعنتًا وغباء، وها هو يتمتع بإجازة العيد مع أهله ويلبي النداء فتوقف على مضض، ينظر إلى أهر التي قلبت مزاجه بعينين ملتهبتين تنطقان بالشر وتجدحان بالشرر.

نزلت أهر كالقطة من السيارة، ذهبت من فورها إلى شجرة تين كان صاحب الخيمة يستظل بها، فارعة الطول وارفة رائعة الثمر، تركتهم بلا إرادة وذهبت تقطف بعض التينات التي لم تستطع أن

تقاوم فطرتها الطفولية وحبها المجنون للطبيعة، كأنها تمثل تصرف الطبيعة تجاه الإنسان في لحظات تجلي واقعية.. جمعت في حفنة يدها خمس ثمرات سوداء ناضجة تنضح دموعًا من عسل، اتجهت إلى أبيها الذي ترجل من السيارة كما كمال، وبقي الأخرون في السيارة ينتظرون، لتعطي كل واحد منهم ثمرة، اكتفت بفرح التقاطها وتوزيعها.. هي تحب التين أكثر من الرقي، لكنها فضلت توزيعهن، أوقفت السيارة من أجل الرقي وليس التين، هي تعرف ما تفعل، ليست مجنونة، ولا تهذي في صلاتها عندما تكون في محراب معبدها تتأمل، تفصح عما تريد، أرادت أن توزع التينات لا أن تأكلهن وفعلت.

••••

رجعت فرحة وهي تتمرجح بمشيتها إلى أبيها الذي استغل الفرصة فأشعل سيجارة، مج منها أنفاسًا نهمة سريعة، يعجبه كثيرًا التدخين بهذه الطريقة، تعود عليها، يقول لا فائدة تذكر لو دخنّت السيجارة ببطء، عليّ أن آتي عليها بلحظات، وقتها فقط أشعر باللذة!..

طلبت منه أن يشتري لها نصف بطيخة فقط ويبقيها بقشرتها بعد أن يقطعها إلى ثلاث قطع، لأنها تريدها هكذا، يعجبها أكل البطيخ

obeikandl.com

الأحمر بهذه الصورة، وانزوت لا يسمع لها صوت تأكل بنشوة بعد أن وجدتها رائعة الطعم حلوة كالسكر، تنظر إلى حبيباتها السوداء وتلتقطهن بأصابعها الناعمة التي تشبه مفاتيح البيانو المصقولة ثم تلتهمها بعد أن تحطمهن بأسنانها البيضاء الشابة، في حين اشترى أخوها النصف الآخر وصاح بغطرسة مشؤومة بعد أن بلع ثمرة التين دفعة واحدة وهو يتلمظ بالبائع الذي يرتدي ثوب لا تعرف لونه الحقيقي من جراء الأوساخ التي لحقت به؛ طويل القامة نحيف، مقوس الظهر مثل قوس الرماية، له وجه أسود كوجه الغراب، الإنسان قد يكون جسده نظيفًا وهندامه أنيقًا، هذا لا يعني أن يكون داخله كذلك، الرائحة النتنة لا تنبعث فقط من الأجساد العفنة، بل من بعض الأفكار والأرواح والعقول!.

يحدج زبائنه بنظرات ناعسة دون أن يحاول الكلام، امتد فراشه على ناصية رصيف الشارع، وعلق على إحدى ركائز الخيمة فانوس جازي قديم، انتبهت له أنهر وعرفت من فورها بأنه ينام بجانب بضاعته لا يفارقها كالحارس، قالت تكلم نفسها: بالتأكيد يبدو فانوسه الجازي هذا في الليل وهو متوهج مثل نجمة تغمز الأرض، ابتسمت لوصفها، رأته جميلاً وفيه شيء من الرومانسية.. صفقت بكلتا يديها الطريتين الصغيرتين وكأنها تنادي إلى نادل.

انتشرت في وجه الحارس – صاحب الخيمة – علامات من يراها لا ينساها، حبات من الجدري بحجم حبات العدس، ظل مذهولاً من تصرفات أنهر، رآها كيف توزع ثمرات التين دون أن تتذوقها، أعجبه تصرفها، حرك حزامه الذي يقسم جسمه نصفين، بعد أن أرجع سكينه الحاد الطويل الذي يشبه السيف، يشقّ بها الرقي إلى مكانها تحت الحزام وهو يستمع بعدم رضى لكمال:

– اقطع لي لبها مثلثات صغيرة وضعها في طبق!

ثم حاول كمال أن يقطف بعض من ثمر التين، نهره المجدور بقوة، منعه وهو يقصفه بنظرة رثاء خرساء ويصيح به بعد أن وجد فرصته لتصفية حسابه معه لقاء تعنته وعنجهيته وتكبره:

– يكفي ما أعطته إياك تلك الفتاة التي أعتقد أنها أختك؛ هي لم تأخذ لنفسها شيئًا، اكتفت بتوزيع ما اقتطفته وهي تشعر بالرضى، وأنت تريد المزيد، لماذا لا تكون مثلها؟

ثم حاول بخبث متحرشًا يجهل الشيطان تقديره أن ينغص عليه:

– يمكنك أن تشتري مني ذلك، الواحدة بربع دينار!!

لم تشعر أنهر بمن حولها، أكلت الرقي بنهم وهي تضحك بسعادة ملائكية وكأنها تحقق آخر رغباتها في الحياة! امتعض كمال وانفعل من حديث المجدور وطريقته في الكلام، انفعاله سرى في عروقه

كالأعصار، لم يعجبه، رجع إلى السيارة حانقًا، متكدرًا ومكروبًا بعد أن التهم الرقي بغير سرور مرددًا:

– إلى الشيطان أنت وبضاعتك البائره هذه!.

ثم انطلقوا بسيارتهم يسابقون الريح.. في بداية منطقة أبو غريب اضطر كمال للتوقف، ارتفاع حرارة المحرك جعلته يشعر بالارتباك والخوف، ماكينة السيارة تحتاج إلى زيت تعوض الخسارة التي تلحق بها، هو يعرف ذلك جيدًا، لم تكن الماكينة بصحة جيدة.. أضاف لها نصف لتر، نعق متذمرًا وهو يطقطق أصابعه:

– تستهلك من الزيت أكثر مما تستهلكه من البنزين! ثم خفض درجة صوته مناورًا: كيف هذا؟ اللعنة، سوف أغيرها حال تبرع أمي لي بقيمة سيارة جديدة، سأقنعها بالتأكيد، أنا ذكرها الوحيد في أسرتها اللعينة، تحبني أكثر من نفسها، بل تقص أصابعها لو طلبت منها ذلك.

لم يسمع أحد كلماته الأخيرة، ضحك باستهتار مخجل، متهتك وهو يردد: إلى الجحيم، سأغيرها، نعم، لابد من سيارة أخرى تناسب قدري وحالتي الاجتماعية!!.

قبل أن يستدير إلى الشارع الرئيسي المتوجه للمنتجع رأى ورشة لتصليح السيارات، كُتب على واجهتها يافطة كبيرة بحروف عريضة سوداء فحمية، خطت باليد مخربشة: "مستعدون لتصليح

كافة أنواع السيارات"، توقف عندها ثانية لفحص الزيت، لم يجده ناقصًا، تعجب، حمد الله، استمر بالقيادة ومسجلّة السيارة هلهل صادحة بأغنية عراقية لأنوار عبد الوهاب يرغب أبوه سماعها دائمًا: "أنا يا طير ضيعني نصيبي، حرت لأني لهلي ولأني لحبيبي، حرت ما بين أنسى وبين ألاكَيك، أحن مرة لهلي ومرات أحن ليك".

وصلوا المنتجع بسيارتهم المطرقعة الخاصة من نوع "داتسن نيسان" موديل ١٩٧٩ لونها أبيض من النهار، تولى أمرها كمال، يقودها ببطولة مغرورًا معتدًا بنفسه معرعرًا بمقودها وكأنه خصمه، جلس بقربه والده وأهر عند النافذة، أتعب شعرها الريح أثناء الرحلة عندما كان زجاج نافذتها مفتوحًا للوسط، السبب الذي جعل كمال طوال الوقت يصرخ بها طالبًا إغلاقها؛ هي ليست من النوع السهل، لو اقتنعت بما أراده أخوها لفعلت، ضحكت بهمس وصكت على يد أبيها بحنان ولم تنفذ أمره، خرجت كلماته مع الهواء بعد أن امتزجت به.. هذا كل ما حصل.

كانت السيارة بيضاء يقرقر محركها بانفعال صارخًا بضجة وقحة بعد أن أنهكته الرحلة بصوت عالٍ متواصل كصوت نقيق الضفادع المتجمعة للتزاوج، الزيت المضاف لم يُهدئ أو يخفف من قرقرة المحرك ففضحهم.. جدد كمال تلميع السيارة قبل سفرهم بفترة

وجيزة، آثر أن يعتني بها كما يعتني بنفسه، فظلت السيارة والحقيقة تقال، تلمع دائمًا وكأنها معروضة للبيع أبدًا، هذا كان بفضله.

ترجلت العائلة من السيارة أمام شقتهم التي استلموا مفاتيحها الثلاثة المربوطة بحلقة ستيل، يتدلى منها سير جلدي عريض وردي اللون يشبه لسان الإنسان جرحه الرقم ٢٢١ محزوزًا باللون الأسود، بعد توقف قصير أمام غرفة استعلامات المنتجع السياحي التي تولى شأنها الرجال.

obeikandl.com

- ٤ -

شقة ٢٢١ ورقم هاتفها يحمل رقمها؛ مطلة على شاطئ البحيرة، ذلك الشاطئ الذي أنشئ عليه فندق وشقق سياحية ومسابح ومرافق ترفيهية رائعة بواسطة شركة استثمار فرنسية على الطراز الحديث، سرعان ما أهمل المشروع في السنوات اللاحقة، بات طعمًا للغربان، ملاذًا للهلاك، ولهوًا لرجال ونساء الليل.

كانت الشقة من طابق واحد تبعد عن أخواتها بضعة أمتار، وكل مجموعة تقدر بست أو سبع شقق تميزت بلون واحد، تمثل بلونها وقرب بعضها البعض حي صغير لا يخطئ المرء فيه منذ الساعات الأولى من إقامته فيه، يعتقد أن هذا الأمر كان مقصودًا من الشركة التي تولت بناء المنتجع، ما أن تدخل الشقة حتى يلاقيك لسان ضيق بعرض ذراع نظيف جديد الطلاء، تشم فيه رائحة الصبغ، إلى اليمين غرفة نوم، تقابلها غرفة نوم أخرى، يؤدي الممر إلى صالة بباب يفتح إلى خارجها حيث باحة صغيرة خضراء تسكنها خمس كراسي بلاستيكية بيضاء، ظهرهن مُشبَّك بزخرفة على شكل مثلثات متقاطعة، وطاولة من نفس النوع، يتحملن حرارة الصيف وبرودة الشتاء بتجلد وصبر يشار لصانعهن بالبنان والعرفان.

تقف خلف الباب ستارة شفافة، حليبية اللون مخططة بخيوط رفيعة زرقاء، في نهاية الصالة استقرت خزانة ملابس أنيقة تلمع، شقت من وسطها ليشكل الشق بابين عريضين لهما لون الصاج المصقول للتو، وهي رابضة على صدر الأرض بأريحية فائقة، تطل تقريبًا على كل معالم الشقة.. ثم المطبخ، والحمام.

الشقة كانت مكيفة التبريد، رائعة الهندسة، بحيث استطاع كمال أن يتخذ من إحدى مقاعد الصالة سريرًا ينام عليه بأريحية فضّلها على أي سرير آخر عادي، حيث اصطفت المقاعد على شكل حرفL ثابتة، غطت بإسفنج مقمط بأقمشة زرقاء اللون داكنة، توسطت الصالة طاولة خشبية قصيرة القوائم، قوائهما تشبه سيقان الأقزام، قابلها جهاز تلفاز جلس بجانبه بأبهة هاتف أسود كبير بسلك طويل..

انهمكت الأسرة في ترتيب حاجياتها بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة بعد الظهر. اتخذ الأب من إحدى الكراسي الموجودة في الباحة مستقرًا له، وبدأ يدخن سيجارة وينفث دخانها بعيدًا عاليًا في السماء، كتعبير عن تفكير في أمر ما يقلقه، أو يحن إلى وضع اعتاد على ممارسته ولم يجده أمامه! صاح الذكر كمال نابشًا الأرض بقدمية كالديك:

obeikandl.com

- أنا جائع جدًا.

نادت أمه لأهر برنة حازمة، وهي تحمل في يدها اليمنى صندوقًا من الفلين مملوءًا بالثلج، يحوي على سمك البني والشبوط المملح منذ الليلة الفائتة، في حين حملت يدها الأخرى سلتين من الفاكهة واللحوم الباردة والخبز والخضراوات بما فيها البصل الأخضر:

- تعالي، أعدِ لأخيك شيئًا يأكله، فقد أنهكه الطريق الطويل وجعله يا حبة عيني وحسرة قلبي عليه يتمايل من التعب والجوع، هيا أسرعي..

في حين ظلت أختها الكبيرة سارة ترتب حاجياها على مهل في خزانة الملابس وتطنطن بأغنية لحميد منصور: يا نورة، يا نورة... لم تتجاوز سارة السادسة والعشرين، لا جدال على جمالها وغرورها بجمالها! لها صوت متميز تسمع فيه رنة الدُف المثقوب، لا يعجب صوتها، بل لا يطاق، يستفز، منفر ومقلق للأعصاب.. لا يتناسب وجمالها الرائع؛ شعرها أشقر، عينيها زرقاوين كعيني كمال لكنهما أكثر زرقة، أقصر قليلاً من أختها أهر، ذلك لم يشكل لقوامها عيبًا، اشتهرت بأنانيتها المفرطة، تتبجح أحيانًا بالخفاء وسط المقربين لها بإيمانها واتخاذها لبعض الأفكار اليسارية من غير إثبات يدل على صحة ما تدعي! تعتبر نفسها مثقفة، قارئة جيدة، تلتهم الكتب كما الأكل والحقيقة مشكوك بأمرها، تناقضها وغرورها اللعينان حطما

obeikandi.com

جمال شكلها وروحها، سبحان الله، أمها رغم تقدمها بالعمر كانت لها ميول تشبه ميول ابنتها هذه، من حيث التكبر والغرور الطائش، يسمى الغرور الأعمى، الذي يرفض أن يرى الأشياء على طبيعتها وبحجمها الحقيقي كما خلقها الله، يبصرون بلا بصيرة.

تعمل سارة الجميلة في دار الإذاعة موظفة في استعلاماتها براتب يتلائم مع ما تملكه من مؤهلات!، تخرجت من الإعدادية وتنقلت في العديد من الوظائف، وأخرها كانت في وزارة النفط، تشاجرت مع رئيس قسمها، تركت العمل بسببه بعد أن ادعت مضايقته لها، أزعجها تصرفه ذاك، فتركت عملها دون رجعة، ثم جلست في البيت نصف سنة، لاقت من أمها الويل، أمها التي ما أن تعشق أحدًا منهم حتى تكره الآخر إلا كمال حبيب قلبها، إذ بقي بعيدًا عن ممارسة هوايتها هذه معه، فظلت تحبه بصدق دمع الفرح دون شروط!، هربت تبحث عن عمل جديد يخلصها من ويلات أمها فوجدت ضالتها في دار الإذاعة الكائن في منطقة الصالحية وسط بغداد، وها هي تطرب بسرور مفتعل: يا نورة، يا نورة...

تسمعها أختها الخائبة التي تصغرها بعامين نداء الطمّاعة التي كانت تعبد المال بشراهة لا توصف، فشاركتها الدهاء وهي تدق وتطبل على الطاولة الخشبية التي تتوسط صالة الجلوس. لم يكن لها أي حظ من الجمال.. طويلة عريضة الكتفين كسباحة، شعرها أسود من

opelkandi.com

الجير، ركبت لها أسنان ثلاث أمامية اصطناعية ظهرت أكبر من حجم الأسنان الطبيعية بعد أن تعرضت في صغرها إلى حادث سير، فأتى على ما تبقى من حسن وجهها الذي لا يذكر أصلاً بالطيبة، خدين منتفخين طافحين بالحبيبات التي انتشرت دون أن تعرف علة وجودهن، وبشرتها غامقة كفجر لا تشرق عليه شمس، مخيف لون بشرتها كجحر الفأر، من يراها لا يصدق أنها تنتمي إلى عائلة بهذه الصفات من الجمال والوسامة وبعيون زرقاء وخضراء إلا هي، وعينيها لم تكن إلا سوداوين كفحمة الموقد، فزاد كل ذلك من تشائمها وكآبتها، حاولت مرة الانتحار ولم توفق، مهزوزة الشخصية، تميل للضعف أكثر منها للقوة، لها قدرة على تغيير رأيها في اللحظة عشر مرات!

سريعة القرار كسيل الدموع المتفجرة، سريعة الفرار من المواقف الصعبة التي تواجهها، تصرخ أحيانًا دون وعي وهي في عزة نشوتها أو فرحتها، أورثت فيما بعد ابنتيها طبعها الكريه هذا من غير أن تدرك. تنسى كثيرًا وبسرعة عجيبة، فتوحي للمرء الذي يخالطها بأنها لابد ومصابة بانفصام في الشخصية، نسيانها لا يمكن السكوت عليه، ومع ذلك تجدها ترفض بشدة تصديق ذلك. تشتغل في معمل للخياطة بمنطقة العطيفية المستظلة ببساتينها الجميلة ونخيلها الشامخ.

openkandi.com

خُطبت مرتين وفسخت خطوبتها لأسباب لم يصرِّح بها كِلا الخطيبين. دينها غير تبشيري، لا يمكن الدخول أو الخروج منه، طائفتها صغيرة جدًا لا تتجاوز بضعة الآف شخص.. هي تعرف ذلك جيدًا، وخبر انفصالها الذي تكرر.. ينتشر بسهولة بين أفراد رعيتها مثل حريق هائل يشب في معمل قطن، فأثر ذلك عليها تأثيرًا سلبيًا، باتت متوترة، مسحوقة، تبكي كثيرًا دون سبب، عصبية المزاج، تكثر من تناولها للأدوية المهدئة والمشاجرة مع أنهر، لا تطيق الحديث معها وتتمنى أن لا تراها أمامها تشاركها غرفتها، ناهيك عن اتهامات الأم النازلة الصاعدة لها، وتوبيخها على أنها أصبحت عانس وتسمعها من مُر الكلام أقساه.. وهي مازالت لم تتجاوز الرابعة والعشرين! وجدت تعزيتها بقهر أختها الصغيرة أنهر..

تدق على الطاولة بقوة، برنات متتابعة، صرخ بها كمال أن تتوقف، فهو جائع يريد أن يأكل، تحملت أنهر المسؤولية على عاتقها كعادتها لإطعام الأسرة، ذهبت إلى المطبخ دون أن تتضايق أو تنبس بكلمة تحاول أن تعد شيئًا لهم يأكلونه..

الشقة لم تكن مؤثثة فقط، بل فيها كل ما يحتاجه المرء للطهو أيضًا. أنهوا غدائهم على عجلة، شربوا الشاي الأسود المخلوط بالهيل الذي أعدته الأم بعناية فائقة، هي تعرف عائلتها جيدًا، لابد من

opelkandi.com

الشاي بعد الأكل، جلس الأب في الحديقة الصغيرة مجددًا، أشعل بأصابعه المرتعشة التي لا تعرف السكون سيجارته المفضلة بعد الغداء مع كوب الشاي، رطن بأغنيته المفضلة لأنوار عبد الوهاب بشفتين مرتجفتين: أنا يا طير ضيعني نصيبي.. ضحك بصوت مسموع، صاح بأنهر: تعالي بجانبي يا ابنتي، أريدك أن تغني معي، صوتك أحلى وأشجى من صوتي، قولي معي: أنا يا طير ضيعني نصيبي.. رددت أنهر ما طلب منها، غنت بصوت جميل رغم عدم قدرتها على الغناء، أرادت أن تجعل والدها سعيدًا يشعر بالبهجة...

••••

دخلت أنهر الشقة بمشيتها الملتهبة، تحدثت مع سارة ونداء، لعلعت ضحكتهم، نادت نداء كمال وأخبرته بنيتهم الذهاب إلى البحيرة للاستلقاء على شاطئها وربما للسباحة أيضًا إن اعتدل مزاجهم، وأسعفهم ماء البحيرة بدفئه...

لاقت الفكرة رضا الجميع. قضوا ثلاث ساعات ممتعة، على الرغم من منع الأم بناتها في نزع ثيابهن والظهور أمام الناس بملابس السباحة، قالت بتعنت حاسمة النقاش بكلمة واحدة:

- لو كنتن في مسبح داخلي لقبلت، أما هنا، فلا. الأمر يختلف. هناك الكثير من أقربائنا يحتفلون بالعيد في هذا المنتجع مثلنا، ماذا سيقولون عنكم؟ بلا تربية!! بل ماذا سيقولون عنا، أنا وأبيكم؟.

والأخير لا حكم له على قرار زوجته، لم يبدِ أي تعقيب كعادته، لم يتدخل وكأنه غير معني أو غير موجود.. لكن، هذا القرار لم يشمل الذكر كمال، تخلص الأخير من ملابسه بلمح البصر ودخل الماء يلبلبط فيه كالسمكة العطشى التي أبعدت قسرًا عن الماء ثم تم إرجاعها شفاعة بمايوه السباحة الذي كان يرتديه تحت البنطال، بعد أن ترك منشفته في حضن أمه وهو يقول لها لابكًا كأنه ينشج:

- ابقها في حضنك، لا تجعليها تلامس الرمل، بعد أن أخرج من الماء أريدها نظيفة كما جلبتها...

ابتسم لها، قال في سره: هذا يكفي، الابتسامة غالية، وأنا أمنحها لقاء شيء بسيط! ماذا أقدم لها أكثر؟ رقبتي! اللعنة، العائلة الشرقية مصيبة من النوع الجهنمي، غير قانعة لا ترضى بالقليل، تريد الاستحواذ على كل شيء، لو أحبت ستحب بعنف، مثلي!.. ولو كرهت والعياذ بالله يمكنها ارتكاب جريمة، ستقتل، لو رقصت تنفجر، ولو بكت يسمع نحيبها سابع جار! لا وسط في حياتها، ماذا أقول؟ لماذا أفكر بمثل هذه الأشياء الآن، كم ساذج وسخيف أنا.. ركض إلى الماء، رفعته الأمواج، قاومها، صرعته، أبعدته، رجع في حضنها

واندس تحت جناحها، هام في سعادة يحلم بالوصول لذروتها، واختفى عن الأنظار..

الرمل كان ناعمًا يلمع تحت أشعة الشمس مثل بساط من الزجاج، الأجواء لم تكن شديدة الحرارة، آذار جوه لطيفًا في العراق، دخل الأب في الماء حتى ركبتيه، أخذ يرش الماء على زوجته الجالسة على الشاطئ دون أن تشاركهم، أزعجها تصرف زوجها، نهرته بصوت مفضوح، تدخلت أنهر ترجو أمها التي كانت تجلس كما يجلس التركي، مشاركتهم المتعة بالنزول إلى البحيرة مثل أبيها، رفضت بقوة وهي تقول بتندر هادرة:

– ماذا، أنزل إلى البحيرة؟ ماذا يقولون عليّ الناس، مجنونة؟ ثم استطردت بخبث محاولة قرص زوجها: يكفي ما يفعله أبوكم!

اكتفت بالاستحمام بنور الشمس وأشعتها التي كانت لطيفة، مدت ساقيها بعد أن أتعبها الوضع التركي في الجلوس، وهي مازالت تستحل الشرشف الطويل المطرز السميك المصنوع من البلاستك الرخيص، أحضرته معها خصيصًا لهذا الغرض بعد أن انتقته بدقة من بين بضاعتها التي تتاجر بها، وأغلب الظن لم تستطع بيعه بسهولة، فاختارته لهذا السبب والعلم عند الله!..

صاح داوود بأنهر برنة تشبه رنة ناقوس دير الراهبات:

openkanadi.com

– ساعديني يا دميتي، سنغطّس هذه الفوطة السوداء في الماء، سنصيد سمكًا كثيرًا، انظري إليه، هناك.. تحت الماء، ما أجمله يبلبط* مترنمًا مترنحًا كالسكارى في عز نشوتهم.

قالت ملاكه الحارس:

– بشرط.

– ما هو؟

– أن نعيده للماء بعد صيده!

استغرب من الفكرة، لم تعجبه كثيرًا، ضحك مناورًا:

– ليكن، ماذا نفعل بهذا السمك الكثير؟ إنه مازال صغيرًا..

بعد وقت قصير شاهدت أنهر وهي منهمكة مع أبيها بلعبة صيد السمك على مقربة منها طفل بهي الطلعة، جذاب ودمه يلعب كما يقال، قدّرته في الرابعة من العمر، يهزمه الموج ويرجعه إلى الشاطئ كلما اندفع نحوه، وبعد محاولات بائسة فاشلة استسلم إلى قدره فمَثلَ وهو يبكي بخيبة وحرقة أمام أبيه الواقف على مقربة منه مستندًا في وقفته على عكازان من الخشب: أريد أن أسبح. ثم لـجَّ بصوت ملحاح كصوت آلة القانون نائحًا غارقًا بدموعه: لا أعرف لماذا يدفعني الماء إلى الوراء؟.

---

* يبلبط : يسبح

obeikandi.com

سمعته أنهر، تقطعت منابت قلبها من مكانها، نظرت للطفل ثم إلى أبيه الواقف بنصف جثة لا يتحرك منها غير جزءها الأعلى بصورة طبيعية.. لا يقوى على مساعدة ابنه، واجمًا لا يعرف بماذا يجيبه.. تدخلت أنهر بعد أن استأذنت من أبيها وتقدمت نحو صاحب العكازين بوجل وهي تسأله بقلب محب للكون كله بحنان ملائكي:

- هل يمكن لي أن ألعب مع ابنك وأعلمه السباحة كذلك؟.

نظر إلى العكازين اللعينين منكسر الخاطر، لم يجب بشيء، حاصره السكوت، ألمه كان أخرسًا، صمته يجهل الحرف مثل لغة الأحلام، ما أقسى عذاب من يتألم دون أن يصرخ، وما أروع من يستطيع أن يقطع أستار صمت المتألم ويحوله إلى لغة يعبر فيها عما يعانيه ليرتاح. أنهر استطاعت أن تكسر صمته، تجبر خاطره، رطن بما كان يقبع في أعماق داخله من ذكريات أليمة، انفلت لسانه كاشفًا عن مأساته التي مرت به بعد أن انحدرت دمعته الواقفة على محجر عينيه بصوت هزيل أقرب إلى الهمس:

- الحرب نهبت مني زوجتي وأتت على ساقي كما ترين.. لم يتبقَ لي غير محمد في الحياة.. الصاروخ الذي سقط على بيت جارنا غيّر مجرى حياتنا وجعلها أقرب لمن يفكر بالانتحار.

برنة صافية حاولت فيها بذكاء أن تغير مسار الحديث الأليم نوهت بعد أن صدقت نظرها وحدسها بأن هذا الرجل الواقف أمامها يمتلك طيبة لا تراها عين الغريب:

- اسم ابنك جميل يحمل البركة معه على اسم نبيكم.

- وهل أنتِ على دين آخر؟

- يكفي أن أكون إنسان بقلب، ثم أردفت برقة خلابة: ها.. هل تسمح أن يصاحبني محمد؟ وتابعت: سأرجعه لكَ سباحًا ماهرًا وصيادًا عتيدًا..

ابتسم، شعر براحة تكسحه، لكنه امتعض فجأة وكأنه تذكر شيئًا مؤلمًا مبسبسًا:

- لا أريد إزعاجك.

- ومن قال لكَ إنني سأنزعج؟ بل العكس، سأكون سعيدة جدًا.. ما رأيك؟

لم تُبقِ له أي مجال للتراجع، نادى إلى ابنه الذي ما انفك من البكاء:

- ستذهب مع.. وصمت.

أجابته:

- أهر...

- عاشت الأسماء، وتابع: ستعلمك السباحة وصيد السمك.. ماذا تقول؟

obeikandi.com

قال الكلمتين الأخيرتين وهو يمطهما بلسانه، تبدلت ملامح الطفل فجأة، صاح بسعادة عجيبة:

- هه.. هه.. سأتعلم السباحة..

أضافت أهر:

- وصيد السمك كذلك، وواصلت: إذن هيا بنا يا بطل..

أعطاها يده الصغيرة وهو يرفع رأسه إلى الأعلى سائلاً:

- ما هو اسمك لقد نسيت؟

ضحكت وقالت:

- أهر.. واستطردت: سأزعل لو نسيته مرة أخرى.

- لا، لن أنساه، اسمعي أهر، هذا هو اسمك؟

- آه يا حبيب قلبي كم أنت رائع..

ما هي إلا خطوات حتى دخلا البحيرة وهي تمسك يده، وصل الماء إلى ركبتها، قالت بهمس:

- تمدد على بطنك واعطني كلتا يديك..

سحبته بهدوء والريح تلعب بشعرها شارحة:

- ابق رأسك مرفوعًا وضمّ ساقيك، ثم مدهما تمامًا كما تفعل الضفدعة.

سألته وهي مازالت تسحبه برفق وهو يضحك مترنحًا سعيدًا بإنجازه:

- هل رأيت يومًا ضفدعةً تسبح؟

obeikandi.com

- نعم، في التلفزيون في أفلام كارتون..

- خوش، إذن جرّب أن تفعل مثلها، افتح ساقيك، ضمهما ثم مدهما وأنت تدفع الماء إلى الوراء، نعم، رائع، ما تفعله الآن رائعًا يا محمد، أنت تتعلم بسرعة فائقة..

صاح وهو يتابع سباحته وتعليماتها:

- بابا.. أنا أسبح، انظر.. وهو يشق الماء بمساعدة مدربته، وأضاف: سأصيد السمك كذلك، خالة قالت لي ذلك، ثم وجه الكلام إليها: أليس كذلك يا خالة؟.

- نعم يا حبيبي، سأجعلك تصطاد سمكًا كثيرًا..

توقفت لحظتها، رفعته إلى صدرها، ضمته بقوة، قبلته بحرارة، محمد سلم نفسه إليها، ارتاح لها، طاوعها، أراد أن يكون لها، غفى على صدرها، أمه لم تعد موجوده، الحرب نهبتها، أبوه قال ذلك، كما بترت ساقيه، الصاروخ وقع على بيت جارهم، ماتت زوجته وهي معه على نفس السرير وفي أول يوم من أيام إجازته ورجوعه من جبهة القتال، الله أبقاه من أجل ابنه، محمد كان ينام وقتها في غرفة أخرى، لم يصبه أذى كثير، والد محمد عليه أن يعيش بقية عمره بنصف جثة، القدر اختاره هو، كما اختار العراق ليحطمه، كما اختار سعيد شقيق آدم ليميته.

obeikandi.com

الأب ينظر لهما مذهولاً، لم تسعه السعادة، رأى ابنه يضحك ملئ فمه، قال يسر ذاته الحمد لله على كل شيء، هذه الفتاة الطيبة التي اسمها أنهر بعثها الله لنا في وقتها، لم يخذلني الله في محنتي، كدت أبكي أمام الناس لضعفي وابني يطلب مني أن أساعده، ولم أقدر إلا على العجز، العجز أكل كل إرادتي، أنهر أصبحت فجأة الجزء الذي ينقصني، ما أروعها، حفظ الله شبابها..

أنهر كانت منشغلة في تلك اللحظات مع محمد بصيد السمك، أخذت من حضن أبيها الفوطة السوداء وقالت:

- سأصيد مع هذا الطفل الرائع سمكًا كما فعلت معك..

أبيها نظر لها وهو يبتسم برضى وقال:

- خذيها يا بنتي لقد تعبت، أريد أن استلقي قليلاً على الرمل.

وقفت قبالته في الماء قرب الجرف وطلبت منه أن يمسك الفوطة ويسحبها باتجاهه بقوة. محمد فعل ذلك فرحًا، مغتبطًا، قالت:

- الآن.. انزلها ببطء في الماء مثلي، هكذا..

وهي تنحني لتوازيه.. بعد فترة قصيرة صاحت:

- هيا.. ارفعها..

وإذا بالسمك يسبح في داخلها كفراشات في شبك صيادها، قالت:

- هل رأيت، ما أجمله، هيا لنعد الكرة مرة أخرى..

obeikandi.com

امتعض محمد، قال عابسًا وهو يضم شفتيه الصغيرتين:

– ماذا.. نرجعه إلى الماء؟ أنا أريد السمك لألعب معه..

– حبيبي.. هل تقبل أن يأخذك أحدهم من أبيك؟

وهو يزم شفتيه:

– لا

– إذن لا ترضى أن نأخذ السمك من أمه، الماء يا طفلي الصغير يعتبر أمًا للسمك، لو أخرجناه سيحزن ثم يموت.

تردد قليلاً ثم نبر:

– حسنًا، سنصيد السمك ونرجعه إلى أمه قبل أن يحزن وقبل أن يموت.

– آه.. رائع أنت يا محمد، طفل ذكي ما شاء الله، واثق من نفسك وتعرف الكثير من الأشياء الجميلة..

قالت ذلك وهي تشعر بأن وقتها طفح بالسعادة ونال منها، ابتسم لها وهتف:

– إيه.. هيا.. لنغطس الفوطة مرة أخرى..

في هذه الأثناء باغتتهم أصوات واثقة، ثابتة من خلفهم، صادرة من عائلة أخرى قريبة لهم جاءوا أيضًا يحتفلون بعيد الخليقة، تصافحت معهم بدرية بعد أن نهضت فاردة طولها المرعب، كانت تعرفهم حق المعرفة، أمطرتهم بالقبلات ودعتهم لمجالستها..

كانت العصابة، سحقًا للتعابير المنحوسة، يراد بها العائلة مكونة من أربعة أشخاص، صاحت بدرية ببناها وابنها أن يأتوا ليصافحوهم. رفض كمال الانصياع، ظل يسبح، لم يعر لنداء أمه أي اهتمام، فرحت أهر لوجود فتاة تصغرها قليلاً عرفت فيما بعد أن اسمها وسن، كانت سمينة وبيضاء، تحاول أن تُعطي انطباعًا بأنها رزنة ومحافظة، لكن حديثها كان يفضح سلوكها ورغبتها. قالت والدهم:

– هذه أم نصير من أقربائنا، وهذان ولديها مجيد ومروان.

ثم سألت أم نصير بارتباك وهي تفتح عينيها:

– من تكون هذه؟ وهي تشير إلى وسن.

– هذه وسن ابنة ابنتي الكبيرة قمر، ألا تتذكريها؟

– آه، نعم، نعم، ابنة قمر، عرفتها، كيف لا أعرفها، لكنها كبرت بسرعة وأصبحت ما شاء الله عروس..

دار مروان ابنها حولهم نصف دورة، كان رفيعًا بشاربين كثيفين يغطيان شفتيه تقريبًا، له أنف حاد وشعر رأسه قصير مجعد، يبلغ من العمر التاسعة والعشرين ومازال عازبًا، عقله أصغر من عقل عصفور، لا يتحمل مجابهة ومواجهة المواقف الصعبة أو الحرجة أو الحاسمة التي يتعرض لها، يشهر سلاحه ثم يلحقه جنونه، فتراه لحظتها يدور مثل زنبور، لا تسمع سوى طنينه!..

أغرق نفسه بالسواد، من الأعلى إلى الأسفل، قميصه أسود بأكمام طويلة رفعها عند نصف ذراعه، هو متعود على ذلك، لم يعرض قميصه للكي فبان مثل قطعة قماش غُسلت وتعرضت للهواء الطلق مباشرةً، بنطاله كذلك أسود مثل حزنه على أخيه الذي توفي قبل عام ونصف تقريبًا في حادث سير وهو مازال لم يتجاوز الثلاثين، يعتبر المرحوم عمود بيتهم وعليه يتكئوون، خطفه الموت فجأة، غرقت أسرته في حزن ليس له قرار، وأشدهم حزنًا كان مروان، المسكين لم يتحمل الصدمة، شدّ عقله، كان غالبًا ما يذهب عند الفجر لا يعرفون أهله إلى أين، ثم يرجع عند الظهيرة وهو مغّبر والطين يعلو وجهه! عُرف فيما بعد بأنه كان يزور قبر أخيه بمفردة، يندب حظه لفقدانه، ينوح، يبكي براحته، على كيفه ثم يعود وعيناه ملتهبتان حمروان مثل عينا شيطان، أو أن يقفز في وسط أهله ويطالبهم بإرجاع أخيه إلى الحياة مجددًا! هكذا كان مروان.

الغريب في قصة موت أخوه هو أنه مات في ليلة ولادة زوجته في طفلهما الثاني!، فترك زوجته وابنه الصغير الوليد الذي لم يره ورحل حيث اللاعودة، حيث الصفاء والنقاء، إلى حياة لا رياء فيها أو نفاق، إلى دنيا لا تعرف المنافسة أو الحقد أو الكرة أو الاعتداء!.

oopeikanaol.com

ظل مروان يحدج أمهر بنظرات صامته خرساء تنم عن رغبة ذات مغزى، عرفت أمهر ذلك بفطرتها، تجاهلت نظراته، لم تتجاوب معها، أهملتها، ارتاحت إلى وسن كثيرًا، شعرت بأنها يمكن أن تكون صديقة لها، ما أحوجني إلى هذه الصداقة، قالت مع نفسها ذلك وهي تمشي معها بروية على الشاطئ يتسامران ويتهامسان بحديث لم يسمعه الأخرون..

••••

استغلت نداء الفرصة فوضعت عينيها على مجيد الذي يصغر أخيه مروان بخمسة أعوام، أعجبها طوله وبساطته وحديثه اللبق، تجاوب معها بسهولة، يستطيع مجيد ذلك بحرفية رائعة، هو من النوع المغامر في علاقاته النسائية، لم يتجاوز الرابعة والعشرين، ذلك يعني أنه في سنها، ارتاحت للنتيجة كثيرًا، صَفّق قلبها، تفاءلت خيرًا..

نداء لم تتغير، كمن لا يحسن في حياته غير موهبة الطاعة والانقياد، فعلت الأمر ذاته مع خطيبيها اللذان فصلا خطبتهما منها، كانت مندفعة في عواطفها، حاولت إرضائهما بكل ما تملك من ملكوت، تناست المسكينة أن ذلك يضرها كثيرًا، الرجل بالعادة لا يحب من يندفع تجاهه بسهولة، يفسر ذلك بأن هناك عيبًا أو ضعفًا في

شخصية المرأة، شيء لا يود رؤيته فيها، هو يرغب بالمرأة المتمنعة، الرافضة، التي تعرف كيف تسحب البساط من تحته برضائه، ليس كل الرجال هكذا لكن الأغلبية هم على هذه الشاكلة، لو أعطتهم المرأة شيء في لحظة، سيتركونها في اللحظة التي تلي عطاءها، هم هكذا، لا يسألون كيف أو لماذا؟ الله جبل فيهم هذا التناقض العجيب، ولإرادته لابد أن نستجيب!..

كان مجيد أسمر البشرة، بشاربين رفيعين، أفطس الأنف، له شفتين غليظتين كشفتي أفريقي، ممتلئ الجسد، يهوى القراءة، مدمن عليها ولا ينقطع عن معاشرتها، جاملها بحسن دراية في عالم المرأة، عرف مباشرةً أن نداء تنظر له بمعنى، جلسا غير بعيدين عن عائلتهما على متكأ أبيض يقابل الشاطئ، سألته عما يعمله وهي تزم شفتيها كعجوز تلملم عباءتها بهدوء الشيخوخة. قال:

- ليس لي عمل.. ثم عطفَ مستدركًا: أقصد، جندي مكلف في الجيش، وتابع: وهل لنا نحن الشباب هذه الأيام غير الخدمة العسكرية والدفاع عن الوطن؟

هزت رأسها موافقة على ما قاله، ثم باغتته:

- في الجبهة؟

- كنت، سامرت الموت طويلاً لم يصرعني حتى مَلّني.. فأرجعوني إلى بغداد، أمارس نشاطي الرائع في معسكر الرشيد حاليًا.

ابتسمت متفائلة والفرحة تغمر قلبها، قالت في سرها: ملعون، يعرف كيف يلعب بالكلمات، هذه هوايته، قال إنه محب للقراءة، تراه يعبث بالمرأة كما يعبث بوقته في المعسكر، هكذا يخيل لي، زير نساء على ما يبدو، ثم وعت على نفسها، فبادرته بلطف زائد:

- أين تسكنون في المنتجع؟

ترجم سرحانها أنها تفكر فيه، لم يفته ذلك، خبرته في المرأة جيدة وتجربته ممتازة، هو يعرف ذلك، متأكد من قوته، قال سارًا نفسه: لن أجعلها تصل إلى مرامها، هي ليست جميلة، هذه تعارض مشاريعي وتتناقض مع ما أحلم به، أجابها برنة تشبه رنة النحاس، رقيقة، متمرس عليها:

- شقة رقم ٣٣٣ ذات اللون الأصفر الفاتح.

- نحن في شقة رقم ٢٢١ ثم بمغزى: ليست بعيد عن زقاقكم!

اغتصب ابتسامة رسمها عنوة على وجهه، نظر لها بعدم ارتياح يجاملها:

- هل تعرفين العوم؟

- نعم، لكن ليس بشكل جيد. وأنت؟

ضاحكًا:

obeikandl.com

- أرجو أن لا تكوني مثل الحجر وتخجلين من ذكر ذلك، ما أن نرميه في البحر حتى نجده في القاع ساكنًا!، وتابع مستلطفًا: مثل الكوسج.. كل أنواع العوم وحتى الأجنبي المستورد منه!

- الأجنبي المستورد، ماذا تقصد؟

ضحك مجددًا وهو يرمقها بنظرة ساخرة.. بقيت مستمعة ولم تعلق أو تقاطعه، قال:

- أمزح معكِ، أقصد، على البطن والظهر والجانبين كذلك، هذا ما تعلمته من الأجنبي لذلك قلت المستورد، أنا لا أتلاعب بالكلمات كما يظن البعض!.

قال ذلك وكأنه ترّجم ما كانت تفكر به، لم يفته ذلك، وقف عنده ونوه عنه، كان مجيد حاذق، وتابع:

- الرجل اليوناني القحّ الذي تعرفت عليه بالصدفة التي تحير العلماء من تعليل وتحليل ظهورها، في المسبح الذي أمارس فيه هوايتي المفضلة بعد القراءة، القريب من دارنا، اعتدل في جلسته كراوٍ يريد أن يروي حكاية مشوقة: الحقيقة التي لا مراء فيها هو إنني كنت أجهل السباحة جهلاً مطبقًا، حتى جاءني يومًا أخي آدم الذي يصغرني بمغامراته وشيطنته وعمره، يطلب مني الانتماء إلى عضوية المسبح الذي افتتح للتو في محلتنا بالرصافة، وسألها وكأنه يعرف الجواب، أنتِ تعرفينها، في منطقة البنوك القريبة من حي جميلة، يدلعوها

فينادوها: بالبيضاء! ربما وعلى ما أعتقد بيضاء على بشرة نساء الحي وقلوبهن اللاتي لا يعرفن غير الحب لغة!! ما علينا..

قال ذلك وأكمل مستطردًا:

- ما أن سجلت في المسبح وأصبحت عضوًا فاعلاً فيه حتى نسيت نفسي، لم يعد يستهويني شيء غير السباحة، وجدت ضالتي فيها، يا الله، السباحة في الهواء الطلق والإنسان يستحم بنور الشمس أمر لا يستهان به، مرات كثيرة كنت أنسى نفسي، حتى مرة كادوا يقفلون أبواب بناية المسبح وأنا بداخلها، لا أخرج من الماء، تغير لون جلدي وأصبح أسود من الجير...

ضحكت نداء لوصفه، أكمل دون أن يعير لضحكتها اهتمامًا، قال:

- اسمعي، تألمت كثيرًا، عندما عرفت أن كل ما كنت أفعله لا يمت للسباحة بشيء، كنت كما يقال بالعراقي: أطبش فقط!! تصوري، كل الوقت وأنا أتصور بأني كنت أعوم، والحقيقة المرة، كانت تطبيشًا، هذا ما قاله لي ذلك الرجل القحّ اليوناني الأصيل، أمسك ذراعي الذي سلخت الشمس جلده يومًا وهو يقول بلغة عربية جيدة: "راقبتك طوال الفترة المنصرمة وضحكت، لكنني قررت مع نفسي أن أضع حدًا لهذه المهزلة!"، صحت به كالمعتوه: ماذا؟ عن أي مهزلة تتحدث، دع ذراعي أريد أن أكمل سباحتي!!

openlibrary.com

علا صوته، قهقه بعنف، وهو مازال يستعمر ذراعي، لم يتركها ذلك العتيد الإغريقي، الذي له كتفين ما شاء الله، عريضين مثل ساتر ترابي، طويل مثل كبير كهنة الجن، وذراعيه وكفيه تشبهان مجدافين زورق، كان عملاقًا لا يستهان بقوته، قال صادحًا:

– لقد أعجبني إصرارك في التعلم، فكرت كثيرًا قبل أن أقرر مفاتحتك بالموضوع، أحببتك لأنك ذكرتني بطفولتي البائسة، كنت أفعل الشيء ذاته، حتى صادفني من علمني قواعد السباحة على أصولها، وهذا ما اعتزمت فعله معك! انظر أنا رجل يوناني، أعمل مهندسًا معماريًا في العراق منذ عشرين عامًا، ولدت في جزيرة كريتا، ولك أن تتصور، ذكر يسوره البحر، في جزيرة نائية، حوريات البحر يصطافن كل عام في أغلب شهور السنة عرايا كما خلقهن الله، وأنا لا أعرف العوم! أخاف البحر، لا أجرؤ على اقتحامه، ثم باغتني مهتاجًا: هل توافق أن أعلمك فنون العوم؟

لم أصدق نفسي، شعرت بأنني أحلم، صحت بهوس كالجريح:

– بلى، سأكون تلميذك المطيع، هيا.. ماذا ننتظر..

ضرب جبينه العريض الذي كان بكبر الطابوقة، صرخ مغتبطًا:

– كما توقعت، مغامر عتيد مثلي، يحب أن يجرب، أن يتعلم، لم يخب ظني، أنت ابن زوربا العظيم يا صديقي الحميم، اسمح لي بمنادتك بهذا الاسم منذ الآن فصاعدًا، تستحق ذلك، أنا لا أجاملك..

وهكذا تعلمت السباحة التي أذهلت أخي آدم الذي بقي يراوح في محله، يغرق ساعة ويتنفس الصعداء ساعة ومازال لم يتعلم السباحة حتى يومنا هذا!

سألته نداء بشغف:

– ولكن كيف علّملك؟ أقصد، كيف كانت البداية؟

ضحك، شهق من الضحك حتى انقسم وسطه، قاطعته:

– ما بك؟ على ماذا تضحك؟

قال وهو مازال يقهقه:

– أبدًا، كل ما فعله ابن الأصول هو أن رفعني عاليًا كما يرفع الأب ابنه عندما يلاعبه، ثم قذف بي إلى حوض السباحة وهو يصيح منفعلاً ويدق الأرض ويدور حول نفسه ويرقص بعد أن نسى نفسه وكأنه فعلاً زوربا اليوناني: هيا يا بطل، أرني مهارتك، اغرق، اشرب من الماء المكلور، مت، لكنك لن تموت، ستطفوا على السطح ثانيةً، أنا أعرف ذلك، ما هذا؟ إنه مجرد حوض صغير، ما بالك ومعلمي قذفني إلى البحر الهائج الذي لا يعرف الرحمة، صاح بي وقتذاك تمامًا كما أفعل معك الآن: هيا اغرق، اشرب من هذا الماء المالح الذي يطيب كل الجروح، ثم اخرج إلى السطح، أنا متأكد بأنك ستخرج، من له إرادة ورغبة في تعلم شيء سينجح،

سيتعلم سريعًا، الإرادة يا صديقي، الهدف والغايات تأتي بالمعجزات، هيا.. اظهر على السطح.. وظل يصيح ويدق الأرض..

قاطعته نداء مجددًا مأخوذة:

- وهل استطعت بالفعل الخروج من الماء؟

- يا لكِ من ساذجة، طبعًا، الروح عزيزة كما يقال، ماذا تنتظرين من شخص مثلي؟ أكون حجرًا؟ أستقر في الأعماق؟ أتخاذل؟ خرجت وأنا ألهث بعد أن شربت لترين من الماء في أقل تقدير، لكنني وهذا هو المهم، خرجت وتعلمت السباحة بفضل ذلك العتيد زوربا العظيم..

تذكرت نداء شيئًا، قالت:

- آه.. بالحق، أين هو؟ هل أتى معكم؟!

مرواغًا:

- منْ، زوربا؟

خزرته بطرفها:

- لا تهزأ بي، أنت تعرف منْ أقصد، أخوك آدم طبعًا، لقد سمعت عنه قصص مثيرة.. يقال عنه عفريت، شيطان بحق، بهلوان يستطيع المشي على خيط رفيع كخيط صنارة صيد السمك دون أن يسقط، وهو دائم الترديد: روحي ليست قطعة من الخشب!!

تنحنح ثم قال:

obeikandl.com

– ليس هكذا، هو لا يقول ذلك، بل.. هي روح لو خشبة، اعتذر عن المجيء، فضّل البقاء في البيت، ربما له خطة محكمة مع إحدى صديقاته، ألم تقولي عنه للتو إنه عفريت؟ لا علم لي، كل ما أعرفه هو أنه الآن في بغداد.

وبعد وقفة قصيرة أضاف آمرًا:

– لنلحق بالبقية، سارة أجدها أيضًا قد لحقت بهم، دعينا نكون معهم، فوسن ابنة أختي أعرفها جيدًا، سوف تلبخ بالكلام، ومروان خبيث مثل ابن عرس، انظري له، يقصف أختكِ بنظرات لا ترحم!

واتجها نحوهم..

••••

بعدما أنهت أنهر اللعب مع محمد أعادته إلى أبيه الذي ما انقطع من شكرها. محمد تعلق بها، قال:

– هل أراكِ مرة أخرى هنا لتعلميني السباحة ونصطاد السمك؟

– بالتأكيد يا عزيزي ولكن هذا متوقف على أمر..

– ما هو؟..

– أن تذكر لي اسمي..

تأمل، دفع سبابته إلى فمه علامة التذكر، وصاح:

– نهر.. اسمكِ نهر أليس كذلك؟..

obeikandl.com

ضحكت وقالت بعطف:

- لا.. ليس نهر..

استدرك بعفرتة وجسمه يلمع تحت الشمس وكأنه دُهن بالزيت للتو:

- إيه.. أردت أن أمزح معكِ، أنا أعرف اسمكِ، من يقترب منكِ لا يمكن له أن ينساكِ، أنتِ أنهر.

تقدمت نحوه خطوتين راكضة، رفعته ثم قبلته من وجنته وقالت:

- عفريت طيب.

قهقه بعفوية، هه.. هه..هه

••••

ما أن تعرفت أنهر على وسن حتى ارتاحتا لبعض، سارا على الشاطئ، لحقهما مروان، استغل فرصة الصمت المخيم عليهم للحظة حتى سكب بعض الكلمات على مسامع أنهر بصوت خفيض. امتعضت من تصرفه، كلماته تجاوزت حدود اللياقة التي لم يلتزم بها، لم ترتح لكلماته المقتضبة، بان ذلك على سحنتها المتضايقة، انثالت تسر ذاتها بهمس دامع موجوع بعد أن انطفأت ابتسامتها وتكدرت، فكادت تسقط كلماتها إعياءً بمرارة كألم لا يطاق:

- معتوه، يتحرش بي وكأني بهيمة لا شعور لها، من يحسب نفسه مروان هذا؟ كيف يطلب مني طلب كهذا؟ أنا لا أعرفه، حتى لو كان من ديني، الدين أو المذهب لا يعطيان الحق في تبرير الباطل، أو الاعتداء على الآخرين دون وجه حق، ببرود ميت يقول: سآتيكِ في سيارتي بعد نهاية دوامك المدرسي عندما نرجع إلى بغداد وآخذك لنتغدى معًا!.. تبًا له، أخرق ومعتوه، كيف يجرؤ على التحدث معي بهذه الطريقة، هو لا يعرفني، لا يعرف مبادئي أو طبيعتي، كان الأجدر به أن يسأل، أن يقول: هل ممكن، هل تسمحين، لديك الرغبة أو لا.. ضرب كل هذه الأمور عرض الحائط! قال ما أراده دون أن يحزر مدى تأثيرها السيئ على الشخص الذي يحاوره ويطلب منه تلبية دعوته اللعينة تلك.. شخص مهزوز لا يعرف من المرأة غير جسدها، لقد رأيت نظراته الوقحة التي كانت تنطق وتفوح منها الشهوة... ليس لي رغبة برجل مثله، هو لم ينظر لي كإنسان بعقل، امرأة مفكرة، لها مشاعر كما يمتلكها، لو لاحظت ذلك عليه لرحمته ربما، لقلت لنفسي لأجرب، أو أعطيه كما لنفسي الفرصة، لكنه كما قلت: أخرق، ليس إلا...

ظلت تهذي مع نفسها، لا حظت وسن سرحانها وتغير لونها.. حتى وقفا على رأسيهما كصقرين فجأة كل من مجيد ونداء، والأخيرة

تشعر بالإحباط، وبغيرة وحسد لأن مجيد أشار إلى سارة دون أن يعيرها أدنى اهتمام أو يتجاوب معها في الكلام، تشظت كالزجاج حين يتهشم، بلعت الموس كما يقال ولم تلمح بشيء...

بدأت الشمس تنسحب بصمت دون ضجة، هذا هو جوهر طقسها، هي لا تتحدث عن قوتها، تغرق الشرق بضيائها منذ ساعات الفجر الأولى، ثم تنسحب جذلاً لتعود فتغرقهم مجددًا بإعلانها عن بدء يوم جديد في الحياة ربما يكون أفضل إشراقًا.. انسحابها ظهر في الماء جمرة كبيرة، وفي الأفق حريق هائل، يا له من منظر، قالت أنهر لوسن مسترسلة بعد أن هدأت وبردَ دمها:

- انظري إلى غروب الشمس، سطح البحيرة تغير لونه، احمَّر خجلاً، لأن جمرتها قبّلته!.

لم تستطع وسن مجادلتها في الوصف، اكتفت بالسمع دون أن تعلق وهي تومي وتهز رأسها مبهورة.. بعد لحظات توارت الشمس عن الأنظار، ذهبت إلى موعدها، حيث ينتظرها الآخرون ليفرحوا بطلوعها.

••••

في هذا الوقت كانت بدرية قد أبرمت اتفاقًا مع أم نصير أن يكون عشاءهم عندهم، الساعة التاسعة مساءً بكامل عددهم وعدهم.. بعد أن دار حوارٌ شيقٌ بينهما، إذ سألت أم نصير قريبتها بصوت خلا من كل نبرة:

- ماذا أحضرتم معكم من لحوم؟

- جلبنا معنا سمكًا رائعًا، تزن الواحدة على ما لا يقل عن سبع أوقيات، من الشبوط والنبي، يستاهل فمك.

وأعادت عليها نفس السؤال:

- وأنتم، ماذا أحضرتم؟

لفت ذيل ثوبها وطوته تحتها بحذر، عدلت من جلستها، تنحنحت وخطبت قائلة:

- عزيز قلبي نصير أعطاه الله الصحة والعافية، ذبح لنا خروفًا سمينًا يوم أمس، قصّبه بنفسه، لا يقل وزنه عن خمسة وعشرين كيلوجرام، سطت زوجته على أكثر من نصفه، غافلتني بنت اللذين، هبته دون أن أدري فأحضرنا ما تبقى، وهذا ما سنشويه اليوم مساءً.. ثم بتندر مستدركة: غفر الله لها، يدها طويلة كذراع الخياط الذي يقيس به أقمشته..

obeikandi.com

لحظتها بكت، تغيرت سحنتها فجأة، تذكرت ابنها سعيد الذي مات قبل عام ونصف تقريبًا في حادث سير، هي لم تنسه، حاضر معها في كل ثانية، نهنهت مولولة بعد أن اجتاحها الحزن كالسيل:

- لو كان المرحوم مازال حيًا لما سمح لتلك الملعونة اللئيمة أن تسطو على الذبيحة فتنهبها بهذه الطريقة الشنيعة، هي تعرف أني لم أعد أقوى على الجدال أو النقاش، زهدتُ في كل شيء، لكنها لا تريد أن ترحمني وأنا في هذا العمر، زوجها سكت وغض النظر على تصرفها، جاراها فيما تفعل، هو مثلها، الساكت عن الحق شيطان أخرس، نعم، شيطان، أقول على نصير شيطان لو استحق ذلك، لم ينهرها ولم يقل لها كلمة واحدة، كان الأجدر به أن يقول لها عيب، استحي، أمي امرأة مسنة، هي لا تستطيع أن تأتي باللحم متى ما تريد، نحن قادرون، أنا أجلب لكِ ما تطلبين، لكنه لم يفعل ذلك، إذن هو شيطان، ثم دمدمت، حسبي الله ونعم الوكيل..

أم نصير لم تكذب، لقد عرّت أسرار أعماقها بصدق متناه، هذه هي عادتها الحميدة، مع الحق لا تداهن، تمد لك رقبتها لقصها لكنها لن تكذب، قالت عن ابنها البكر التي تحبه أكثر من سويداء قلبها شيطان، لم تقل إنسان، هكذا هي دائمًا، مع بناتها وأبنائها عادلة، نعم، ربما تعطف على بناتها أكثر من أولادها، تشعر بظلم المرأة اللاحق بها في مجتمعها بالفطرة، أم نصير لم تدخل المدرسة في حياتها،

تجهل القراءة والكتابة، حدسها هو إلهامها، الحياة مدرستها، علّمتها الأخيرة كيف تتعامل مع بناتها وتساعدهن حتى بعد زواجهن، تقول عنهن مظلومات، مقصوصات الأجنحة، تتسحب من بيتها محمّلة بالخضار والفاكهة واللحوم والخبز، راجلة أحيانًا متوجهة إلى بيت ابنتها الكبيرة قمر، تعطها ما جادت به يدها من رزق، لم تبخل على إنسان يومًا، هي كالنهر، يجري نحو طريقه بيسر، بثقة، يعرف من أين أتى وإلى أين يصب.. بعد وقفة تأمل قصيرة واصلت:

– اسمعي يا أختي يا عزيزتي أم كمال؛ أنتِ عندك ابن مغترب منذ سنوات طويلة وتعرفين ما أقصد، أعني، تعانين ما أعاني، فالغائب ليس موجودًا، لا يواسيك ولا يقف بجانبك يوم محنتك حتى أن الناس ينادونك بأم كمال وليس بأم كريم وهو الابن البكر، أليس كذلك؟ هذا ما أردت قوله، كمال يتصور أنه وحيدك وهو ليس كذلك، كريم مازال حيًا يرزق، لكنه غائب، يحق لكمال أن يدعي ذلك، بل كل من حولك يتوهم له ما ذهبت إليه لتوي، كوني محقة، هل ما أقوله خطأ؟

لم تُبدِ بدرية أي حراك، بهتت، تذكرت كريم بحرقة، أم نصير عندها حق قالت تسر نفسها، البعيد يكون في عداد المفقودين كالأسير، مصيره مجهول، غير معروف، هي لم تجرؤ أن تقل ذلك، لكن إشارتها

openkandar.com

كانت واضحة، لم تخطئ، جاءت على الجرح تمامًا، أقدر لها فطنتها وحديثها، صادقة هي في كل ما قالته...

عدّلت أم نصير جثتها، تأكدت من أن ذيل ثوبها مازال تحتها بشكل محكم، مررت أصابع يدها اليسرى على فمها كعادتها عندما تتندر في حديثها ورطنت بإسهاب من جديد بعد أن عوت عواصف الذكريات بداخلها كذئاب الليل:

– أنا أصبحت بدون المرحوم وحيدة، عندما مات زوجي وأنا مازلت شابة في الثلاثين لم أشعر بأني كسرت، ترملت مثل ما حصل معي بوفاة تكية بستاني سعيد..

صمتت ولكن بكاءها لم يصمت، انهمكت في نشيج ونحيب بعد أن وضعت فوطتها السوداء كالتي صادت بها أهر السمك مع أبيها ثم مع محمد على وجهها فلم يبدُ من رأسها غير هامة رأسها. تدخلت أم كمال ناصحة تحاول معها، ولم تنجح بتهدئتها وإسكاتها إلا بعد أن خرجت روحها من أنفها، حلّفتها بروح المرحوم العزيز على قلبها أن تكف عن البكاء وذّكرتها بأن هذا اليوم هو أول أيام العيد، عيد بداية الخليقة، الظهور والتجدد.. عندها هدأت، مسحت دموعها بكف يدها.. في حين كانت بدرية في تلك اللحظات أحوج الناس

obeikandi.com

على المواساة، لكنها تجلدت كعادها، صبرت ولم تسمح لدموعها أن تفضحها، هي أقوى من أم نصير، أو هكذا بدت..

• • • •

نداء لم تستلم من الجولة الأولى، قررت مع نفسها بأن يكون مجيد لها مهما كلفها الأمر. قال مروان سارًا ذاته: لن أجعل أنمر هرب من يدي، جميلة جدًا وعيناها خضروان، صدرها رائع، ثدياها ثريان مثل سنديتنان ناضجتان، سأوقعها بحبي، سأصيدها كما تصيد الأفعى فريستها، أعجبتني كثيرًا، مشيتها، شعرها، جسدها.. يا الله.. كل شيء فيها رائع مثل بطة ملفوفة باللحم! تَلمّظ، مصَّ شعر شاربيه قبل شفتيه، صاح بموس وبصوت خفيض لم يسمعه غيره: لن أتركها إلا وهي زوجتي!.

في حين كان لكمال أحلام لم يعلن عنها بشأن وسن!، حرقته رؤيتها، أشعلت في قلبه تلك النار التي لم تخمد جمراها بعد، بسبب حبه الذي لم يورد مع فتاته التي تزوجت غيره دون علمه، ثم انقطعت عنه أخبارها.

عاد الجميع كل إلى شقته وهم يستعجلون اللقاء عند المساء وكل فرد منهم يحمل في ذهنه هدف، حلم وطموح كان يراه مسموح،

من حقه أن يصله أو يجعله حقيقة ماثلة أمامه، لن يتغير الإنسان، جدهم الأول آدم كان على نفس الشاكلة، سيبقى نسله كذلك، كما يقال: لا يسد فمه غير التراب.. إلا أنهر رغم عدم نزاهتها من الضعف البشري، إلا أنها لم تضع في حساباتها غير البراءة، صداقة إنسانية جديدة، مع تلك الفتاة التي من دينها وتقاربها في السن، البيضاء السمينة المراوغة التي تشبه الفقمة والتي تبدو على غير حقيقتها، وسن ابنة قمر.

لم تعلن الساعة عن نفسها في فضح وقتها.. التاسعة مساءً من القرن الحادي والعشرين، الخميس ٢٣ آذار أول أيام عيد الخليقة. كان قمر المساء يلمع كصحن الفضة الخالصة؛ السماء صافية، تغمز نجومها الأرض التي رصعت قبتها كحبات الماس.. تناثرت بعض المصابيح قصيرة الأعمدة المضاءة في زوايا الشقق غير البعيدة بعضها عن البعض فجلس نورها وتمثل كملائكة تحيط بأعمدها من تحتها وكأنها تحرسها.. بدا المنظر كلوحة في حلم سرمدي. في حين بدأت نسائم الهواء العذبة بالتصفيق بهمس كاصطفاف جناحي ملاك سمائي رحيم، فنظفت تلك النسائم الأرض من أوساخها كربة بيت ماهرة، كانت في ذلك المساء عذبة، طرية، عبقة، فوّاحة ومنعشة للروح..

هذا ما كانت أنهر بوقفتها في باحة الحديقة تفكر به سارحة وكأنها في غيبوبة بعد أن استحمت كآخر فرد في أسرها، شعرت براحة نفسية، خاطبت ذاتها: ما أحوجني لهذا.. افتقدته منذ زمن طويل، تكسرت فجأة على خدها المورد الدافئ دمعة كبيرة دون إرادة، هي لا تعرف أين كان قابعًا، راكدًا كل هذا الوجد في أعماقها! لماذا تحرك الآن؟ لماذا نطق بدمعة؟ لن تجد تفسيرًا يروي ظمأها..

إنه الماضي، أصواته تقرع جدار الصمت، ذاكرة الإنسان هي ذلك الجدار الذي تسمع فيه رنات الماضي وهي تقرع، أغرقتها فجأة الذكريات المتوحشة، افترستها مثل حيوانات أسطورية ثم ضاعت في لجتها دون رحمة، يوم هجم أبوها على أمها، ساعتها كانت لسوء حظها وحدها معهما في البيت، فرّت أمها هاربة عبر السلم تحاول الصعود إلى الطابق الأول، ركض زوجها وراءها يحاول اللحاق بها وهو يشتمها ويسبها ويلعنها بأقذع وأقسى وأقذر الكلمات: مع من تنامين؟ عاهرة، ألا يكفيك ما فعلتيه بي؟ تضاجعين غيري وتهملينني!! سأقتلك، بلى، سأجز رقبتك كما يجز القصاب ذبيحته، ثم أشرب من دمك، ترفضينني؟ تبًا لك يا ناقصة، يا خائنة، الموت سيكون رحمة لك، كلا، لن أقتلك، لن أجعلك ترتاحين، سأعذبك أولاً، سأجعلك تندمين على كل ما تفعلينه بي، عاهرة..

كل هذا وابنتهما وسطهما تحاول بينهما دون فائدة تذكر، دموعها ساعتها لم تفدها ولم تساعدها، متى أفادت المرء دموعه؟ عندما يسكر أبوها يصبح قويًا جدًا كالثور المجروح، هي تستغرب حالته تلك، فجأة يتذكر زوجته وهي تصده عن مضاجعته لها، لماذا يتذكر ذلك ساعة سكره؟ حيرها ذلك السؤال ولم تجد جوابًا يعافي علتها.

صرخت بأبيها أولاً أن يكف عن ضرب أمها، لم ينفع صراخها، توسلت به، قبّلت رأسه، قالت: ألم تقل إنك تحبني؟ إذن اسمع لي الآن، أرجوك، اتركها من أجلي، اترك شعرها، دعها لحالها، يكفي ما تعانيه من أجلنا، صرخت به، بكت بانفعال كالمجنونة، المسكينة تحطمت، حطم منظر أمها قلبها، لم تستطع أن تقاوم رؤية ألم وبكاء ونحيب أمها، انهارت قبل أمها، وأبوها ما انفك من ضرب زوجته وركلها والأخيرة تحاول الهروب..

استطاعت الأم برحمة من الله أن تتسلق سلمات الدرج، سيطرت أنهر على أبيها بمعجزة، قبلته مئات المرات وهي تطلب منه أن يهدأ، تغلب عليه التعب، قهره الخزي وهو ينظر إلى ابنته بعينين منكسرتين متخاذلتين، نطق بكلمات ما كان الأجدر به أن يتفوه بهن أمامها، ندم على تصرفه، ارتعشت عظلات يده، تشنج ونشج، انهار فجأة، ضاقت عيناه، تأوه، ارتعشت أصابعه بقوة، لم يعد يرى الأشياء بوضوح وكأنه في غبش الفجر والضباب يلفه، سقط على الأرض كالحجر، الارتطام سبب لأنهر رجة في عقلها، خافت جدًا على أبيها، ركضت وأحضرت قليلاً من الماء وهو مازال ملقى على الأرض لم يتحرك، مسحت دموعه بيدها، يدها تحولت فجأة منديل مجزوء من روحها، سكبت على رأسه الماء، خاطبت نفسها هاذية،

لعله يفيق، غسلت بما تبقى من الإناء وجهه، بطنه الكبيرة كانت على الأرض، يداه ورجليه مفتوحتان معقوفتان كوضع الرماية.

صاحت برنة حزن، بهاجس من يتقدم لمنصة الإعدام بعد أن فقدت السيطرة على كبح جماح مشاعرها:

– لماذا تفعل بنفسك ذلك؟ رحمةً بنا، ترى ماذا نفعل لو حصل شيء لك لا سمح الله؟ ها...؟ قل، ماذا يمكننا أن نفعل بدونك؟ أنا أعرف أمي كم هي صعبة ومتناقضة وقاسية في نفس الوقت، لكن الأمور بينكما لا تحل بهذه الطريقة السخيفة وأمام ابنتكما وبهذا الشكل المبتذل.. ألا تفكر بي يا أبتي؟ كيف سأتزوج في المستقبل؟ ماذا سيكون انطباعي عن الحياة الزوجية التي تنتظرني؟ هل فكرت في هذا؟.

نظر لها مكسور الخاطر، بكى بندم وكأنه يطلب من الندم أن يرحمه! قبّلها، غمغم بيأس وصوته مذبوح واهن أرهقه العراك استهلك فيه المقرود جلَّ قوته مخنوقًا بالكلمات:

– سامحيني يا ابنتي، أتمنى أن أموت، أدعو كل يوم أن يأخذ الله أمانته، أنا لا أستحق عطفك وحبك، أنتِ حبيبتي التي لا أستحقها..

ظل ينوح ويشعر بأسياط الندم تلهب ضميرة حتى آخر الليل كالعادة.. في تلك الليلة قرفصت أنهر على سريرها جلوسًا، نامت

ولم تنم مثلما يفعل الرهبان المصريون القدماء في أديرهم.. انتبهت على نفسها، سرت قشعريرة في جسدها كمسكون بمشاعر غامضة، صاحت باستسلام يتصف باليأس والقنوط: تبًا لي، سحقًا، لماذا أتذكر ذلك الآن وكأنني أطبب جرحًا لا دواء شافٍ له؟.

دمعتها لم تتكلس، جفّت، قرصت خديها، تورد فجأة واحمرَّ، ضحكت بصدق كطفل أهداه أحدهم قطعة حلوى، انتعشت، غاب همها، قالت تصارح نفسها وكأنها تمتحنها بكلمات سقطت منها ببطء: الذكاء ليس أن يكون المرء حاذقًا في حل مسألة حسابية صعبة، أو ينطق لسانه بعدة لغات أجنبية؛ بل أن يعرف كيف يكون سعيدًا هو ومن حوله، مع الاحتفاظ بكرامته وكبريائه من جهة، وبقوة عزيمته وعظمة إرادته من جهة أخرى.. هذا هو الذكاء الحقيقي الذي يحتاجه الإنسان الناجح في حياته..

سقطت بعض من قطرات الماء على كتفيها، شعرها مازال مبتلاً، لم تجففه بشكل جيد، ظهرت في الباحة وهي ترتدي قميصها الأبيض الحريري ذو الأزرار الناعمة السوداء، أبقت آخر عروة مفتوحة، ظهر الجزء الأعلى من وادِ نهديها، ضوء القمر الساطع فضح ما كان القميص يحاول جاهدًا إخفائه ولم ينجح، بنطالها الجينز القصير الذي ما عجز عن ضغط نفسه على فخذيها، وصل طوله حتى

obeikandi.com

الركبتين، لكنه لم يتعد على الساقين، اكتفى بالفخذين يغطيهما جذلاً فرحًا بانتصاره مستحوذًا عليهما بفخر..

رفعت رأسها نحو السماء الصافية التي ما انفك قمرها يرسل شلال ضياءه على الأرض ليغمرها بنوره الإلهي، تمنت مبتهلة: ربِ، اجعل حياتنا أفضل مما هي عليه الآن، لتخفف أمي قسوتها علينا، على أبي خاصة، مسكين هو، قلبي يتمزق حزنًا كلما رأيته، يدمر نفسه دون وعي، كعود الثقاب عندما تشعله ولا تقربه من شيء، لا يحرق إلا نفسه، لم يكن كذلك، قالوا إن أمي كانت السبب في حالته هذه!، لم أصدقهم، والحقيقة هي إني لا أريد أن أصدقهم. أن تنتهي الحرب المدمرة التي راح ضحيتها أكثر من مليون شاب لا ذنب لهم، لم يشعلوها، لم يكن قرارهم، سيقوا لها عنوة بالإجبار، من لم يذهب يُعدم، لا يُسمح لأهله حتى بإقامة مجلس عزاء ترحمًا على روحه، يعتبر خائن، متخاذل وجبان، هكذا يكتبون في شهادة وفاته، جبان فرَّ من الحرب.

ولكن يا ربِ لما الحرب؟ سألت من تعبد، ثم عادت وسألت نفسها بحسرة: تُرى، لماذا الحرب؟ لم تسمع جوابًا، قالت: ربما لينتعش اقتصاد الدول التي تصنع السلاح؟ قد يكون هذا وقد تكون هناك أسباب أخرى، هي لا تعرف بالضبط، ما أدراها.

أهر مازالت لم تتجاوز التاسعة عشر بعد، لم تجرب الحب، لم تتعرف على شاب في سنها، لم تخرج بمفردها إلا في الحالات القصوى والضرورية، صديقاتها لا تتأخر عندهن، كل شيء بحساب، السادسة مساءً في ناموس أمهم كانت ناقوس الخطر، لا يسمح البقاء خارج البيت أكثر من هذا الوقت، لا يصح لبنات يبقين خارج أسوار البيت حتى ساعة متأخرة، تقصد، السادسة مساءً ساعة متأخرة، من يتجاوز حدودها يحبس، يمنع من الخروج مرة أخرى، حتى لو اضطرت الأم بمعاقبة بناتها في عدم الذهاب إلى عملهن أو مدرستهن!.

هكذا كانت بدرية، شديدة، قوية، قاسية، يقولون عنها مسترجلة! تناقش تجادل ومستعدة أن تدخل العراك إن تطلب الأمر منها ذلك، تتهامس الألسن الغريبة عليها: قحبة عوراء، لكنها ليست كذلك، هي أصفى وأنقى من لون وسمعة الياسمين، من لا يعرفك يجهلك، هذا كل ما في الحكاية..

عاودتها الذكريات مجددًا، جرفتها الموجة مرة أخرى وحيثما تريد، لم تستطع مقاومتها، كانت عاتية مثل تنين صيني هائج، الحاضر سيكون بعد لحظة ماضي، إذن، الماضي موجود معها، لا تستطيع أن تهرب منه كالظل، سقطت كلماتها منها وهي حبلى بالشجن لاهثة:

لا أحد يعرف حقيقة الأمر.. هل أقدمت أمي على إيداع زوجها السجن، ومن ثم مستشفى الأمراض العقلية والعصبية؟ لطالما أرق أمر هذا السؤال، عذبها كنار تحرقها، مثل سياط تلسعها، هي تريد أن تقف على حقيقة الأمر، من حقي أن أعرف قالت ذلك بصوت مسموع...

في إحدى العصاري البغدادية وبعد خشوعها وسماعها لصوت القرآن الآتي من مأذنة الجامع القريب منهم، استجمعت قوتها وأنفاسها وهي تدرس وتحضر لامتحانات نصف السنة في سنتها ما قبل الأخيرة من دراستها في الإعدادية.. السطح كان مكانها المفضل، تنظفه ثم ترشه بالماء، عندها تشعر بصفاء ذهني رائع، تقول عنه مني وإلى الله، لا عائق بيني وبينه! ثم تضحك من وصفها، أبيها لم يغب عن بالها، قلقها عليه يصل حد العذاب، زمت شفتيها الورديتين الطريتين وقالت سأنادي أمي وأكرص* بها هنا، وأعرف منها كل الحقيقة...

نزلت درجات السلم المرمرية المفضية إلى البيت، البيت الذي ابتاعته أمها من حر مالها من خلال تجارتها التي لا يعرف نوعها، أبيها لم يكن فقيرًا، كان قد ابتاع له بيتًا خاصًا كذلك، جعله وكرًا

---

* أكرص : أختلي

obeikandi.com

لنَزواته، يذهب إليه متى ما يعجز من إرضاخ زوجته، كان بيته صغيرًا وسخًا، أشبه بسجن مهجور، غالبًا ما كانت أنهر تذهب لتنظيفه، هي الوحيدة من أسرتها التي تحتفظ بمفتاحه، لكن ما أن يسكنه أبيها وطرًا، حتى تراه قد قلبه رأسًا على عقب، لترجع مرة أخرى لترتيبه وتنظيفه والاعتناء به وبحديقته.. أجّره أبوها في فترة لاحقة من سنوات الحرب الأخيرة إلى عمال مصريين كانوا يشتغلون في العراق عندما شعر بوهن وقواه تخور.. فأتوا العمال العرب على تبقى وما كان سالمًا معافى!.

في حين بيت أمها كان مختلفًا، رائعًا. بدرية نظيفة من أساسها، امرأة مدبرة، تعمل في اليوم أكثر من أي شخص آخر دون أن يبدو عليها ذلك، محاط بيتها بسور لا يزيد ارتفاعه عن ذراع ونصف، حديقته صغيرة ومع الوقت أصبحت من نصيب أنهر، فأولت لها عنايتها ورعايتها، انتصبت تكية عالية مثمرة في جانبها اليمين، وإلى اليسار المقابل حرستها شجرة رمان وأخرى للزيتون، امتدت حول الحديقة شجيرات الآس اليافعة وبعض من ورود الجوري، الآس وحده يعتبر مهرجان بهجة، لا يخلو منه بيت عراقي إلا ما ندر، حتى الفقير الذي لا يملك حديقة في بيته، يضعه في أصص من الفخار، ليزين بها الممرات والجدار، وعند حافتها المؤدية إلى البيت وقفت بشموخ

نبتة الرازقي الفوّاحة بعطرها أثناء الليل، كانت مصدر سعادة حقيقي دائم لأهر.

ضمَّ البيت غرفة للجلوس واسعة، مطلة على الحديقة بشباك عريض مثل شبابيك المراقد والأضرحة، مطبخ أقل صغرًا من أخته المعدة للجلوس، ثم باحة مرمرية تلمع يدخل إليها الضوء بشكل جيد، خاصة من شباك يطل عليها متربصًا من جهة اليسار؛ الذي كسر قضبانه فيما بعد خطيب أهر عندما أراد دخول بيتهم مع أهر التي لم تملك يومًا مفاتيح بيتهم، فكسر قضبانه ودخلا، وشبعا تقبيلاً قبل حضور أختها نداء التي لم تنتبه لغبائها في الكيفية التي دخلا بها وهي تعرف أن أختها لا تملك مفاتيح البيت!! بقي الأمر سرًا لم يأخذ به أحدهم خبرًا ولم ينتبهوا للشباك ولا لقضبانه مخلوعة الأضلاع يومًا.

شَخص على أرضية الباحة السلم المرمري الذي نزلت منه أهر والمؤدي إلى الطابق الأول، حمام بشباك صغير مثل ثقب في زنزانة محروس بقضبان حديدية وتواليت على الطراز الغربي، في الطابق الأول توزعت ثلاث غرف، لا تقل حجم الواحدة منها عن غرفة الجلوس، استحلت البنات واحدة، وواحدة استعمرها كمال، والأخيرة ضمت الزوجين اللذين لم يجمعهما سرير واحد إلا ما ندر وشذ، ثم السطح الرحب الذي يشرح النفس، بُلطَ بلاطه بعد أن

ابتاعوا البيت، بأحجار صغيرة مربعة بيضاء مرقطة بالأسود، أصرّت بدرية أن تكون أرضية السطح بهذا الشكل، لأنها تقول: يعتبر في الصيف غرفة نومنا جميعًا، فلابد من أن يكون كغرفنا نظيفًا وأنهر لا يحلو لها الدراسة إلا هناك، لتكون كما كانت تقول: لا يفصل بيني وبين الله شيء غير الهواء!.

ها هي تنزل درجات السلم بسرعة، تعثرت، كادت تسقط كعادتها، تضحك لو صارحتها حول طريقة مشيتها، تغطي فمها وتضحك، ثم تقول كلمتها الشائعة المعروفة التي لا تبارح الذهن: خوش. وجدت أمها في المطبخ منهكمة بتحضير العشاء، قالت لها برنة واثقة وهي تنتصب أمامها كالرمح:

– أحتاجكِ لأمر مهم يا أمي.

بجفاء:

– من أين خرجت لي؟ ثم باستخفاف: هل سقطت عليّ من السقف؟ امتحاناتك أهم من كل شيء، أكملي دراستك أولاً، ثم نتحدث.

بتحدٍ وقدماها متصلبتان ملتصقتان بالأرض:

– الموضوع لا يتحمل التأجيل، يجب أن أتحدث معك!

بوجوم:

– أي موضوع تقصدين؟

obeikandl.com

– أبي، ثم عرجت بحسم قائلة وهي تزفر بحرقة أحستها كالنار تخرج من أنفها، مليئة بالوجد: علاقتكِ بأبي!

– ما لها؟

انفجرت دموعها قبل أن تنفجر كلماتها، أمها لا تبكي إلا ما ندر، عند الفرح تبكي بسخاء، في عرفها هذا مباح، هذا يعرفه جميع من اتصل بها، لكنها في تلك اللحظة كانت إنسان آخر، لطالما تعذبت وتحرقت وتألمت دون أن يشعران بوجودها وأحاسيسها وما يحدث لها، انفجرت دموعها رغمًا عنها، قالت ببحة لا توصف، تغرق من يقابلها خجلاً أو عطفًا:

– دعينا نصعد إلى السطح أولاً.

– السطح!، ما بكِ اليوم؟

– قلت لكِ، أرجوكِ، دعينا نختلي بأنفسنا قليلاً، يجب أن نتحدث..

تخطيتا الممر، صعدتا السلم، وتقابلتا جالستين على أريكة كانت أمها قد أعدت فرشتها، هيأت كل شيء قبل نزولها.. نظرت إلى أمها دون أن تطرف كعادتها عند المواجهة، حصدت مشاعر أمها بقصفة واحدة، جمعتها رزم وبصوت ألهب كيان بدرية وفتت إرادتها:

– أنتما جنيتما عليّ منذ طفولتي، قررتما تصفية حساباتكما من خلالي بوجودي، تضعينني حدًا وسدًا بينكما وأنا طفلة، ترفضين النوم مع زوجك بحضوري، جعلتماني سببًا بلا إرادة مني، والآن، أريد أن

opelkandi.com

أعرف كل شيء، كل شيء يا أمي حتى ما يقال عن إيداعك أبي السجن ثم مستشفى الأمراض العقلية..

ونظراتها شاخصة لم تزغ اجترت الأم ألمها، غرقت بخجلها مثل حجر سقط في بحر، الإنسان الشرقي تحدث معه في كل شيء بعلانية إلا الجنس، الجنس مخجل في عرفهم، عيب، حرام، الجنس نجس يقولون عنه، لا يناقش بأمره علنًا، يمارسونه خفية، مثلما يتحسسون عوراتهم، يفعلون ذلك دون أن يصرحون به، أنهر عرّت الجنس أمام أقرب الناس لها، أمها، رفعت عنه الغطاء وقالت: انظري، لماذا هكذا؟ الله سبحانه وتعالى خلقنا على هذه الصورة، فلماذا نخجل منها؟ الله لا يرضى بما تفعلون، أمها بوغتت، أمسكتها ابنتها من المكان الذي يؤلمها، قالت لها: أريد أن أعرف كل شيء، كل ما يتعلق بحقيقة العلاقة التي تربطكِ بزوجكِ.

بكت بدرية أولاً بلا صوت، ثم ارتفع نحيبها، تشنجت ونشجت، أشفقت عليها أنهر حد التراجع وتأجيل المحاكمة، إرادتها كانت في تلك اللحظة أقوى من عواطفها، قلبها تهشم وعقلها يريد أن يعرف، ميزان التوازن اختلّ، هي لا تفكر بالرغبة أو الشهوة، القلب يمنعها والعقل يشتهي أن يقف على حقيقة عاشتها سنوات طوال دون أن تقف على صحتها أو تقدر على تكذيبها، أمسكت

يد أمها بحنان، قررت أن تحسم الموقف، الحقيقة ولا شيء غيرها، هي لا تريد أن تتراجع، فرصتها هذه ربما لن تتكرر، بخشوع قالت:

– أمي الحبيبة، أنا لا أريد قهرك، أريد أن أعرف، أن أفهم، سأتزوج يومًا ما، ماذا أقول لشريك حياتي، أمي أودعت أبي السجن، ثم مستشفى الأمراض العقلية؟ لن أقبل أن أكون زوجة غير صالحة، لو كذبت عليه لن أسامح نفسي، سأغرق في وحل الرذيلة، هكذا أنا، الله جبلني على هذا الطبع، لن أكون إلا أمًا صالحة لأولادي، صادقة معهم ووفية، هل تفهمين غرضي الآن؟ لا أريد قهرك بقدر معرفة الحقيقة بكل تفاصيلها مهما كانت صعبة أو مؤلمة..

ثم صمتت تنتظر ردها أو رحمة من السماء.. بخيبة كادت تأتي على قلبها، تنحنحت أمها، خانها الدمع فأجهشت بالبكاء، تحول بكاؤها إلى عويل مقلق، وعت على نفسها، توقفت عن النشيج، مسحت دموعها التي غزتها بسرعة بكفي يديها، هي متعودة لفعل ذلك، حياتها كانت سلسلة من الدموع والكفاح، تمسح دموعها بيدها ثم تكمل عملها بنفس اليد بعد لحظات، لم يكن الموقف جديد عليها، شرعت قائلة وكأن شيئًا لم يكن، باعتداد لا يعرفه إلا البحر:

– تزوجت أباك وأنا طفلة، ذهبت معه إلى بيته وعمري لا أذكره بالتحديد بين الثالثة والرابعة عشر، لا أعرف غير اللعب مع الأولاد وعراكهم، جئت إلى الحياة بعد صبر طويل وعذاب انتظار، فأبي

كان متزوجًا من ابنة خالته ولم يرزقا بطفل، وبعد فترة طويلة من زواجهما قررا الانفصال لتتزوج هي من رجل آخر والله عوضها عن صبرها فرزقت بذرية، كما أبي عندما تزوج من أمي وجئت إلى الحياة على رأس ثلاثة ذكور، دللت من أسرتي حد الهوس، عشت مثل أميرة، جمالي ساعدني على أن أكون أميرة بحق دون منازع، بل أستطيع أن أقول أصبحت مع الوقت سيد البيت إن صح التعبير رغم أنوثتي وحداثة سني، أوامري مستجابة قبل أن أتفوه بها، ما أن أشير بإصبعي الصغير هذا - وهي تريها إصبعها الصغير الذي بدا مثل قطعة من الجزر- حتى أراهم ينفذون كل ما أرغب، دلالي أفسدني وقواني، جعلني أنثى وذكرًا في نفس الوقت، لا أعرف بالضبط كيف حصل ذلك، من يعاكسني أكسر له أنفه، جمالي سبب لعنائي، سارة أختك سرقت طبعي هذا، أنتِ تعرفين غرورها..

أخذت نفسًا عميقًا، ثم استطردت لائبة:

- لكنني وبعد زواجي من أبيك، وجدت نفسي فجأة بين أحضان رجل لا همَّ له غير معاقرة الكحول والنساء، متجره جعله محل رزق وملذات لا تنتهي، ثم باغتتني الولادات المتكررة التي لم أعرف كيف أوقفها، كنتم تأتون دون علم مني، أصبحت لي عائلة مسؤولة عنها بغياب الزوج، بدأت ألبي طلباتكم بدلاً عن أبوكم، أخاف عليكم وأحرص على راحتكم بطريقتي الخاصة، لا تقولي لي

هذا صح وهذا خطأ، ما ألهمني الله عليه، قدمته لكم بكل سخاء، اعتقادًا مني بأن ما أفعله هو عين الصواب، وحتى مع أبيكم الذي أذاقني كأس المر والعذاب، زهقت روحي منه، تعبت في إصلاحه، ضربه المبرح لي هشم عظامي، شتائمه المخجلة المقذعة كانت أقسى وأتعس وأشنع من ضربه، هذه الأمور كلها جعلتني أكرهه أكثر من دم أسناني، لا أقربه، لم أعد أطيقه ومع ذلك تجدينني أعطف عليه، أقول لنفسي زوجي، أب أولادي، جد أولادهم في المستقبل، ديننا كما تعرفين لا يسمح بطلاقي بسهولة، فضّلت العيش معه تحت سقف هذه الظروف غير الطبيعية.

كانت المسكينة تحكي وتبكي، دموعها لم تتوقف، جففتها قبل أن تبدأ الحديث، لكنها ما أن نطقت بذكرياتها التي أجهضتها دون رأفة حتى انهمرت من محجريها دون وعي، هي لم تعبأ لدموعها، رخيصة أحستها، لن ترجع إلى محجريها، سالت وانتهى أمرها، هكذا هي الدموع، لن تطيب الجروح رغم ملوحتها، ماء البحر أفضل منها..

أردفت بعد غصة:

– قصّرت على نفسي، جعت، عطشت، تألمت، لكنني حاولت جاهدة ألا أجعلكم تحتاجون أو تمرضون، كل ما فكرت به هو: أبوك يحبك حد العبادة، يقول، أنهر ملاكي الذي يحرسني، هو لا يقدر على إيذاءك، لذلك، جعلتكِ تنامين معنا، في وسطنا، كي لا (.......).

- ::: -

بلعت الكلمة، الأم تبقى شرقية، تستحي أن تذكر كلمة مضاجعة أمام أحد، فما بالها تجالس ابنتها الصغرى؟! هي لا تقبل أن تتعرى أمامها، لكنها تستطيع أن تشتم ابنتها وتسبها عندما تنفعل، عندها تنسى نفسها، تصبح إنسانة أخرى غير شرقية، يتغلب التناقض القابع بداخلها فتظهر على غير ما كانت تبدو، هذا ليس طبعًا فريدًا خاصًا بها، إنه موجود عند الكثير من الشرقيين، ثم واصلت:

– هذا يا ابنتي كل ما حصل، وأقسم على ذلك وعليك أن تعرفي بأن الوراثة لها دور كبير في نقل الأمراض، وأبوك كان أحد ضحايا تلك الأمراض التي ورثها عن أسرته، فأخته كانت تعاني من نوبات عصبية حادة ويقال إن أبوه كان كذلك، فلا تستغربي إن كان له حظ لا يستهان به من هذا المرض اللعين!!

اقتربت أنهر منها، دنت منها حتى لامستها، وقفت فوق رأسها، قبّلتها من رأسها، ران صوتها:

– وماذا عن ما يتهامسون عنه حينًا ويجهرون به حينًا آخر، بأنك أودعت أبي السجن ومن ثم مستشفى الأمراض العصبية؟

انتفضت، تغيرت سحنتها، انفعلت، صاحت:

– لقد أوضحت لكِ، أسرته كانت مريضة بهذا المرض، عمتك تعاني من نفس المرض، أنتِ تعرفينها، أليست مريضة؟ ثم كيف تصدقين

obeikandi.com

بأن الحكومة تودع أحدهم السجن بتهمة العمالة والانتماء إلى حزب معارض ويخرج وكأنه لم يحبس؟ هل تعقلين ذلك؟

ونهضت، نكثت ثوبها وصاحت بطريقة آمرة:

- والآن يكفي، لقد تأخرت كثيرًا، لابد من تحضير العشاء، سيأتي أبوك قريبًا، وإذا لم يجد ما سيأكله سيقلب ساعتنا سوداء!، انتبهي إلى دروسك وامتحاناتك.

ثم اهتز سطح البيت من دبيبها، نزلت تُكمل ما كانت قد شرعت به في مطبخها الذي نادرًا ما كانت تخرج منه..

● ● ● ●

بهتت أنهر، سرحت في خيالات لا حدود لها كمن يسافر مع ذاته، ارتاحت ولم ترتح، ماذا عساها أن تفعل؟ قالت تخاطب نفسها بحيرة: لم أتلق منها جوابًا قاطعًا، أمي لم تقل نعم ولم تتفوه بكلمة لا، مازلت لم أقف على الحقيقة، هي قالت ما تريده فقط، نعم هناك جزء من الحقيقة، شعرت بحضورها، وجدتها في صوتها، لكنها ليست كل الحقيقة!

سيعذبها أمر الحقيقة كعادة الحقائق في الحياة، يقول الروائي الدكتور اليوناني العظيم نيكوز كازانتزاكيز: حقائق الكون سبعة، والرب يجلس في أخرها، وحقائق البشر تختلف عن حقائق الرب. ثم أردفت

مهتاجة، انطلقت حممها غضبًا، ماج جسمها، تلوى، ارتد كفرس جامح: يا إلهي.. لماذا جعلتني هكذا؟ أوووه.. أشعر بأني بركان داخله يفور، لماذا لا أدع الأشياء تسير كما تريد؟ لماذا أحملها أكثر مما تحتمل؟ خدعتني الحياة، أحس بأني أكبر من سني عقود، لا شيء سوى الخيبة، سحقًا للظلم، أنيابه تدمي، تجرح، تنهش في اللحم، تقطعه، تفترسه دون مضغ والظالم لا يعجبه في الحياة أكثر من منظر الدماء قبل أن يرتشفها وهي حارة والضحية تتلوى أمامه، ترفس الأرض ألمًا، تصرخ بالحياة طمعًا بالرحمة، سحقًا للظلم ولكل ظالم.

في هذه اللحظة الغارقة التي تتمنى لو تكون من عمر زمن النسيان، قطع خيط ذكرياتها صوت مثقوب يشبه الصوت الصادر من دفوف الدراويش، كان هذا صوت أختها سارة المتميز بالنفور، نادتها من الداخل:

- شعركِ مازال مبتلاً، الضيوف سيحضرون بعد قليل، تعالي أجففه لكِ...

جلست كالدمية في حضن أختها، سألتها سارة مستدرجة:

- ما رأيك بمروان؟

ثم ضحكت وأضافت وهي تفكر وصوت مجفف الشعر كان أحلى وأوقع على النفس من صوت الدُف المثقوب الذي تمتلكه: ملعونة،

توهمنا بأنها بريئة، وهي ماء من تحت تبن، لا يشعر به المرء، كثعبان سائب لا يحدث بحركته إيما صوت!

- ها.. ما رأيك به؟

بذهول صاحت:

- مروان؟

- رأيته جيدًا، كان يعض شفتيه وينظر إليك بوقاحة، لم تنزل عينيه عنك، نظراته أجرأ من كلماته، كانت تقطر شهوة! ثم هتفت بصوتها المقلق: هل أعجبك؟ لكن، عليك ألا تنسي أن سيف ابن خالتك في حكم خطيبك!.

بلب مستطار منبهرة بما تسمع وهي تستحل حضن أختها:

- سيف ابن خالتي في حكم خطيبي! من قال ذلك؟ بل متى حصل؟ ثم بلهجة تأنيب حادة وعيناها تلمع: ألم يتقدم سيفك هذا الذي تقولين عنه ابن خالتنا لخطبتك بشكل رسمي؟ ألم توافقي عليه؟ ألم ترفضكِ أمه التي تعتبر خالتنا؟ وبهذا، انتهى الموضوع بالنسبة لكما.. تُرى لماذا تدحرجينه عليّ وبهذه الطريقة الغريبة؟ ما قصدك من كل هذا؟ عجبًا والله!.. أحيانًا لا أفهمك، بل أشعر بأنك تودين السوء وإلحاق الأذية بي.. لماذا يا سارة؟ لماذا يا أختي العزيزة التي أكن لها كل احترام ولا أريد لها سوى الخير وأن تعيش في سلام ووئام مع من تحب ومن تختار؟

obeikandl.com

لم تخجل، كان تصميمها على تعذيب أختها أكبر من حبها لها، استطردت بذات الرنة كالساحرة مفتية:

- لا تلعبي بالنار يا صغيرتي! تدفئي بها كما تريدين، نعم يحق لكِ ذلك، لكن، لا تكثري من سوء استعمالها، فقد تأتي بنتائج وخيمة لا يحسد عليها صاحبها! عندها تحترق أصابعك هذه الجميلة الناعمة التي يقولون عنها مثل مفاتيح البيانو المصقولة، ثم رفعت درجة صوتها بهوس: ألم يقولوا عن أصابعكِ ذلك؟

قاطعتها أنهر بحدة وهي تبعد رأسها عن نطاق يدها:

- لا أسمح لكِ أن تتحدثي معي بهذه الطريقة الغريبة، أعتذر منكِ، نهضت بحركة عصبية، قالت: لا أحتاج إلى مساعدتك، شكرًا على أي حال، ثم هذا الذي يدعى مروان صنف لا أقرّبه، لا يعجبني، ليس من أفكر فيه، خذيه أنت إن أعجبكِ، ربما يطفئ لكِ جذوتك ويساعدك على حل مشاكلكِ، أما أنا.. لا.

سارة بالنسبة لأنهر مكشوفة، أنهر تستطيع أن تقرأ أختها بسهولة مثل كتاب مفتوح وإن صعبت عليها، تبحث في تلابيب مخها تنبش فيه حتى تجد ما تبحث عنه. رأت لحظتها أخاها وهو يهم بالخروج لنصب عدة الشيّ في باحة الشقة الخضراء المحاطة بسور من الآس، لم يتجاوز طوله عن نصف متر، لكنه كان رائعًا، لا يعرفونه كثير من الدول، يقولون عنه بوكس، لكنه ليس آسًا عراقيًا، الآس العراقي

له رائحة مختلفة تأسر الألباب، يبقى أخضر صيف شتاء، لو فركت أوراقه بيدك، يصبح كفك حارًا، يشع عطرًا ساحرًا، ينعش الروح، هكذا هو الآس العراقي، قالت لكمال:

– سأساعدك، يعجبني منظر الجمر، لا أحب رؤية الرماد، أحب التوهج والحياة.

بتعالٍ:

– حسنًا.. ثم أضاف: ليكن، احملي المنقل، ضعيه في وسط الباحة، ثم ضعي الفحم في بطنه، لكن حذاري، لا تشعليه! وطفق مسترسلاً بتندر: سنجلس حول النار كالهنود الحمر وهم يحتفلون، سنقلد المنغوليين في أكلهم، نلتقط قطع اللحم مباشرة من أسياخها وهي حارة، كفتات السمك..

قاطعته، لم تصدق سمعها، تفتحت ببطء كزهرة اللوتس الصينية، وسألته بلهفة ورقّة أبكته:

– هل تخاف عليّ يا كمال؟

دمعت عيناه الزرقاوان، قال بتأثر وبعاطفة أخوية صادقة كصدق دموع الفرح:

– طبعًا أخاف عليكِ.

– قلها مرة أخرى، ماذا قلت؟ أريد أن أسمعها...

كطفل لا إرادة له ردد:

obeikandi.com

– أخاف عليك وأحبك كثيرًا...

صرخت منفعلة:

– وتحبني كذلك؟ واستطردت وهي تزم شفتيها الورديتين: هل هذا الكلام صادر من قلبك؟

– من قلبي.

– قلها مرة أخرى، لا تبقى ساكتًا، الساكت لا تعلم بماذا يفكر، أرجوك، أمي لا تقول لي ذلك!، أشعر أحيانًا بأنها فعلاً لا تحبني، الصخر أكثر رقة منها...

هي لا تريد أن تصدق ذلك، ثم تذكرت كلماتها التي رددتها على نفسها قبل أن تدخل الشقة، فسألته مباغتة:

– هل تصدق ما قيل عن أمنا بأنها هي التي أودعت أبينا السجن بتهمة ملفقة ثم أدخلته مستشفى الأمراض العقلية بهتانًا؟

تسمر كمال في مكانه، لم يحر جوابًا، سورةُ الخوف، قال بعد أن وعي متأثرًا:

– لا أصدق ذلك.

ثم لاذَ بالصمت وكأن الصمت سينقذه. همست:

– من حقك أن تقول ذلك، فهي تحبك أكثر من نفسها، تجهر بقولها ذاك، كمال ذكري الوحيد يا حبة عيني.

obeikandi.com

ابتسم، سرح في خياله، سر ذاته: أمُّه على حق، لو طلبت من أمي أن تشعل أصابعها بخورًا لفعلت!، ضحك فجأة ثم استطرد بصوت مسموع:

– يا عزيزتي، يا حبيبة قلبي، أنتِ الدنيا التي نحيا فيها، قد لا نصرح بذلك، لكنه موجود في دواخلنا حتى عند بدرية أمك!..

– خوش، صدقتك.

دنت منه، قبلته بحرارة من جبينه. نصبت المنقل، وضعت الفحم في بطنه كما قال لها، كانت حريصة هذه المرة على فعل كل ما يطلب منها، انتظرته يُشعل الفحم، ضحكت كالطفلة لمنظر النار، صفقت وهي تقفز، بنطالها الجينز القصير حد الركبة كان يساعدها على القفز، شعرت بسعادة من داخلها.. ثم عادت فسألته بعد وقفة صمت وعينيها لم تفارقا منظر النار:

– لماذا يا كمال إذن لا تكون معي لطيفًا كما أنت الآن؟

بحزم:

– لأنني الرجل. وإلا كيف أنتصر على أعدائي!

باستغراب:

– أعداءك! من هم أعداءك يا كمال؟ أرجو ألا تكون نفسك!

سألها بدهشة:

– نفسي!

obeikandi.com

– طبعًا، غالبًا ما يكون الإنسان عدو لنفسه دون أن يعلم، فيتوهم له أشياء كثيرة وأن كل من حوله يتربص به، الحقيقة هي أن داخله غير المنتظم هو الذي يوحي له ذلك، ولو سيطر بإرادة صافية قوية على ما يحمله داخله لانتصر على واقعه دون ريب. ترى لماذا يروض المتصوفة نفوسهم ويجعلونها تتحمل أكثر مما تعودت عليه، للتغلب على الرغبة وكبح جماحها وجعلها متوازنة مع أفكار العقل قدر الإمكان، لأن التوازن هنا وأشبههه دائمًا بأذن الإنسان التي تكون مسؤولة عن توازنه، وأي خلل يصيبها يسقط، يتخلخل توازنه، يتمرغ في التراب، لا يستطيع الوقوف على قدميه كما خلقه الله، هل تفهم ما أعني؟

ثم استطردت بخفة دم كعسل يسيح من حافة حافضته:

– الرجل يمكن له أن يكون لطيفًا ومحتفظًا برجولته في ذات الوقت، أين المشكلة؟ اللطف لا يتقاطع ولا يتعارض مع الرجولة أبدًا، اللطف ذوق، والذوق جزء من أخلاقيات الإنسان، حتى إن البعض يطلقون على لطفاء الرجال تسمية: جنتلمان! ثم غمزته مبتسمة: لماذ لا تجرب أن تكون مثلهم؟

– اللعنة، الرجال في قوتهم، أنا أكره أن أكون مخنثًا!!

– ومن قال لك إن اللطف لا يحتاج إلى قوة؟ أو لو كنت لطيفًا لأصبحت مخنثًا؟ ما هذا الذي تقوله؟ انظر إلى صبر المرأة، تحملها،

مواظبتها، سعيها ومع ذلك هي رحيمة ولطيفة وتعشق من يعاملها بنفس الأسلوب.

بعد وقفة قصيرة أشارت بيدها نحو السماء وهي تقول متابعة:

- عزيزي الغالي، هناك أمر غاية في الأهمية عليك أن تعرفه، سيفيدك جدًا بحياتك: المرأة غالبًا ما تكون أقوى من الرجل عند الصداقة مثلاً، بماذا تفسر ذلك؟ قل، لماذا تسكت؟ ثم شرعت بذات الحماس: الرجل يتهاوى، يترنح، ينسى نفسه ومبادئه في لحظة ضعف، المرأة لا تفعل ذلك، هي أقوى منه، تفكر حتى في لحظة ضعفها بما سيؤول له أمرها فيما بعد، الرجل ليس له القدرة على عمل شيئين في نفس الوقت، المرأة هنا تختلف، اسمع، سأقول لكَ شيئًا ربما لم تفطن له من قبل: هل رأيت في حياتك رجلاً يضرب على أوتار قيثارة؟ أجابته مندفعه: نادرًا جدًا، المرأة هي التي تستطيع أن تحرك يديها وقدميها وبتركيز عالٍ، والعزف على القيثارة يتطلب من العازف فعل كل ذلك في وقت واحد أثناء العزف..

ثم تابعت بعد أن وجدت فرصتها لتوعية أخيها:

- الذكورية يا كمال لا تعني الرجولة مطلقًا، الرجولة وفاء، إخلاص، موقف صحيح وحكيم، والإنسان المفكر يبقى هو المبدع، بغض النظر عن جنسه، لأنه لا يفكر بنفسه مثلنا، همومه هي همومنا..

اعتدلت في وقفتها، فرقت شعرها من الوسط بأصابعها وأرجعته إلى الوراء، وتابعت:

- ما أقصده هو إننا نفكر بحياتنا المعيشية فقط وليس بحياة الآخرين والمجتمع والعالم، وهنا يظهر الفرق، الإنسان المبدع بغض النظر عن جنسه كما قلت، أنثى أم ذكر، المهم هو أن يفكر من أجلنا، بأشياء تفيد الإنسانية، يتعدى فيها حدود الأنا ونطاق الذات، هو يحتاج إلى العقل لأنه القوة الحقيقية، بالإضافة إلى حاجته للخيال، فالقوي منا هو من يستطيع أن يصهر الاثنين معًا في إنتاجه، عندها.. رفعت درجة صوتها بحماس واستمرت: صدقني يا كمال، يستطيع أن ينتصر على نفسه، أن يأتي بأعمال رائعة، تصل حد الإعجاز، فكر بكلامي هذا، من حقك، ألم تدرس مسرحيات شكسبير في الإعدادية، الأخير لم يكن قويًا بالمعنى الذي ذهبت إليه أنت، بل كان نحيل الجسد لا يقدر على الوقوف، لكنه كان مبدعًا، دُرست وتدرس أعماله في أفضل مدارس وجامعات العالم، لست أنا من يقول لك ذلك، أنت تعرفه، لقد ألَّف شكسبير أول مسرحياته وهو في عمري، تصور ذلك.. لم يكتفِ بذلك بل مثلها بنفسه، لم يكن يملك المال لإحضار ممثلين، خاصة بعد أن أشهر أبيه إفلاسه، أعجبت الملكة يومها بالمسرحية، أعطت شكسبير الكثير من المال، فك الأخير رهن ودين أبوه وأصبح كما تعرف، شاعر وكاتب

مسرحي خالد على مر الزمان.. ولك أن تقل في ذلك على غاندي، ذلك الرجل الذي استحق أن يكون رمزًا خالدًا للقوة والسلام من خلال العقل فقط، أرجو أن تفهم ذلك جيدًا، بالعقل والإرادة، لا بالعضلات والسلاح، حارب الإنجليز، عذبهم، هدّم اقتصادهم، سحقهم.. كل ذلك فعله بالحكمة.. لم يكن قاسيًا أبدًا، كان يعطف على الحيوان الى حدود اللعنة، لا يأكل لحمها، لا يود قتلها، تصور ذلك، هذا ليس دينه كما يدعي بعض جهلاء العقول، إنه رحيم بالكائنات التي خلقها الله، هذا هو جوهر إيمانه..

قاطعها بمشاعر تحرقه حد الهوس:

– ها.. لذلك أراكِ لا تأكلين اللحوم معنا إلا ما ندر!

بدلال وغنج:

– لا والله، ليس لهذا السبب فقط، بل يتعلق بالصحة كذلك!

مستغربًا:

– الصحة!

– نعم يا عزيزي، فلو أكثرت من أكل اللحوم ستصاب بداء الملوك دون شك.

– داء الملوك! ما هذا؟

بحنية ورقة:

openkandi.com

- لأن الملوك يكثرون من أكل اللحوم، سمي المرض باسمهم – أبعد الله المرض عنك– يسبِّب تورمًا في إصبع القدم اليسرى، وغالبًا يصاحبه ألم نابض كدقات القلب.

فاغرًا فاه يستمع لها كالمسحور وهو يسألها بشغف:

- بالله عليكِ كيف تعرفين ذلك؟

نبهه صوتها:

- يسمونه في العالم العربي داء النقرس، لكنه يُعرف عالميًا بداء الملوك يا صغيرنا المدلل!

ثم استطردت بحماس:

- لماذا نذهب بأمثلتنا بعيدًا.. بالتأكيد سمعت وقرأت على يحيى بن زكريا، ألم يعش في الصحراء واعظًا، ناذرًا نفسه للخير، للمحبة، الفعل الحسن، جابهة الملك هيرودس وهو لا يملك غير الكلمة الشريفة، تعلم ذلك على يد المتصوفة الأسينين، صام، جاع، تعب ولم يخذل، على العكس، اختاره الله نبيًا، انتبه لما أقول، الله لا يختار إلا المبدعين ليصطفيهم، الذين يتنكرون لذواتهم، لا يفكرون إلا بمشاكل غيرهم وكأنها مشاكلهم، اللطف يا كمال ليس عيبًا، إنها عاطفة جميلة خلقها الله في الإنسان، الإنسان أروع كائن يحسن التعامل مع هذه العاطفة، فلماذا تنكرها وتعتبرها قبحًا وهي جمال؟ أنصحك أن تفكر قبل أن تنطق، جرّب ثم احكم بنفسك، لا تقف

obeikandi.com

على ما قاله غيرك وتعيد ما سمعته، ابدأ منه لو كان حسنًا ثم قل ما تراه أنت، اعمل ما يمليه عليك ضميرك بشرط أن تنام الليل مطمئنًا، لا يوخزك ندمًا كمدية تشقّك نصفين، الموضوع وما فيه تعوّد، مسألة روتين وصياغة شخصية وأفكار نتعود عليها في بيئتنا ثم نتمسك بها كأنها أنزلت علينا من السماء عن طريق وحي.. ثم ختمت جولتها: هذه هي قواعد لعبة الحياة، صدقني يا كمال...

ارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة وهو يسألها مأخوذًا:

– بحق السماء، كيف تعرفين كل ذلك، من أين لكِ كل تلك المعارف؟ ثم ناح وهو يرفع كلتا يديه عاليًا: ليرحمنا إذن أبونا الذي في السماء..

ضحكت، ربتت على كتفه وشرعت:

– قبل كل شيء عليك أن تتسم بالتواضع، فهو سمة الكبار، أن تنبذ الأنانية، اصغِ للآخرين حتى وأنت منتشي، تحدث معهم وأنت تأبى الكلام، كن نفسك وليس ظلها، لا تمثل دور الإنسان، كن الأصل دائمًا، إياك ولبس الأقنعة، لا تجعل روحك من ثلج ولا من نار، بل من خليط الحب والأفكار، احذر في تعاملك مع الحب، أحيانًا تولد له بنت تدعى الكراهية، ثم أردفت بعد وقفة: لا تصدق أوهامك على أنها معتقدات ثابتة، المعرفة يا كمال كالماء الجاري، نوعًا من

obeikandl.com

التطهير، المطالعة هي التي تجعلك تفهم الحياة وما حولك بشكل رائع، جرّب سوف لن تخسر شيئًا...

ثم باغتته مشرعة:

– أراك متحمسًا وأنت تتحدث، هذا ناتج عن قناعتك فيما تقوله، لكن الأمر يختلف تمامًا، أقول لك، القناعة يا كمال تختلف عن الوعي، الوعي هو الذي يُنشئ القناعة وإذا كان الوعي ضعيفًا أو سطحيًا تكون حجج القناعة واهية كخيوط العنكبوت كما يحصل معك الآن بالضبط، خبرتك قليلة أنا أعرف ذلك، الخبرة مهمة في بناء الوعي وبالتالي توليد القناعات على أسس صحية متينة تخدم الإنسان أولاً ثم المجتمع..

كأبله منظره كان يفوق كل وصف، يشعر بتعب جسده وعزاء قلبه وكأن الدم تجلد في شرايينه صاح:

– باه.. كيف هذا؟ هل أستطيع وأنا في هذا العمر؟

– ماذا؟ صرخت به مبتسمة، وكم عمرك يا مقرود؟ أنت لم تتجاوز الثانية والعشرين بعد، وشرعت: طبعًا تقدر، سأعيرك بعض الكتب التي أجدها مهمة لرجل مثلك.

محمومًا وبوضع مسرحي سجد أمامها بعد أن تحير الدمع في مآقيه:

– هل أنتِ جادة فيما تقولينه؟

– خوش.. أنت إذن لا تصدقني، ومع ذلك أقول: نعم. كل الجد.

• • • •

ظل ساهيًا، سارحًا في كلام أخته ولم يحر جوابًا، خجل، غرق في خجله، احمرت أذناه، خفَّ وزنه، وربما إنسانيته، أنهر عرته بكلماتها الساحقة الماحقة، لم يعرف بالضبط ما حصل له، كلامها أحدث ثقبًا في جلده، لم يتكلم أحد معه بهذه الطريقة ولا بتلك البساطة اللاسعة كالسوط من قبل، قلبه ارتجف كروحه، كلماتها عصفت به، مزقت أشرعته التي كان يختبئ وراءها، أنهر على حق قال لنفسه، هي دائمًا على حق، وهذه هي المشكلة التي أواجهها، ثم بدأ يعدد مواهبها ويقارن بينها وبينه ويأتي على سيرة عائلته هاذيًا وهو ما زال بوقفته في باحة الشقة كالصنم..

هي أفضل مني في كل شيء رغم صغر سنها، أنهر لا تتعمد الأشياء ولا تصنعها، طبيعية في كل شيء، ربما لذلك كانت متميزة، الطبيعة لا تعرف إلا نفسها، لا تمثل إلا صوتها وألوانها كما خلقها الله، هي كذلك كالطبيعة، تعطي ولا تسأل أن تأخذ، سبحان الله: كيف صوّرها على تلك الصورة؟ ثم عطف مستدركًا: أنا مَثَل رائع للفوضى فقط، في حين تمثل هي النظام بعينه، قلبها ياقوتة، غالية لا تقدر بثمن؛ شخصيتها القوية، تفردها بالرأي والقرار جعلها محط إعجاب وحسد الأسرة كلها في ذات الوقت، إلا أبي، ذلك المريض

النفسي والعصبي المسكين الذي لا يريد أن يصدق أو يعترف بأنه مريض ويجب أن يعالج، لقد رأيته بأم عيني وهو يعطي فتاة من عمر أنهر الكثير من المال وهو يتوسل بها ويتلمظ بلعابه من أجل إطفاء نزواته اللعينة!

آه.. يا داوود، ستشهر إفلاسك لو بقيت تمنح المرأة التي ترغب بمضاجعتها كل هذه الأموال، أسرة مريضة، متكبرة، مغرورة، والهم يركبها، إلا أنهر، لولاها لانخسفت الأرض منذ عهد بعيد بالأسرة، حمدًا للرب لأنه منحنا إياها! تأمل السماء، نظر إلى أنهر من طرف خفي، أضاف يخاطب نفسه مصممًا: سأحاول أن أخرج من دائرتي المفرغة التي لا طرف فيها أو حتى اتجاه لها!.

تناسى المسكين أن حياة الإنسان لم يردها الله إلا دائرة، لها بداية ونهاية، وما بينهما نور، من خلاله يرى أشيائه وينتج أعماله، يكافح، يخسر، يربح، يتألم، يصرخ، يضحك، يفرح، يكبح، مرة ينكسر وأخرى ينتصر حتى رحيله، رحلة لا مناص منها شئنا أم أبينا.. حياة الإنسان على الأرض أخلاقه، وبعد موته ذكراه، يده وما زرعت، لو عرف كمال ذلك وفهمه جيدًا لكان أكثر سعادة.. لكنه لم يتوصل لهذه النتيجة بعد..

opeikandi.com

حرك الفحم الموجود في بطن المنقل، مازال لم يتحول إلى جمر، نفخ فيه، ارتفعت ألسنة اللهب، انهمك يهفي لها بالورق المقوى وأنهر تنظر له وللنار مسحورة، غمرتها السعادة، سوّرها الفرح، امتلكها، أعطت نفسها له، لم تقاوم، هي تعرف كيف تعيش لحظاتها بكل وجدانها، وقفتها مع أخيها لا تعوض ولا تقدر بثمن، هو لم يقف معها من قبل كما وقف معها مذهولاً، مستمعًا، متلقيًا بنهم الجائع للأكل، كالشبق لممارسة الجنس.. في ذلك المساء من يوم الثالث والعشرين من آذار وهم يحتفلون بعيد الخليقة، وقبل حضور ضيوفهم.

openkandl.com

في جو صامت مربك وهدوء طاغٍ لا يحبذ توافدت الوفود إلى عائلة أم كمال.. كل شخص كان يحمل في يده شيء، خبزًا، فاكهة، لحمًا، فحمًا، بساطًا، زجاجات بيرة ونبيذ أحمر وعرق.. أول من حضر عائلة ابنتها الكبيرة سمر بعد أن اتصلت بها والدتها ودعتها للعشاء معهم. رفضت سمر الذهاب إلى شاطئ البحيرة ظهرًا عندما تعذّر زوجها عاصم سيء الذكر بالصداع الذي هجم عليه فجأة بوهن وكأنه ينتظر الموت منذ سنوات، هكذا ادّعى مرحوم الوالدين كاذبًا، شأنه هذا دائمًا، حيث اعتبر بالنسبة للكثيرين ابن دهاليز، كجني في الشهر السادس..

إذا آمنا بوجود الشياطين على الأرض فعاصم أرذلهم!! رجل أخرق أمرد، صوته يُسمع ما بين المرأة والصبي، غير متزن لا في سلوكه ولا في كلامه، الخبث يطل من أعماق عينيه. فقيرًا، معدمًا، وحاذقًا في الكذب والنصب والاحتيال، متلذذًا طوال حياته بالمسكرات والمدمرات بأنواعها المحلية البائسة الصنع والرخيصة، يا الله.. أي سمات اتسم بها مولانا ابن الخائبة هذا، لا غفر الله له.

obeikandl.com

كان مهرجانًا من الصخب الذي لا ينقطع.. أخزاه الشيطان، موهوبًا بالمجون والجنون.. فما أن وصل المنتجع حتى ترك زوجته وولديه يرتبون حاجياهم والتقط زجاجة العرق الذي يسميه حليب السِباع*، وأحيانًا يطلق عليه "ماء جهنم" وبدأ يكرع منها بسرعة فائقة وكأن أحدهم يسابقه، حتى سكر وبدأ يترنح كعادته.. عندها لم يعد يعلم إن كان في السند أم في الهند! وحينما اتصلت به حماته للذهاب مع عائلته للشاطئ قال مناورًا كاذبًا إن الصداع أتى على رأسه فحطمه، اعتذرت زوجته من والدها بعدم استطاعتهم المجيء إلى الشاطي، لكنها وافقت على الدعوة عند المساء.. وها هم أول الوافدين..

• • • •

ولد عاصم في بغداد من أسرة كبيرة على رأس سبعة أخوة توازي في عددها قبيلة، له رأس كبير يشبه رأس الثور، وعقله لفعل الخير بحجم عقل عصفور، بينما للشر كان أذكى مخلوقات الله وأقدرها! استقر على رأسه الكبير ذاك كتلة ضخمة من الشعر غير معتن به، بخدين منتفخين غير موردين، تحيطان بعينيه المدورتين هالة داكنة

---

* السباع : الأسود

openkandl.com

كأنها دهنت بالسخام، وكلما سمن وجهه كلما ازدادت عتمة، رفيع العود رغم ضخامة رأسه، سبحان مصور الأحوال، كيف يستطيع أن يجعل عقل عصفور في إنسان!!

لا تجد أثر لشعرة واحدة في جلده، أملس كجلد الحية، مخيف كالفراغ في الليل، يعرج قليلاً بساقه اليسرى إثر دخول مسمار في قدمه عندما كان طفلاً، لم يبرأ منه، يجيد الغناء حينما يكون ثملاً، وما أن يريد المزاح حتى يبدأ بالأهازيج الساخرة المليئة بالشتائم والتي تنتهي بإصرار وبشكل خبيث بكلمات بذيئة يعرق جبين المرء لدى سماعها ويعتبرها ملح الحديث والدعابة! خاصة عندما ينهي جولاته الخطابية الغنائية، وصوته يكون قد بح لكثرة ما قدمه، وبعدها يمج معطيًا أوامره بلا خجل زاعقًا كصاحب مزاج محترف: هش ش ش ش! وعلى وزنها يضيف بنشوة أقرب إلى السكر: كش ش ش ش!.

ثم يدعو بطريقة غريبة، مريبة وبصوت فج يشبه صوت الشهيق: إلهي، هب لي عقلاً كعقل الرحمن، واجعل لحمي كلحم الضأن، مرغوبًا ومطلوبًا.. ثم يسكت وكأنه قد قال كل ما حفظه وينام، يبقى في جلسته لا يبارحها، ثم يتدلى رأسه على صدره كالمصلوب

obeikandl.com

وشعرات رأسه تميل كيفما اتفق على كتفه، والويل كل الويل لمن يوقظه في تلك الساعة التي ينام فيها مخدرًا كالميت!!.

ترعرع الذي الجن نفسه لن ترتاب منه كشيطان أجرب في فاقة وعوز كبيرين، فتعلم منذ الصغر عادات سيئة كبرت معه كوزنه، أكثرها شناعة جمع المال بطرق غير مشروعة. كان في بداية الخمسين ويبدو في السبعين، لم يسكن ابن المقرودة يومًا في دار يملكها، فبقي مستأجرًا متنقلاً من شقة إلى أخرى، ومن حي إلى آخر، ومن غرفة فوق السطوح إلى غرفة تحت الأرض وهكذا ظل يجر عائلته معه كظله في كل تنقلاته المكوكية التي لا تريد أن تنتهي؛ فسبب لولديه رند ورامون إحباطًا وتأخرا في الدراسة بشكل مروع، فاضطر ابنه البكر لترك المدرسة مبكرًا وهو لا يبالي ولا ينتكس، وكل مرة يزداد هِمة في الاستدانة من الناس الجدد الذين يتعرف عليهم، كي يسدد دينًا قديمًا لدائن يهدده بالشكوى وربما إيداعه السجن، هكذا بقي يستدين من هذا ليعطي ذاك دون أن يعجز أو يملّ أو يستحي..

يعمل سائقًا في الجيش على شاحنة ينقل بها معدات الحرب المدمرة التي يموت بها الشباب. زوجته تدير متجرًا صغيرًا تبيع فيه الخضار والفاكهة.. وها هو يقهقه بشراسة كشبح ملعون داخلاً شقة حماته

وأسرته وراءه يحملون معهم عدهم للشيّ المتفق عليه.. رحب به داوود بعدم ارتياح، صاح بلا مبالاة:

- غفرانك يا رب، أرى الفناء ولا وجهك!

ثم غيّر لهجته وجعلها أقرب إلى التودد، عندما تذكر أنه سيشاركه معاقرة الشرب، فكر بليلته، ستكون مليحة يطرب لها الشيطان! استجمع ذاكرته، فخال له عاصم وهو يقدم له النبيذ الأحمر الذي يحبه كأولاده والعرق الذي يسميه ماء جهنم لقوته، ضحك عندما تصور بأنه سيسكر ويبدأ بالتعتعة والترنح وصولاً إلى النشوة التي سيغرق بها، هو يجب أن يصل إلى حالة السكر الشديد بسرعة، يرفض البطء في الشرب كما عند التدخين، يقول: أريد أن أنسى! في حين يشرب الإنسان الكحول لكي يتمتع، يشعر بالانعتاق، من أجل أن يتذكر إن صح التعبير، لا أن ينسى.

تُرى لو فقد الإنسان ذاكرته ولم يعد يتذكر شيئًا مما حوله ولا يعرف أقرب الناس إليه.. ماذا سيتبقى له بعد ذلك؟ سحقًا، الفناء أرحم، بل لا يصح هنا غير ما قاله الروائي العالمي ماركيز: يموت الإنسان عندما يفقد ذاكرته. الذاكرة هنا لا تختلف عن الضمير، إذا اختفى صوت الأخير مات الإنسان بداخله، والشرقي لا يحب ولا يعشق في حياته أكثر من موته في الحياة!! بعد أن تصور لداوود ما سيحدث له، هتف خاطبًا:

- يا مرحبا بضيفنا، يا مرحبا.. حلّت علينا البركة، أهلاً وسهلاً، زوج ابنتي العتيد، تفضل، اعتبر الشقة شقتك تمامًا..

بلع داوود ريقه، ثم باغته بصوت يشبه مواء القطة مشاكسًا كالبق الهائم في الليل:

- هل تعرف يا عاصم رقم شقتكم؟ وأردف: أراهن على أنك لا تعرف!.

طار لبه، صعق للسؤال، فاجأه عمه، لم يتوقع أن يباغته هكذا، قال في سره وهو يرمقه بنظرة متفحصة: غلبني، دس السكين في ظهري، تبًا له ولابنته هذه العجوز!. ضحك مع نفسه كالمجنون لوصفه، أنا استغرب في الحقيقة، لماذا هو مازال على قيد الحياة؟ لماذا لا يموت؟ ماذا ينتظر؟ هل يريد أن يرثني؟ ابتسم، استند على ساقه اليمنى، اليسرى كانت تتعبه بسبب ذلك المسمار اللعين الذي دخل قدمه، سممه بإهماله، قال كوحش انفلق من أسطورته متابعًا بغيظ: هو يعلم أنني لا أملك غير زجاجات العرق التي تملأ بيتي، ترى ماذا ينتظر هذا العجوز الغجري من الدنيا أكثر؟ لقد حصل على أكثر مما كان يتمنى، ليذهب إلى الجحيم!.

عاصم كان فعلاً لا يعرف رقم شقته، عمه على حق عندما استدركه، يريد أن يضحك عليه، يهزأ به، يقول له: انظر، أنت لا شيء، لا تعرف أن تقسم الشعير بين حمارين، الجميع يعرف خبث

opelkandil.com

داوود البريء، أراد أن يفحمه ويحرجه أمام العائلة، انتبه عاصم للفخ وهو يشعر كأنه محاصر داخل كهف، ربد متذمرًا ساعلاً وبعاطفة غامضة:

– كيف عرفت بأنني لا أعرف؟ ثم بتندر هازئًا: هل تمارس السحر أحيانًا؟

غيَّر لهجته، أصبحت فجأة عدائية، نابحًا بعد أن توقف لبرهة وكأن الحديث أتعبه:

– اسأل ابنتك! هي التي أكملت أوراق الحجز عند استعلامات المنتجع، كنت وقتها تعبًا جدًا من جراء القيادة طوال الوقت، تصور يا عمي اللذيذ – انتبه على نفسه، صحح الكلمة – أقصد يا عمي الطيب، لم تجعلني سمر استرح ولا لحظة في الطريق، لم تسمح لي بتدخين سيجارة واحدة، ثم انفجر صوته في الشقة مهلهلاً: هل ترضى يا أبو كمال بهذا الظلم؟ هل ترضاه لنفسك؟.

قال ذلك بمكر شديد، اعتبره رد اعتبار حاسم وسريع لشخصه، لأنه على علم بالمشاكل التي يعاني منها عمه مع زوجته، ثم غمزه وأضاف:

– لا علينا، ابنتك أمامك وأنت حر، اسألها عما شئت.

واندفع نحو حماته يقبلها، نفرت بسرعة من رائحته العطنة التي تشبه رائحة إبط متسول، لم تكن محببة لها، هو يكره الاستحمام في كل

obeikandi.com

يوم، يقول عنه إسراف لا داع منه، يضر الجلد، يجعله يحك مثل قرصة الناموس! ظهرت أنهر لهم وهي تفتح يديها كجناحين، ضمتهم بقوة لصدرها، تحبهم كثيرًا، تعطف على زوج أختها كما يعطف الهندوس على مقدساتهم، تحس بمعاناته، تقضي أغلب أيام عطلتها المدرسية عندهم، تساعد أختها في البيت، تعتني بولديها كثيرًا، تلعب معهما، تذهب بصحبتهما إلى السوق، تشتري ما يطلبانه عن طيب خاطر ودون تردد، يكلفها أحيانًا كل ما جمعته في أسابيع، لم يكن يهمها المال، ضحكة منهما تجعلها في نشوة...

تنسى مشاكل أهلها وما تعانيه وسطهم، خاصة حين تعود ذاكرتها إلى الوراء وتستذكر يوم كانت صغيرة.. كيف كانت تجبرها أمها على النوم في حضنها تتوسط بين رغبة الزوج في مضاجعة زوجته، وبين رفض والدتها والتمنع عنه، كانت تشعر بما يدور حولها، تبتلع الخوف بصمت خارق، تتعذب في داخلها، لا تستطيع أن تقول حيال ما يحدث شيئًا، يمرر الأب يده من فوق رأس أنهر نحو زوجته، تنهره بدرية بصوت مخنوق، يحاول أن يمسك شعرها بقوة، تزوغ منه، يشتمها، يلعنها، ينزل من على السرير غاضبًا، يلبسه ألف عفريت، يرتدي ثيابه بسرعة ثم يصفق الباب بقوة وراءه، يهتز أركان البيت بسبب الصفقة، يخرج دون هدى لا يعرف إلى أين.. تبكي أنهر بلا

obeikandi.com

دموع حتى الصباح، ثم تذهب إلى مدرستها مجهدة وعيناها الجميلتين متعبتين أثقلهما السهر وطول ليلة العذاب...

دخلت سمر إلى الغرفة التي كانت أختيها فيها، أهر جلست تسامر رند ورامون ولدي أختها، كان رند ضخم الجثة ممتلئ، أسمر البشرة، قصيرًا، لم يتعد الثانية عشر بعد، هادئ الطبع، مترو ي، يحب الوحدة، قليل الكلام، يراقب يبتسم يضحك، ويفعل كل شيء دون أن يشارك الآخرين.. عكس أخيه رامون، فقد اشتهر الأخير بمرحه وخفة دمه، إضافة إلى حبه للعراك وخلق المشاجرات والدخول بها دون أن يحسب نتائجها، هذا ما كان يعذب أمه، ليس له حظ طيب في الدراسة، خرج من المدرسة وهو مازال في الرابعة عشر، لوثت رئتيه السجائر مبكرًا وهو لم يعبر بعد الخامسة عشر، يتسكع متنقلاً بحثًا عن عمل.

• • • •

طلبت أم نصير من ابنها مجيد قبل أن يذهبوا لتلبية دعوة أقاربهم أن يتصل بأخيه آدم يسأل عنه، إن كان كل شيء على ما يرام.

هتف لأخيه مناورًا:

- كيف حالك يا بطل؟ ثم أضاف غامزًا: هل أنت وحدك؟

obeikandi.com

- أنا وحدي طبعًا ماذا تظن، من يكون معي في وقت كهذا؟ ثم همس سائلاً: لا تقل لأحد، كم رقم شقتكم؟

- لماذا يا حريص يا نيص؟

- قل فقط الرقم!

جاء صوت مجيد ملبكًا:

- ٣٣٣.

- جيد، لا تقل لأحد أنك أعطيتني رقم الشقة. قبّل لي أمي. كن حذرًا عليها. لم يتبق لنا في الدنيا سواها، تعلم ما أعني! ها..

- ماذا تنوي أن تفعل يا مجنون؟ أنا أعرفك، متهور وطائش..

انقطع الخط، طمئن مجيد أمه، قال:

- بخير، لا تخافي عليه، آدم حريص على نفسه، كفِ عن القلق، نحن هنا للاستجمام، للراحة، نحتفل بأيام العيد، أرجوكِ..

أطفأوا الأنوار، صفقوا الباب من خلفهم وتوجهوا إلى شقة رقم ٢٢١ حيث عائلة أم كمال تنتظرهم. مروا في طريقهم إلى عائلة أخيهم نصير، كان نصير قد بدأ الشرب، هو مدمن عليه لا يفارقه ككلام زوجته، يحبها بجنون ويخونها في نفس الوقت!، وعندما تسأله لماذا؟ يجيبك دون خجل: هذا شيء وذاك شيء آخر! زوجته تعرف وتغض الطرف، تقول: هو الرجل!، يفعل ما يشاء ما دام لم يقصر مع بيته وأولاده! لو حدث الأمر ذاته مع أمهر لاختلفت النتائج

obeikandi.com

كثيرًا، قد لا يتصور القارئ ماذا تعني الخيانة لأهر! عليك أولاً أن تجز رقبتها ومن بعدها تخونها.

هكذا هي مثل صفحة الماء الرقراقة، كوجه المرآة المصقولة، ترى الأشياء فيها على طبيعتها. وما حدث لها في بيتها الزوجي يومًا دليل لا يقبل الشك أو النقض على ما تحمله من صدق في كلمتها، فعلها ومشاعرها؛ إذ تورمت في حياتها مشكلة كبيرة.. حاولت معالجتها بسرعة وحكمة وبسرية تامة عندما توجست الخطر وشعرت بقرب انفجارها، فوصلت إلى حالة دون وعي مقصود كادت تكرر فيها مأساة أمها وأبيها معها..

ناقشت المسألة مع ذاتها، سألتها مستفسرة وكأنها تتحدث مع أحدهم: ترى، ماذا تعني الخيانة الزوجية؟ بل كيف لنا أن نعرف بأن هذا الفعل خيانة وليس شيئًا آخر؟ أجابت نفسها: لا.. أنا لا أقبل بهذا المنطق العقيم المفتعل. الخيانة هي الخيانة ولا تفسير آخر لها.. وشرحت وجهة نظرها مسترسلة كالحالم: سواء كانت نظرة أو لمسة أو فعلاً شريرًا ينافي الأعراف والأخلاق البشرية والإلهية.. وكل ما يقع تحت هذه المدلولات اعتبرها خيانة وجرم وجرح كرامة وإهانة لشخصي المتمثل بي، كأنثى، ككيان ثابت موجود، يعيش على الأرض حتى وإن كنت متزوجة.. فالزواج في عرفي لا

يلغي الثوابت التي أؤمن بها، خاصة فيما يتعلق ويندرج تحت معنى الخيانة.. سواء كانت كبيرة أو صغيرة، سواء تعرف زوجي على فتاة أو نظر إلى أخرى، فالجرم في شريعتي هنا هو ذات الجرم، ولا يختلف عليه الحكم..

ففي إحدى الأيام وبعد غياب الشمس بقليل، أغلق زوجها على نفسه باب غرفة النوم في شقتهم المتواضعة، اندفع الدم في عروقه حارًا، الهلع يعصر قلبه، وآهة الصراخ المكتوم تتجمع في صدره.. الغرفة التي حاولت جاهدة أن تجعلها أنهر أنيقة بأثاثها، جميلة في إنارتها وستائرها وساحرة في عطرها وطلائها..

أغلق زوجها – العزيز على قلبها – باب الغرفة عليه نصف إغلاقة وهو يبحث عن حقيبتها اليدوية التي لا تخرج بدونها أبدًا في خزانة الملابس.. وما أن التقطها حتى همَّ بفتحها بأصابع مرتعشة وبسرعة فائقة، وعينيه تتلصصان وتدوران في المكان كالسارق وهو يتابع البحث فيها بقلب راجف مقهور، ونفس قلقة، متهدمة، لا تحمل في حناياها سوى الشك والغل والتشاؤم وقلة الحيلة، والعرق يلمع على جبينه فصوصًا..

كانت تنظر إليه بطرف ممزوج بالفرح المغتصب الغريب، معجون بالحزن والخوف والألم.. ويا لها من لحظات كانت تمر على أنهر وكأنها في حالة وضع عسير في أول ولادة. بعد جهد مضنٍ، عثرَ

obeikandi.com

على ما كان يبحث عنه.. رمق الحقيبة بنهم مكظوم وصرخ بصوت مكتوم وهو يمسح شفتيه اليابستين بلسانه:

– الخائنة! ها هي الرسائل في يدي، وتابع معتصر القلب: المجرمة التي ستنال عقابها دون رحمة، سأدق رأس شريكها كائنًا من يكون وأردف متشنجًا بتأثر: لقد كنت على حق وشكي كان في محله وهذا هو الدليل..

وهو ينظر إلى اللفائف الورقية بحقد وغل وكره، يعصرها بيده بقوة وكأنه يخنق زوجته، ثم بدأ بأنفاس متقطعة، وبأصابع مرتجفة يفتحها الواحدة تلو الأخرى وهو يشهق بالعبرات والدم في وجهه يغلي.. فتح أحدها بجرأة اليائس وقرأ بعينين زائغتين، متوترتين: "حبيبتي أمر، انتظريني في الوقت والمكان الذي تعرفينه، سأكون هناك على أحر من الجمر".

لم يعد يستطيع الوقوف بعد أن تذكر فجأة، عدول زوجته عنه وزهدها في مضاجعته في الأشهر الأخيرة!! تذكر قلة كلامها، انطواءها، انعزالها، شرودها وعصبيتها المتفجرة الثائرة في كل صغيرة وكبيرة.. الطباع التي لم يعتدها فيها من قبل!.

تقهقر مترنحًا وكاد يسقط مغشيًا عليه.. اتكأ على طرف السرير وحاول الجلوس وهو يبدو كعجوز يحتضر، فتح الورقة التالية وقرأ

openkandil.com

بعينين مطفأتين: "سأكتفي بما تمنحينني إياه.. فالقبلة من شفتيك الورديتين التي تشبهان فلقة الثمار الطازجة، تجعلني أعيش أيامي كلها منتشيًا كالسكران.. لا تتأخري، وكما تعودنا عند ذلك المكان الذي بدأت اسميه معبد حبنا!".

انتبه إلى نفسه، ثم إلى الرسائل..قلّبها بسرعة وبدأ يقرأ نهاياتها، فوجدها جميعها دون توقيع أو اسم!! سرت رعدة ورعشة في بدنه، أخذ يتنفس ببطء، وقف في وسط الغرفة وهو ينظر إلى حفنة الأوراق التي بين يديه ويردد بسرعة، لها سيولة الهذيان، مخاطبًا نفسه: ماذا يعني ذلك؟! وتابع بفم جف لعابه، وبوجه شاحب، ناشف، ممصوص، كوجه من قام من قبره للتو: إنها من شخص أعرفه!! لذلك، خاف من ذكر اسمه!! احتمال وارد، بل منطقي!! ناح: ترى منْ يكون؟! وأين هذا المكان الذي وصفه هذا التافه بمعبد حبه؟! إذ وكما أعلم أن زوجتي لم تغب كثيرًا عن البيت أثناء خروجها.. إذن، لابد أن يكون المكان قريبًا، والشخص المزعوم لا يسكن بعيدًا!!!

صاح ملتهبًا دون وعي كامرأة مات طفلها في بطنها: كل شيء إلا الخيانة!! ثم صال كالجمل: ولكن، منْ يكون هذا المعتوه الغاشم الذي يعرفني، يدخل داري، يسامرني ويخونني؟! تبًا له ولزوجتي المجرمة الآثمة!! لم يكمل قراءة الرسائل التي وجدها ملفوفة

كالقصبة.. خرج من الغرفة ودليل الخيانة في يده، وعوى مناديًا بقسوة وبصوت نحاسي غريب:

– أنهر... أنهر، أين أنتِ؟! تعالي إلى هنا.. هيا..

امتثلت بين يديه، وهو في شعور متناقض بين الحياة والموت، شعور لم يذقه أو يحسه من قبل.. كان مزيجًا من الفرحة والألم، النصر والخسارة، خليط بين الضحك والبكاء.. وقفت منتصبة لا تلوي على شيء وهي ترخي أهدابها ونبرت في هدوء هامسة:

– نعم، هل تريد مني شيئًا؟!

باستهزاء وهو يلقي رأسه إلى الوراء:

– وتسألينني كذلك؟

بحزم وهي تهز كتفها:

– لقد طلبتني فلبيت، ماذا تريد؟

– الحقيقة!!

بدهشة مصطنعة:

– أية حقيقة؟!

بامتعاض وجزع وصوت مرهق، مليء بالأم والحسرة:

– لا تتجاهلي الفعل الشائن الذي قمت به، ثم أردف بتهور أحمق كحمق نعامة: لا توجهي لي أسئلة!! أنا هنا منْ يسأل!!

بكبرياء وعناد يفتت الحجارة:

– إنها مشيئة الله!! وأضافت بلا مبالاة: ماذا تريد أن تعرف؟

في عجز والكلمات كانت تخرج من بين شفتيه كالضجيج:

– لا تستخفي بعقلي!! ثم تمتم بشك جامح وبصوت له رنة صفير الريح: كل شيء هنا..

وهو يرفع حفنة الأوراق المعروقة بين يديه عاليًا كخرق مبللة. قالت بنبرة لاهثة وصدرها يرتفع وينخفض، وهي تداري غضبها:

– اعلم إذن أننا لو تكاشفنا.. ستكون الخاسر!!

تردد لبرهة، سعل قليلاً وماء كقطة جائعة:

– لا يهمني الآن شيء، ولا أفكر إلا بمعرفة الحقيقة ومدى كبر وحجم الجريمة التي اقترفتيها بحق نفسك وحقي.. وتابع في رعب خاطف متفلسفًا: كرامتي وكبريائي لا تسمحان لي بالتواطؤ أو السكوت على الجريمة! لذلك أريد أن اسمع منك الحقيقة كلها دون كذب أو تهويل أو اختزال، وقبل أن أتخذ قراري بشأن علاقتنا وحياتنا!!

جلست أمام قبالته وفي عينيها بريق لا يرحم، كبريق شاعر منفعل، قالت بهدوء يطوي بداخله عاصفة من الغضب المكتوم وكأنها تنوي إفشاء أسرار حواء كلها دفعة واحدة:

– لم أستطع أن أنسى أو أتسامح فيما فعلته بي وبنفسك قبل عدة أشهر.. ثم ارتفع صوتها منددًا: هل تذكر ما فعلت؟! وواصلت بنفس الرنة المرتبكة التي تُخفي بداخلها بركانًا يغلي: يقولون، إذا

نسك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبر!! لقد كان ظلمك لي أشد من ظلم الحية، وأكثر من عداوة العقرب! رغم صبري الطويل معك، كصبر الكلب على الهون!

ثم استطردت بشجاعة:

- سأذكرك وأقول لك إن كنت لا تدري.. لقد رأيتك وأنت بكل بذاءة تضع يدك هذه التي سأقطعها لك قريبًا بعون الله!! على كتف صديقتي في حفلة عيد ميلادي.. رأيتك وأنت في نشوة وحالة من الجنون الغبي، ذلك الذي ينسى المرء فيها كل ماضيه ومستقبله، ولا يفكر إلا في لحظته.. كنت ساعتها تضحك كالساحر، لقد كرهتك حينها حد الموت والانتقام..

توقفت لبرهة، التقطت فيها أنفاسها وأكملت بتذمر سائلة:

- كيف تظن أو تصدق أنني قد سامحتك بمجرد كلمات أو قبلات أو حتى بهدايا ثمينة؟! بل كيف تجرؤ على أن تعيش معي وأنت ملوث بذكريات أليمة مخجلة، يستحق فيها ومن مثلك أن يدفن نفسه حيًا!! ماذا، هل ما زلت تطلب مني المكاشفة؟

ثم أردفت بحزم وحنق وتحد متقد:

- هل أستمر؟ وهي تنوه بخبث لعين: أم يكفي ما قلت؟!.

قالت ذلك بعد أن انطفأ تألق عينيها وهي في حالة من التعب والإعياء لا يعلم فيها إلا الله. خفض بصره باستحياء شديد، أسقط رأسه على صدره كالمصلوب وغمغم بتوجع في شبه إغماءه:

– أرجوكِ، قولي كل شيء.. منْ هذا الذي خنتني معه؟! وكيف؟

بذعر وصوت يرتجف:

– لقد حذرتك، ستكون الخاسر!!

بتبرم وعناد أحمق:

– قبلت التحدي وهيأت نفسي للخسارة.. ثم أردف مولولاً كابن آوى: أفضل من أن أبقى حائرًا غائرًا والشك ينهش داخلي كالسرطان.

انفجرت بغيظ مروع كوحش جريح وهي تسدد نظراتها إليه بعنف كسهام تمكنت من هدفها:

– أخوك!!

بهوس كالأبله:

– ماذا؟!

– كما سمعت.. ثم بإناء وإباء: لا داعي من تكرار الاسم!! ثم همست داعية: أعماك الله وأطال قلقك وسهادك.

انتفض واقفًا، أمسك كتفي زوجته بعنف وهزهما حتى كاد يخلعهما وهو يزمجر منتهرًا كشيطان غاضب:

obeikandi.com

- كيف سمحت لنفسك بإغواء أخي؟! ألم تجدي في هذا العالم سواه لكي تصفعيني به؟! يا لكِ من شريرة، آثمة و...

ولم تجعله يكمل شتائمه.. قاطعته بحدة، هاتفه:

- توقف. لن أسمح لك بقول المزيد.. وتابعت دون أن ترأف بحاله: عجبًا!! كأنك تريدني ألا أنطق إلا بما ترغب وتهوى؟! ومن يسامرك أن لا ينام إلا بعد نومك!! كم أنت متناقض وساذج في نفس الوقت متكبر ومغرور، أرعن وبلا حياء.. تخونني في يوم ميلادي وفي بيتي ومع صديقتي، ثم تشك بأمانتي وأخلاقي ونزاهتي؟! تبًا لك من غاشم، فارغ وفقير الذوق والإحساس، لقد خُدعت بك حقًا عندما أحببتك وعندما حدثتني عن الصداقة بين الزوج والزوجة، التفاهم الذي تقوم عليه العلاقة الزوجية، الوفاء والإخلاص المتبادل، لقد كذبت علي في كل شيء، واليوم تأتي بكل وقاحة، ترميني بشتائم بذيئة لا تليق إلا بك، ثم أضافت بلوم صارخ: يا من فعلت المستحيل لإرضائه!!

احتار في أمر زوجته!! لم يعد يفهم نفسه ولا العالم وما يدور حوله. هز رأسه، اختنقت في حلقه الكلمات، لم يعرف بماذا يسأل أو يجيب.. ظلَّ ساهيًا، سارحًا، والجهل يملؤه.. ولم يستطع سوى الركوع تحت قدمي زوجته كشحاذ مريض.. تحرك لسانه ببطء وهمس بصوت منخفض كالذي يخاطب نفسه:

openkandi.com

- لا أريد أن يشاع الأمر أو يذاع!! قولي إذن: ما الذي حصل؟ وما قصة هذه الرسائل؟ لمن تعود؟ وكيف استقرت في حقيبتك؟ وما هو دور أخي في الموضوع؟!

نظرت إلى زوجها وقلبها يعتصر وروحها تحتضر، وأجابت باستنكار:

- يحضرني الشاعر الذي قال:

يقوم من ميل الغلام المؤدب ... ولا ينفع التأديب والرأس أشيب

ثم نوهت:

- سأقصّ لك بالضبط كل ما حصل، ولا تقاطعني، كنت صادقة عندما قلت إن أخوك كان له يد في الموضوع ولم أكذب!

ضرب الطاولة التي بجانبه بقبضة يده بقوة وهو مازال راكعًا تحت قدمي زوجته، فرقص كأس الماء المملوء عليها رعبًا، محاولاً مقاطعتها بقوله: أخي مرة أخرى!

لم تعر له أو لقوله اهتمامًا واستمرت في حديثها وكأنها تتجاهل وجوده:

- لقد كنت سخيًا جدًا في خيانتك لي، سخاء المجوس على بيت النار!! وعندما فعلت ما فعلت في تلك الليلة السعيدة المشئومة.. بقيت أيامًا بلياليها أبكي وأنوح وأتألم. لم أذق طعم النوم، ولم أشعر معك بعدها بالأمان، بدأت حياتي تميل إلى حافة الضياع، أقصد حالة

obeikandl.com

أمي وأبي ومأساهما التي حاولت دائمًا تجنب حدوثها.. ألم تشعر بزهدي بك وابتعادي عنك؟! ألم تحس أو تسأل نفسك، لماذا بدأت أتحجج بالحجج الواهية كي أتجنب مضاجعتك؟! تمنيت حينها الموت، هل تصدق؟ ولكن أين هو؟! لقد كان الألم الذي يعصرني ويزهق روحي أقسى من الموت ذاته، لذلك تمنيته ولم يحالفني الحظ ولم تمنحه لي الحياة!! تصلّفت وتكلّفت ثم طعنتني بسكين حادة، مسمومة في قلبي وكبريائي وفي أنوثتي كلها، لكنك كنت وغدًا ولم تقتلني!! فتركتني أتلوى عذابًا، كشاة نُحرت من قِبل رجل غير متمرس في عمله، لم يتركها تعيش ولم يجعلها تموت رغم محاولة ذبحها، فبقيت تترنح وفي دمها الحار تسبح ما بين الحياة والموت.. باتت حياتي معك كسجينة بلا ذنب في زنزانة رطبة، حقيرة، قذرة، لا تتسع لقامتي وقوفًا، وعلى ما يبدو كنت في حينها تتسلى في عذابي كالسادي! عندما كنت تغادر البيت إلى عملك، أخفف حزني بشيء استطعته وهو البكاء..

ثم تابعت منهارة:

- يقولون، إذا انهار السد غمرتك المياه.. والسد كانت إرادتك ساعتها، والمياه شهوتك اللعينة!! لذلك تخبطت فيها شر تخبط وفعلت ما فعلت بكل وقاحة وإصرار.. ناسيًا، متجاهلاً وجودي وإحساسي، حتى بقيت من أمري حيرى، زهدت فيك وفي

obeikandi.com

معاشرتك وكدت أكفر في كل شيء، حتى شرفي وعفتي!! لأنني لم أهتدِ أو أعرف حينها كيف أعاقبك على فعلتك تلك، على تمردك الساذج، على خيانتك الرخيصة لي دون مبرر، وكيف أرد لك الصفعة صفعتين، حتى اهتديت إلى أخيك..

هبَّ واقفًا كالملدوغ يصرخ بصوت منفر، رنَّ صداه في قلبها:

- يا له من شيطان خسيس..

ثم أضاف بعصبية مفرطة وهو يحدجها بنظرة صارمة، قابلتها بشجاعة:

- سأدق رأسه، هذا الكلب الذي يدعي أنه أخي، وهو يطلق لدموعه العنان..

صائحة، وكأنها تلعن بعنف وتوتر:

- قلت لك لا تقاطعني، ثم شرعت: شرحت له كل ما فعلته بي، كيف طاوعتك وغوتك نفسك بخيانتي بعد هذا العمر الطويل الذي قضيته معك.. استمع لي بهدوء ورصانة، ووعدني بأن يقف بجانبي، ووفى بوعده بأمانة وحرص شديدين.. حيث جاءني يومًا بعدة رسائل أعدها وكتبها بخط يده، تفادى من ذكر اسمه عليها، نصحني بأن أضعها قريبة من عينيك أو في متناول يديك.. وقد سعيت كثيرًا بتغيير مكانها حتى تعثر عليها وبسرعة، ولم يحالفني الحظ إلا اليوم!! وأردفت: مشكلتي الوحيدة هي إنني أحببتك بصدق ولم أرغب أن

opeikandi.com

أعيد مأساة أمي وأبي... ففي ذكراهم دمعة، وفي نفسي لوعة، وخيانتك لي كانت صفعة..

ثم بأسى أضافت:

– أنا من يقول، كل شيء يا زوجي العزيز تحملته منك إلا الخيانة. آه.. كم أشعر الآن بالحزن والسعادة، بالخيبة والانتصار، بالخسارة والفوز والاحتقار.

قالت ذلك ودمعتان كبيرتان سقطتا على خديها ثم خفضت بصرها نحو الأرض وكأنها تنوي أن تسرها شجونها، الأرض كاتمة الأسرار أبدًا كالبحر.

••••

تعودت مقبولة زوجة نصير بمرور الوقت بعد زواجها واستقلالها في بيتها أن تبتاع من كل شيء اثنين، كبرت عائلتها التي كانت تزيد في كل عام فرد كما الأشياء الزوجية المتشابهة، فتجد في بيتها تلفازين، ثلاجتين، طباخين، مكيفين للتبريد وحليًا كثيرة يعجز الشيطان عن عدّها أو تقدير ثمنها، يغلب على طبعها الطمع، شراستها كانت حديثها، لا تنقطع عن الحديث، لها قابلية فذة قلَّ نظيرها في الوسط النسائي الرائع، أن تتحدث دون توقف لمدة ٢٤ ساعة باليوم، أمرها مذهل وبارع مقبولة تلك!.

بلا إنصاف ما برح نصير من عبادها، يقول عنها: تدارينا مثل ماء في صينية، لا تجعله ينسكب منها حتى والصينية تترجرج في يديها!

تزوجها عنوة عن أهلها، فرّت هي من بيتهم ما أن رأت نصير في الناصرية صدفة، جاءهم هاربة بثيابها التي عليها، سكنت معهم في بغداد حيث يسكنون دون زواج، لكن أم نصير لم تجعلها تنام إلا في حضنها.

هددهم أهلها باقتراف جريمة إن لم يرجعوا ابنتهم، نصير رفض بعنجهية ماحقة، قال: سأتزوجها شاؤوا أم أبوا، جاء أهلها في ليل حالك الظلام ومعهم الكثير من الرجال، دخلوا بيت أم نصير كالجنود بأحذيتهم الثقيلة، احتلوا البيت، صرخوا، هددوا بالانتقام، كانوا مستعدون لاقتراف أي عمل مجنون، أن يدخلوا في عراك لا يحسب نتائجة، أم نصير تسللت خفية نحو جيرانها تطلب مساعدهم والوقوف بجانبهم...

هي لم تعرف ما ستؤول عنه أحداث الليلة، كانت قلقة جدًا، اجتاحها سيل من الخوف، زعزع قلبها من مكانه، لا تعرف كيف تتصرف، الموقف كان ينذر بالشؤم كعواء الكلاب في الليل، سعيد ابنها كان صغيرًا، لكنه وقف يجابههم مثل أسد يدافع عن عرينه، سعيد معروف عنه هذا الطبع، شرس عنيد وقوي لا يهاب أحدًا ولا يخاف إلا من خالقه.

دخلت أم نصير بصحبة أبي ماجد وزوجته ونسيبهم، الذي يدعى صاحب ذات الوجه الوسيم، الذي صدم يومًا سياج دار أم نصير دون قصد بسيارته التيوتا "البيك أب"، وكاد يحدث عراك بين أسرة أبي ماجد وعائلة أم نصير لولا ستر الله وتراجع الجمع لحظتها، وانفك التجمهر كل إلى داره، إلا ابنتهم ماجدة المسترجلة، دفعت نفسها وسط القوم ساعتها وهي تصرخ: لقد طولنا بالنا عليكم، وجودكم نشاز بيننا! على اعتبار أن أسرة أم نصير على غير دين الإسلام، لكن أبوها والحق يقال، عاط بها مهتاجًا، ضربها أمام الجمهور الذي لا شغل له ساعتها غير المشاهدة والتمتع بمنظر ربما لن يتكرر بسهولة، سحبها من ثوبها وأدخلها إلى بيته، اعتذر من نصير بأن يعيد بناء سياج دارهم من حر ماله، نصير رفض العرض ساعتها وقام فيما بعد بترميم السياج بهدوء وروية كسياسي محنك.

أبو ماجد كان رجلاً عادلاً رغم بساطته، نهرَ ابنته وضربها أمام الجميع لأنها تجاوزت على عائلة أم نصير بالقول، قالت: لقد تحملناكم بما فيه الكفاية، ثم تابعت بتعمد: حان وقت الحساب! أبوها لم يرضَ بما تفوهت به ماجدة، هو يعرف أن الدين أخلاق، وأخلاق جيرانهم لا غبار عليها، ممتازة، إذن دينهم قويم، مسالم، إنساني ورحيم.

أدخل ابنته عنوة إلى بيتهم وصكَّ* عليها باب دارهم، حبسها، جعلها ترفس الباب، تعضه، تدق الأرض، تضرب رأسها بالحائط، لم يتأثر، لم يطرف له رمش، قال كلمته على الملأ:

- أم نصير وعائلتها على رأسنا من فوق، هم عراقيون مثلنا، لهم حقوقنا وعليهم واجباتنا، الدين لا يفرق بين الناس، ما يفرق بينهم هو العمل، التقوى، حسن السلوك والإيمان بالله، وهم مؤمنون، زوجها رحمه الله كان رجلاً مؤمنًا تقيًا يصلي ويصوم، رجلاً صالحًا يعرفه الداني والقاصي.

ثم هتف مرتجلاً بحماس غير زائف:

- من يمسهم بقطرة ماء أرشه بالدماء، وأنا أبو ماجد وأنتم تعلمون، هل تسمعون؟. الله على أبي ماجد.

ظلَّ يرطن في تلك الساعة والزبد يخرج من فمه خاطبًا بالجموع المتجمهرة وكأنه واعظ بعد أن نسى نفسه، بنخوة وشهامة واعتداد لا يقاس بالمفردات التي يعرفها البعض، هناك أشياء تحدث في الحياة لا يمكن وصفها بالكلمات، موقف أبي ماجد كان من هذا النوع،

---

* صكَّ : أغلق

مشاعره كانت صادقة جياشة، ظهرت بحمية وفي وقتها، مشاعر ربما لا يتحملها قلب إنسان عادي!..

أهل مقبولة لم يتوصلوا في البداية إلى حل يرضيهم، نصير أصرّ على الزواج من ابنتهم، هو لا يرغب بإيذاءهم، مقبولة من دينه ويريد الزواج منها، تدخل جارهم أبي ماجد حاسمًا النقاش:

– بما إنني أكبركم سنًا، اسمحوا لي أن أقول رأيي بكل صراحة: أنتم عائلة واحدة، دينكم يقول ذلك علانية، ونصير لا يريد السوء بكم وهو يخزر أهل مقبولة بنظرات ذات معنى، إذن، لا حجة لكم في رفض نصير أو عدم قبولكم لزواج ابنتكم، هي تحبه، لم تأتِ بخطيئة.

ثم رفع درجة صوته لتكون مؤثرة، هو يعرف ماذا يفعل، لقد حضر من قبل الكثير من جلسات العشائر،الصوت المدوي له وزنه في مثل هذه الحالات، الوقوف عندما يتحدث له وقع آخر على النفس، فيه رهبة، يجعل المقابل يخاف، يهتز بدنه،وهذا ما كان يطمح له، أن يرهب أهل مقبولة ويجعلهم يقبلون بزواج ابنتهم وهم صاغرون:

– أنا لا أفهم لماذا تعارضون؟

قال ذلك وهو فارد طوله بثيابه الريفية الكحلاء الداكنة، وقع كلامه كان مؤثرًا، جاء بنتائج رائعة يتمناها نصير بحرقة، مقبولة

كانت لابدة* في غرفة عمتها أم نصير تحت طاولة يضعون عليها فرشهم، كانت متوترة غارقة في عرقها، تنتظر نهاية سعيدة لمأساتها.
وقف الرجال بقاماتهم مختلفة الطول، سلام شقيقها من أمها كان أكثر الموجودين نحاسة وتعنتًا، كان يصرخ بجنون، حتى خاف عليه الآخرون من أن مؤخرته ستنفتق لو لم يخفف من درجة صوته، ظل طوال الوقت يلعن ويشتم ويهدد دون اعتبار لأحد، إذ عُرف عنه بأنه كثير العقد، يفضل الوحدة والعزلة على الأكل، لا يقرب أحدًا، ليس له أصدقاء...

تخرج من كلية الهندسة بمعدل ممتاز، لكنه في الحياة لم يكن ذكيًا، ربما أعمال أمه المشبوهة، أو ما يسمع عنها من حديث لا يرغب بسماعه يخص سمعتها، السبب وراء شخصيته المشهورة بالنفور من كل ما هو جميل حتى الورد، والأخير يقول عنه، لا فائدة منه، هو لا يؤكل!! ظلَّ يسرح بسيارته الخاصة من نوع تيوتا "كرولا" بعد أن قلبها إلى تاكسي يجول فيها شوارع بغداد، وهو يلعن الحياة وأسرته ودراسته التي لم يجنِ منها غير الفقر والفاقة بعد أن تعب من إيجاد عمل يناسب الشهادة التي حصل عليها: "بكالوريوس هندسة كهرباء".

---

* لابدة : مختفية

اقترح أهل مقبولة على مضض أن يتم الزواج في مدينتهم خلال أسبوع واحد، على أن تذهب معهم حتى يحين موعد الزواج، لكن نصير رفض بتعنت اقتراحهم الأخير، قال:

- إذا كان ولابد، سأخرج أنا من البيت وبتعهد جارنا أبي ماجد ونسيبه، لا أقرب البيت حتى يوم سفرنا إلى الناصرية ليتم الزواج هناك...

ملعون نصير هذا، استطاع أن يقنعهم بحذاقة وفطنة، وافقوا على مقترحه، خرجوا من بيتهم ولم يشربوا شايهم، تكلس سكره بداخله بعد أن برد.

••••

في اليوم الخامس قرَّر نصير حسب الاتفاق المزمع مع أهل حبيبته أن يذهب بصحبتها مع أمه وأخيه سعيد متوجهًا إلى الناصرية ليتم زواجه هناك، وفي اللحظة التي كانوا يهمون بتأجير سيارة تنقلهم إلى محطة القطارات الرئيسية في بغداد؛ خرج وراءهم آدم صائحًا:

- توقفوا، لا تذهبوا، ارجعوا، لقد تلفنوا لنا للتو، هم في طريقهم إلينا، أهل مقبولة جميعهم في الطريق، سيتم الزواج هنا في بغداد..

تفتحت أسارير نصير، رقص في الشارع، رفع أمه عاليًا في الهواء، كان لا يعرف ماذا يفعل، صرخت به أمه وهي مازالت معلقة في الهواء:

- انزلني، هيا، أقول لكَ انزلني، ماذا سيقول عني الناس؟ لقد مرغت وقاري بالتراب! انزلني..

ثم كان لنصير ما يريد، تزوج بمقبولة. لكن حياة العائلة ونظامها انقلب رأسًا على عقب. فما أن نزحت أسرة مقبولة المتكونة من الأم وبناتها الثلاث إلى بغداد وتم زواج ابنتهم؛ حتى قرروا أن يستقروا في بيت أم نصير وتكون إقامتهم دائمة باستثناء أخيهم سلام الذي رفض بإصرار السكن معهم وظل يسرح بسيارته يذرع شوارع بغداد طلبًا للرزق، وشهادته الجامعية ما برحت مكانها معلقة في الغرفة التي استأجرها لإقامته فيها وحده كعادته، تقدم به العمر ولم يتزوج، كان سلام له شاربين كثيفين مثل شوارب رجال الأمن وشعره مجعد، عينيه صغيرتين تزران الأشياء بحذر وخوف تتلصصان، طويل ورفيع وظهره مقوس قليلاً، فكان المسكين يبدو مثل عصا النداف..

• • • •

obeikandi.com

رحبت عائلة أم كمال بضيوفهم بشكل رائع، العيد له صدى طيب في النفوس، الفرح منظره يأسر القلب ويلهمه، الابتسامة لغة، من له ابتسامة جميلة يعتبر من المحظوظين، يقال عنه وسيمًا، درجة الجمال تقاس من ابتسامة الشخص، الضحكة لا تعتبر مقياسًا للحسن كالدموع، البسمة هي الإشراقة، هي الفجر عند الطلوع، والكل كانوا ينشرون بسمتهم بأريحية فائقة.

جلسوا في صالة الجلوس أول الأمر، ثم سوروا النار التي كانت ساعتها متأججة في المنقل الذي يتوسط باحة الشقة، تخمين كمال كان صحيحًا، قال سنجلس حول النار كالهنود الحمر وهم يحتفلون، اشتركت معهم عائلتين من دينهم كانوا يحتفلون بالعيد مثلهم، يسكنون غير بعيد عنهم، صاروا كتلة واحدة من الحب، يا الله، كيف يستطيع الفرح بالعيد أن يفعل كل ذلك؟ هل لهذا السبب اهتمت الأديان بالعيد وقدسته؟ تناسوا مصالحهم فجأة، أنانيتهم نامت في داخلهم بعمق لا يعرفه غير النائم في قبره، إذا كان الآس بهجة في البيت العراقي، فأيام العيد خير كالمطر وبه يتعمدون، سعادته تغمر محتفلوه نشوة، وكأنهم من جديد يولدون.

- ٧ -

رائحة الشواء انتشرت بسرعة في الأجواء، صكت عليهم، أتت على أنوفهم، جعلت نفوسهم سكرى بها، ضرب أحد أفراد العائلتين اللتين انضمتا إليهم على أوتار العود فجاء على أخرهم، هزَّ مشاعرهم، ترنموا، صفقوا كؤوسهم بعضهم ببعض، صفقت الأيادي فرحة، ارتفعت طقطقة الأصابع، يسمونها في العراق "طق إصبعين"، غنوا بصوت واحد أغاني عراقية وخليجية، لسعدون جابر وناظم الغزالي ولعبد الله رويشد الذي كانت له أغنية جديدة وقتها، مطلعها يقول: قلبي معك يا مشغل البال ملتاع.. رددوها بصوت جماعي.

عازف العود كان مقيمًا في الكويت، غنى بصوت شجي، ساعده عاصم الذي يستحق المقت، لا يهجع بلحيته غير الطويلة التي نبتت له وصبغها البياض بعد أن صاح بهم متصنعًا الأدب ولم يقدر، قفز منتصبًا وسطهم وكأنه شيطان خرج من قعر الجحيم، راقصًا، دابكًا يدق الأرض طربًا، هذه فرصته التي ينتظرها، نشوة الطرب أثناء السكر لابد منها، الرقص كذلك:

– مباركة اليد التي صنعت هذا العرق الرائع الرائق الذي يجعلنا ننسى همومنا وننتشي! ثم أردف: ماذا؟ أراكم تجلسون كالأصنام، دعونا ندبك، نرقص الهوى ❋، هيا، اللعنة على الحرب، لنعش لحظاتنا، أنا لا أريد الليلة أن أقود شيئًا، لا زوجتي ولا شاحنتي.

ضحك بتهتك، لم يرق للمحتفلين ما تلفظ به، نزل كلامه في جوفهم كسائل حارق، خزرته أنهر التي كانت تجلس بجانب وسن ومن يسارهما جلستا سارة ونداء. كانت أنهر تقفز كالقطة تساعد كمال الذي ما انقطع من خدمة الجميع ثم ترجع قافلة بجانب وسن، كمال كان فرحًا هو الآخر، أخته حدثته، نصحته، قالت له، سأعيرك كتبًا، سيكون من المتحدثين، هكذا طمئن نفسه وهدّأ من غروره، قال يخاطب ذاته رائقًا: سأصير مثلها وأفهم في كل شيء، سأجعل الفتيات يركضن ورائي مثل نجم سينمائي في هوليود، ماذا يعني، وسامتي تساعدني وما ينقصني غير الخبرة والمطالعة، ضحك، شعر بأنه سيتفوق على نفسه، شكر أنهر، قال بمكر بريء: حبيبة قلبي أنهر، فتاة رائعة تستحق الإعدام، قهقه، قال، لا، أنهر لا تستحق إلا الخير، هي إنسانة طيبة وداخلها يقطر عسل. تجاوب مع عازف العود شاب من عائلته يضرب على الدف، صاح داوود:

❋ الهوى : رقصة فلكلورية شعبية

– أرجوكم غنوا لي أنا يا طير ضيعني نصيبي لأنوار عبد الوهاب، أحب أن أسمع الأغنية بصوتكم، هيا..

وهو يكرع كأس العرق مثلما يشرب الماء، ارتفع صوت نصير ملعلعًا، يجيد الغناء الريفي العراقي بشكل جيد، جلسات سكره لا تخلوا من الغناء الريفي الذي يبكي، العراقيون تعودوا على النحيب والبكاء منذ الصغر، أمهاتهم كانت تغني لهم غناءً حزينًا كي يناموا، عندما كبروا صاروا يرددون تلك الأغاني على أنفسهم، لم يفارقوها كظلالهم.

السكير عاصم فرح لتجاوب نصير وتفاعله معه، نصير يعتبر بالنسبة له صديق الطفولة والشباب، جلساتهم في معاقرة الخمر وحفلات القمار جاءت على آخر درهم يمتلكونه، لولا سمر زوجته.. لكان عاصم اليوم متشردًا، ولولا سعيد أخيه الذي يصغره لما استطاع نصير أن يتزوج ويبتاع بيتًا يستقل فيه.. القمر أغرقهم بنوره، لم يحتاجوا إلى إنارة صالة الجلوس قبل خروجهم إلى باحة الشقة، ضوء القمر كان كافيًا، تسربل ضوءه من خلال الستائر، كان مشعًا، براقًا مثل وهج ماسة كبيرة تحت أشعة الشمس..

••••

openkandil.com

نصير لم يفارق مقبولة في جلسته، لاصقها وكأنها تنوي الهروب منه، لم يجعلها تفعل أي شيء، قال لها هامسًا:

– ابقِ بجانبي، يكفيك عمل البيت، عندما نُعزم ونُدعى لا تقومي بأي جهد، لو طلبوا منكِ شيئًا اعتذري بأي حجة، قولي لهم: أعاني الصداع مثلاً..

ضحكت مقبولة، رفعت كتفها له وهمست بدلع:

– عفية[*]، سأفعل، أبسط من هذا لا يوجد، لا توصي حريصًا على ما يملك، سأبقى بجانبك حتى نهاية الحفلة، لن أغادر مكاني..

قبّل رأسها، قال:

– هذا حب عبدو!

سألته:

– ومن عبدو هذا؟

ضحك وبدلاً من أن يرد عليها، رفع كأس العرق وكرع ما تبقى منه دفعة واحدة، شعر بحرقة في بلعومه، التقط قطعة من الخيار المملح الموجود في صحن أمامه والتهمها، شعر بنشوة عارمة تغطيه من رأسه حتى قدميه...

---

[*] عفية : أحسنت

obeikandl.com

مروان ظل يعاني مرارة الانتظار، يتحين الفرصة للاختلاء بأهر، يريد أن يكلمها، ربما يبث شجونه، أو يرسم خطة بناء مستقبله معها، تخيلات كثيرة راودت ذهنه، قال يخاطب نفسه: لقد آن الآوان أن أضع نهاية لعزوبيتي، الوحدة التي أعيشها تكاد تأتي على ما تبقى من عقلي، لابد من الحديث معها، لكن، كيف السبيل والكل يحيطونها مثل خاتم؟.

كمال أغرق وسن بأشهى المأكوت وأنعش المشروبات، لم ينقطع لحظة في تلبية رغباتها وحتى دون أن تطلب، همست لأهر:

– ماذا يفعل أخوكِ؟ لقد أحضر كل ما عندكم ووضعه أمامي! سيجعلكم تموتون جوعًا وعطشًا لو استمر بسرقتكم بهذه الطريقة..

ثم ضحكت وهي تغطي فمها بيدها البيضاء الصغيرة المنتفخة باللحم. في حين تابعت نداء حركات مجيد وحسبتها له بدقة كما تحسب الساعة السويسرية الوقت، ندغت* أختها سارة وهي تقول لها بصوت خفيض:

– هل يريد أن يجنني هذا المجيد؟

سارة لا تحب إلا نفسها، لم تسمع لها، مستفهمة:

– ماذا تقولين؟

---

* ندغت : وخزت

opelkandil.com

- أرجوكِ ركزي معي ولو للحظة، قلت مجيد يعذبني بتصرفاته غير المبالية بي!!

بنَزق جامح:

- جمدي قلبك.. لا تركضي كي لا تلهثي، ضعي في جيبكِ بعض الحجرات، اثقلي مثلي، الرجال لا يحبون المرأة التي تركض وراءهم، اجعليه هو الذي يفعل ذلك، ثم أردفت بلوم: كم مرة أعدت عليك هذا الكلام؟ ماذا أفعل، هل أزوجكِ إياه بالغصب؟ نربطه ونقول له هيا.. هذه نداء خذها وطر بها لأنها أحبتك من أول نظرة، هامت فيك منذ الثانية الأولى لرؤياك، لا تستطيع العيش بدونك.. هل يسعدكِ هذا الحل؟ ثم رنَّ صوتها المثقوب بسحر معطوب: تذكري جيدًا، أنكِ فعلت الأمر ذاته مع خطيبيك اللذين فصلا خطبتهما منك...

زمّت نداء شفتيها، غدت كئيبة كمنظر الخراب، لم يعجبها حديث أختها، ندمت لأنها فتحت قلبها لها، قال تسر ذاتها: الذنب ذنبي، أعرفها أكثر من نفسي، أنانية وتعبد نفسها كعبادتي للمال، ابتسمت بمرارة وهامت تائهة في أحلام وردية مع حبيبها مجيد تناديه بغفلتها، بلا صوت.

••••

obeikandi.com

وقف على رأسهم آدم كالقدر، كأن الأرض أخرجته من رحمها فجأة، بهتَ الجميع لوقوف شاب على رأسهم هكذا دون مقدمات، صاحت أمه:

– آدم! من أتى بك؟ كيف جئت؟ ألم نتركك في البيت؟ كانت هذه رغبتك..

– الحقيقة يا أمي هي إني وقفت في عتبة دارنا مفكرًا، هل أذهب وراءهم أم أبقى؟ لم أستطع وقتها أن أقرر، الهواء هو الذي دفعني صوبكم، هل تصدقين؟

رسم على ملامحة علامات الجد والصرامة مضيفًا كراهب منقطع للعبادة في مغارة موحشة:

– من أحب حضوري ليشكر الهواء!

ثم ألقى نظرة خاطفة لكل من حوله، اكتفى بمسحهم، وصل نظره إلى أنهر.. بدأ يطرف بسرعة، رؤيتها أربكته، تعلقت عينيه بعيناها، أخرج من عبه قلم رصاص وورقة كانت مطوية على شكل مربعات فتحها وصاح بهم بعد أن وضع على الأرض حقيبته السوداء الصغيرة التي كان يحملها على كتفه:

– لا تتحركوا، سأرسمكم بسرعة ليبقى هذا الحدث ذكرى لا تُنسى..

obeikandi.com

بدأ يخطط ويده اليمنى تصعد وتنزل ونظره يتناوب بين المحتفلين والورقة، حتى وعى على نفسه، رجع إلى حالته الطبيعية التي يعرفها الجميع، توقف عن الرسم، خطب مازحًا:

- سأكملها في ليلة أخرى، أعدكم بذلك، وعودي أسياف، إن لم تقطع تجرح...

طوى ورقته، أرجعها إلى عبه الدافئ، غرس قلمه في مكانه، ثم نبر:

- اللعنة، هي روح لو خشبة؟ القوم مجتمعون كلهم هنا إلا أنا، كيف هذا.. يا الله، أشعر بالجوع، وأسياخ اللحم هنا تتقلب على مهل كأنكم تريدون تنويمها مثل أطفال في أسرتهم الهزازة..

شق الساتر البشري، فك دائرتهم المسورة بالأجساد الجالسة الرابضة على الأرض كقطع الشطرنج، دائرة جلستهم كانت محكمة بلا طرف، شقها بدخوله، تقدم من أم كمال قبلها من رأسها وهو يسقط كلماته على مسمعها:

- هل ترضين يا خالة بهذا الظلم؟ أموت أنا من الجوع وأنتم تتلمظون بأحلى ما خلق الله من شحم ولحم!!

دنت نفسه وهفت، التقط سيخًا مليئًا باللحم محمر بشكل جيد، هو يحب اللحم المشوي بهذا الشكل، لا يقربه لو كان مازال غير محمر، يقول عنه ني، ثم يتابع، أنا لست بضبع كي آكل اللحوم وهي غير

obeikandi.com

مطبوخة، عندما تتفحم تقريبًا ويقول ساعتها، هكذا يكون شي اللحوم. حاور نفسه:

– كنت جائعًا، صرّحت بذلك دون خجل، ولماذا الخجل؟ اقتل المرء ولا تجعله جائعًا يتعذب؛ الجوع مذلة، إهانة لإنسانية الإنسان، خذ منه حريته، لكن لا تأخذ خبزه، الخبز أولاً ثم الحرية، هكذا أفهم الشرع وأصول الحياة، وكما يقال، لا تقبل شهادة من ليس في بيته طحين.

تقدم خطوتين، قبّلَ أمه، تقرب من وسن ابنة أخته وأسقط كلماته في أذنها همسًا:

– من هذه الحسناء التي تجلسين بجانبها؟ هل هذه التي حدثتيني عنها عبر الهاتف قبل ساعتين ونيف؟ لكن عينيها خضروان مازلا لم يجففان بشكل جيد!، ومع ذلك أستطيع أن أقول ستكون عصفورتي في الأيام القليلة القادمة..

وهو يغمزها بمغزى! التقط آلة العود من صاحبها، قال: هل تسمح؟ ثم أجابه قبل أن يحضن الآلة: شكرًا.. حرّكَ أوتارها، جاء بنغم جميل، عقّب صاحب العود بصوت رخيم:

– أراك تعزف بشكل جيد.

مناورًا:

- أنا! ثم تابع: أجيد العزف على الجيتار بشكل أفضل، العود يختلف، يعزف بنصف إصبع، والمحترف المبدع كمنير بشير يعزف بربع إصبع، الجيتار يعزف بإصبع كامل، أنت تعرف ذلك بالتأكيد.

أرجعه بحرص كطفل حديث الولادة، آدم يعرف قيمة الآلة الموسيقية لدى صاحبها، كالأغاني والقصائد والقصص واللوحات والكتب وغيرها.. كلها بنات وأولاد لا يتخلى عنهم صاحبها مهما حصل.. شكره وسأله بحرارة:

- ما اسمك؟

صوت الدف مازال يهلهل في الأجواء لم ينقطع نفسه..

- صالح، وأضاف: هذا ابن خالتي حاتم، نقيم في الكويت، جئنا نحتفل بالعيد مع أهلنا..

مد له يده، حيّاه، قال:

- أنا آدم، لكنني لستُ أبًا للبشر، ثم نوه: انظر له يا صالح.. لم يعر لنا أي أهمية حاتمك هذا، يدق على الدف كالمسحور لا يعلم من حوله..

اتجه إلى سمر، رحب بها وقال: قمر أم هذه الفقمة السمينة وهو يشير إلى وسن مبتسمًا تبعث لكِ السلام وتقول، مصيبتنا بأزواجنا واحدة!.

ابتسمت سمر، تفكّرت قليلاً ثم ناحت مهمهمة:

opeikandi.com

- أليسا أخوين؟ كما ترى بنفسك، عاصم لا يختلف عن أخيه حسام زوج أختك بقيد شعرة، سبحان الله، نفس النمونة*.

التفت آدم إلى الجهة الأخرى وصاح بأبي كمال الذي لم يكن منتبه لما يدور حوله:

- عيدك مبارك يا عمي، كيف حال بضاعتك؟ أرجو أن تكونا أنت والبضاعة بصحة جيدة.

رفع داوود رأسه بتراخ محاولاً التذكر أو التعرف على صاحب الصوت فلم يعرفه، ظل باهتًا يزر عينيه دون هدف، تابع آدم مستطردًا بمرح:

- عمي أبو كمال هذا تحفة ثمينة، رجل صاحب مزاج حقيقي، يعرف كيف يقدِّر الناس كما يقدِّر بضاعته. اسمعوا جميعكم: يأتينا للتسوق فيبتاع قطعتين أو بالكاد ثلاثًا من ورشتنا التي نصنع فيها الحلي بالجملة، يبقى ساعات يخاصمنا ويحاول أن يخدعنا، معذرةً، أعني يقنعنا من أجل تخفيض الأسعار، يخرج من عندنا محملاً بقطعتين ويصيح بضاعتي رائعة، لا أستطيع حملها.. يضحك ملء فيّه مترنمًا بسعادة لا توصف لأنه استطاع أن يحصل على ما يريد بسعر زهيد..

---

* النمونة : الطبائع

رجعت إلى أبو كمال ذاكرته فجأة، هلهل صوته صادحًا:

- نعم، تذكرت، أنت أخو نصير أليس كذلك؟

ضحك الجميع على مداخلته، لأن نصير يجلس معهم منذ ساعات المساء الأولى، كان يجب أن يعرف ذلك دون حاجته لمذكرات آدم اللاسعة اللعينة.

أمر سألت وسن بصوت خفيض:

- هل خالكِ هكذا على طول الخط، يضحك وينكت ويهزأ دون أن يجعل بينه وبين الآخرين حدودًا؟ ثم أردفت متابعة: هو يعرف كيف يدخل البهجة في قلوب غيره دون حاجته إلى طرق أبوابهم.

وسن أكدت ذلك، قالت:

- لولا وجود آدم في أسرتهم لأختلف أمرهم، ربما ماتوا همًا، موت أخيه الشاب سعيد شمعة بيتهم كما يقولون عنه، ترك أثرًا سيئًا على نفوسهم، كانوا ينوحون ويبكون أيامًا بلياليها، لا يطبخون الأكل ولا يقربونه، آدم غيّر مسار حزنهم، جعله أقرب إلى واقع عليهم تقبله كما هو، هتف بهم مرة صارخًا: سعيد مات، لن يرجع، لو بقيتم هكذا سنموت بعده، أمه خافت عليهم، كلماته كانت قاصفة ومؤثرة، أدخلت الرعب في قلوبهم، أخوه نصير قال آدم على حق، يجب أن نخلع ثيابنا السوداء، يكفي حزنًا، دعونا نتذكره،

obeikandi.com

نداري زوجته وولديه، هذا أكرم له.. ولم يفعل ما قاله غير خلعه لملابسه السوداء التي لم يكن يطيقها..

بعد وقفة قصيرة بلعت فيها ريقها استطردت وسن متحمسة:

– اسمعي، هو صاحب فكرة سفرهم هذه للاستجمام، أقنعهم بحذاقة، معروف عنه ذلك، لبق وله قدرة فائقة على الإقناع، دراسته وموهبته ساعدته على ذلك...

قاطعتها أمهر مستفهمة:

– وماذا يدرس؟

– السنة الثانية في كلية الطب البيطري، سيصبح طبيبًا، هو يخاف الحيوانات، أجبر على تخصصه هذا، ولهذه قصة ربما يحكيها لكِ بنفسه، اسأليه إن أردتِ، هو يعبد الفن بكل أنواعه، يحرك أوتار الجيتار بشكل رائع، يرسم كما رأيتي، يكتب القصة القصيرة، له إصدارات عديدة كثيرة ومتنوعة نشرت له في صحف ومجلات مختلفة، والأهم كانت عبادته للقراءة، مولعًا بها حد الهوس، كل ما يحصل عليه من نقود يبذرها لاقتناء تلك الكتب اللعينة، له مكتبة لا يستهان بها، أقدر عدد كتبه بالمئات.. مع الوقت وبمساعدة الروتين والظروف الراهنة أُجُبر على أن يتعلم كيف يتحدث مع الحيوانات التي يخاف منها أصلاً كما قلت، بات يكلمها وكأنه يسامر بشر مثله، لذلك، أقول ربما، أنا لست متأكدة تمامًا، رعايته للحيونات

opeikandi.com

التي لا يطيقها، تلك التي يجلس معها ساعات النهار في كليته يداريها، ينظفها ويقنعها بأن تأكل أو تأخذ الدواء جاءت بنتائج عكسية على شخصيته، جعلت منه إنسان مقتدر في فن الإقناع، هو يقول: إذا استطعت إقناع جاهل بأمر ما، تكون وكأنك أتيت بمعجزة؛ فما بالك لو أقنعت حيوانًا؟.

ثم أضافت وهي تحاول خنق صوتها:

– لا تأخذي كلامي على أنه الصواب، أرجوكِ، قد أكون على خطأ، لا أريد أن أعطي انطباعًا عن شخص دون أن تتعرفين عليه بنفسك وتحكمين عليه برؤيتك الخاصة، بعينيك أنتِ لا بعيون الآخرين..

أجابتها أنهر بحنية فائقة، غالبة على صوتها الدافئ الرحيم الرخيم:

– الحقيقة، إني لا أفكر بهذه الطريقة، أعني، لا أرغب في الوقت الحالي أن أكوّن علاقة من أي نوع مع أي شاب وبهذا الظرف بالذات، ومع ذلك أقول: صدقت يا أختي الغالية، سأتحدث إليه وأرى ومن ثم أبدي حكمي عليه لو سنحت الفرصة.. لندع كل ذلك الآن ولنستمتع بوقتنا..

ثم انتقلت إلى رند الذي لم يفارق وحدته، طوقته بذراعيها وصاحت:

– هه.. نحن هنا!

مقتضبًا:

– بوه.. ما لكِ، بابا أنا أعرف أنتِ هنا.

obeikandi.com

ثم صمت متحجرًا، بقيت بجابنه حتى انضم إليهما رامون وأنفه ينضح رائحة السجائر، يشمها المرء من بعد أمتار..

• • • •

حضر آدم بملابس بسيطة جدًا، قميص أبيض بنصف ردن، غلفه بلوزة بلا ردنين، حافة صدره على شكل رقم سبعة رصاصي اللون، غطاهما بسترة سمائية فوق بنطال جينز أزرق بلون البحر، فظهر بهيئته تلك كالهنود في لبسهم. رشيق، رفيع، طويل، بشعر طويل أسود سرح مفروق من الوسط، بؤبؤي عينيه يلمعان مثل عيني نمر أفريقي اختلط فيهما لون العسل مع الليل.

يحب البساطة، متواضع، يأخذون حقه ولا يتنفس بكلمة، قلبه أصفى من الحليب، متساهل إلى حدود الأفق مثل راهب.. لا يعرف الحقد ويعاني في ذات الوقت بأنه لا يستطيع الحب، ذلك الحب الجارف الذي يلهب عقله وقلبه، هو لم يصل إلى تلك الحالة بعد، لم يذقها أو يجربها، يقول: لا أستطيع، هناك مانع ما يعوقني من فعل ذلك..

جاء على ما تبقى في السيخ من لحم، أكله بنهم، قال وهو مازال واقفًا يخاطب نفسه رائعة عصفورتي هذه، أنوثتها تتدفق في عينيها، لها شبه كبير من الممثلة العربية إلهام شاهين، ترى هل هناك من

سبقني واستدل على هذا الشبه؟ لها سحر غريب، يجذب المرء بصمت وقوة من أذنه دون إرادة كالمغناطيس! العصفورة لا تمشي بل تقفز، هي كذلك. الملعون آدم لاحظ مشيتها عندما دخلت شقتهم لأمر ما ثم عادت بقرب وسن تسامرها، قال: العصفور لا يمشي، آدم على حق، أنها كانت لها مشية غريبة، لاحظ مشيتها وكأنها تقفز مثل العصفورة، تابع مترنمًا حالمًا: سأصيدها، من الصعب صيد العصفور، لكنني سأصيدها بطريقتي الخاصة، لا شيء يصعب عليّ، أنا آدم جد البشر، نبيهم كما يدّعون، إذن أقدر على صيدها!..

ثم غير مسار حديثه الهامس: أنا لم أتِ من أجلها، لي في بغداد أكثر من صديقة، جمالهن ينافس جمال هذه العصفورة، خاصةً إخلاص، ألم تفز بلقب ملكة جمال مدرستها؟ الملعونة وعدتني أن تأتي هذا المساء وخلفت وعدها، اللعنة على نسل حواء عندما يعدن الرجال ويخلفن وعودهن، بقيت أتعذب بوحدتي، لم أتحمل، وقبل أن أطق أخذت نفسي وأتيت، وسن قالت لي بصريح العبارة، ستجد ما يسعد قلبك هنا!.

كنت أمزح عندما قلت، ستكون هذه لي.. أنا لا أفكر بهذه الطريقة، الأنثى إنسانة راقية ورقيقة، الجسد ربما ثالث ما أفكر به، جمال الأخلاق لا يقل في عرفي عن جمال الجسد، الفكر له مكان

openkandil.com

كبير في حيز عقلي عندما أختار، المرأة يجب أن تكون مفكرة وعاملة في ذات الوقت، وإلا كيف ستبني الأسرة وهي جاهلة؟ مواهبها وتطلعاتها يجب أن يكون لهما حضور، تناقشني وتجادلني وتأتي عليّ لو أخطأت، تثني على عملي لو أفلحت، هكذا أحب المرأة، إخلاص ليست من ديني...

انفعل عندما ردد كلمة الدين بينه وبين نفسه وكأنه تذكر شيئًا قاسيًا يؤلمه: يا رب العباد.. لماذا جعلتنا أقوام وشعوب؟ ونثرت فينا أديان حوّلها الإنسان أسباب لحروب؟! انتبه، شعر بأنه تمادى في مناداته لله، رجع إلى ما كان يفكر به وتابع مناجاته: لا أنكر إعجابي بها، لكنني في نفس الوقت صادق معها، لم أخدعها، قلت لها: أنا لست من دينك، صداقة، نبقى أصدقاء، لو رضيت فبها حرة أنتِ، اختارت الصداقة، لم أمس شرفها، سمعتها كسمعة وسن كسمعتي، كنا بحاجة مشتركة كشباب نكون مع بعض في أوقات العصاري، نذهب إلى السينما، نتعشى، نزور متاحف الرسم، نحضر مسرحيات أكاديمية الفنون الجميلة التي يقوم ببطولتها الطلاب أنفسهم في مراحلهم الدراسية الأخيرة، أغلب مسرحيات شكسبير حضرناها هناك معًا واستمتعنا بمشاهدها.

obeikandi.com

كانت الدعوة تصله من صديقه عماد، ذلك الشاب الأشقر الذي أكمل الإعدادية معه. قدما طلبًا للدخول إلى أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد، قُبل عماد بقسم الصوتية والبصرية وآدم رفض طلبه، لم يُقبل رغم معدله العالي الذي أدخله كلية الطب البيطري، رفضوه لأنه لم ينتمِ إلى صفوف الحزب الحاكم، هذه كانت مأساة حقيقة، الدولة لا تساعد الموهوب لكي يبدع في حياته المهنية الفنية إلا إذا كان عضوًا في صفوف حزبهم.

آدم كانت له نظرة مختلفة في الأحزاب، لا يحبها ولا يطيق السياسة، يقول عن الأخيرة قحبة، لا تعرف في حياتها غير ممارسة نفس العادة كل يوم، يصفها مثل ما يصف الرجل الخائن، يعتبر السياسة لعبة السحرة والمشعوذون الذين لا دين لهم، هذا رأيه، انطباعه الخاص، لذلك لم ينتمِ إلى صفوف حزبهم رغم مضايقاتهم له أيام دراسته، خاصة في الجامعة.. بعدها قرر أن يدرس أي شيء، لم يهمه بعد رفضهم ماذا يدرس، قال، إلى الجحيم، ما أريده لم أحصل عليه، إذن لا يهم ماذا سأدرس، قُبل في كلية الطب البيطري وهناك مارس نشاطه الفني! عمل ثلاثة معارض فنية تشكيلية للرسم، رفض بشكل غير مباشر أن يرسم الكايزر العراقي، قال، أنا لا أعرف أن أرسم الوجوه، الرسم مسؤولية، وهكذا تملص من طلب اتحاد

oneikanal.com

الطلبة المدعوم من الحزب والذي يعمل لحسابهم طبعًا، مراقبتهم له لم تنته، مارسوا معه الحيلة، الضغط، الإغراء من قبل بعض الطالبات اللاتي يعملن معهم، لم يتورط ولم يتزعزع عن رأيه، بقي مستقلاً بأفكاره ولم ينتمِ..

هم يعرفون بأنه على غير دينهم، ويعرفون بأن هناك الكثير من ملته انتموا إلى صفوف الحزب الشيوعي العراقي سرًا.. لكنهم لم يستطيعوا أن يمسكوا عليه أي زلة توقعه في براثينهم التي تشبه مخالب الصقر، وهذه هي الحقيقة، كان شابًا مسالمًا لا ضرر منه ولا شر يتوقعون منه حدوثه.. فتركوه يعيش تحت المراقبة البريئة فقط!.

استمر في تأمله: لا أنكر أني قبَّلت إخلاص؛ وفي أكثر من مناسبة، كان ذلك بإرادتها، لكنني كنت حريصًا جدًا على أن أبقي حاجزًا بيننا لم أعبره مطلقًا طوال عامين من علاقتنا، ربما لذلك تعلقت بي، لأنها وثقت بي وصدقتني، الثقة شيء مقدس مثل الإيمان بالرب، لا يمكن الكذب عليه، الرب لا يجبر أحدًا على حبه، الثقة كذلك، يجب أن تكون خارجة من نفس صافية، صادقة وأمينة.. إخلاص وجدت ذلك في شخصي، أنا هكذا، عصفورتي هذه صاحبة العينين الخضراوين ستكتشف ذلك لو سنحت لنا فرصة اللقاء، ستعرف أن لي وجه واحد وليس عشرة..

obeikandi.com

دارت كل هذه الخيالات في ذهنه، طرقها دون إذن، جاءت بلا نداء، أضاف: يا إلهي، وهو يسهب النظر إلى أنهر بطرف خفي، الحقيقة يجب أن تقال، إنها على ما يبدو ألق من سعادة لا ينضب، حماها الله لشبابها، نبع عميق يروي مدينة بكاملها، فجر، نهار، ليل يا الله سيشد عقلي، سأجن، من تكون هذه العصفورة؟ أرجو أن لا تكون عين وأصابتني؟ فاجأته أمه بسؤاله، قطعت عليه خيط أفكاره:

- كيف عرفت بمكاننا؟

وجم ثم قال:

- وسن أخبرتي بموعد جلستكم وأعطتني رقم الشقة، لم أكذب خبرًا، أخذت نفسي وأتيت لكم مشتاقًا..

بلسان ثقيل هجم عليه عاصم كالتنين:

- تبدو وكأنك ساحر يا هذا! نزلت علينا كالقضاء المقدر، قَلبت جلستنا وحولتها إلى ساحة من الفكاهة والترق..

سكت ثم شهق.. أجابه متهكمًا ساخرًا وهو يخزره:

- يقال، إذا أردت أن تكون ساحرًا عليك أولاً أن تصاب بلوثة عصبية، وأنا مازلت أنتظر..

نبر عاصم مقاطعًا:

- وماذا تنتظر؟

- اللوثة العصبية التي أتوق الإصابة بها.. وربما بعد أن أتم حديثي معك سأصاب بها!.

طرقعت الضحكات من الجالسين المحتفلين، أضاف آدم وهو مازال يخزره:

- من لا يخاف الله علينا أن نخافه، غالبًا ما تكون مصيبة الإنسان في أنه لا ينظر إلا بعد أن يفارق الحياة!.

وبدلاً من أن يترعج عاصم بدأ يضحك بتهتك. أنهر استأنست حديث آدم، أعُجبت بوصفه وجرأته ولباقته واسترساله، لها طبائع تتشابه مع ما يحمله آدم، شعرت بقوى خفية تجذبها إليه، عقلها يقول لا، وقلبها يخفق بسرعة، اقتربت من وسن وسألتها:

- كم عمره؟.

- اثنان وعشرون سنة.

أجابتها وهي تغمز، ابتسمت أنهر، لكنها لم تتجاوز في تفكيرها، لم يقع نظرها عليه، هي لا تفكر بسطحية، تقول، الرجل يجب أن يكون عالمًا ومتعلمًا، موهوبًا ومبدعًا، هذا ما يحببني ويجذبني في الرجل، جماله يأتي بالمرتبة الخامسة ربما، وفائه، صدقه، كلامه، تفكيره ومنطقه في الحياة واحترامه للمرأة أمور تأتي بالمرتبة الأولى في ناموسي، ثم تأتي الوسامة.. بقيت تستمتع بحفلة الشي، تتحدث مع

الآخرين، تضحك، تبتسم، تنكت وتقول خوش.. متنقلة بين رند ورامون ووسن وما انقطعت من مساعدة كمال طوال الوقت...

• • • •

الإنسان لن يتغير، أيام العيد ليست طلاسم سحر، ما أن تنشرها على الناس حتى تراهم من ضغائنهم ينظفون، وداخلهم بالحب والسلام يغسلون، رغم فرحهم وانعتاقهم تحت تأثير نشوة وسعادة ومرح العيد، إلا أنهم ما أن يعوا على أنفسهم حتى تتحفز شياطينهم اللعينة، تستيقظ نشطة، لا تريد ولا تسعى إلا لممارسة عملها في خدمة الشر! تظهر بشاعتهم التي حاولوا أن يخفوها تحت جلودهم فلم يفلحوا، أنانيتهم طافت على السطح مجددًا، فارت في نفوسهم الغيرة، الحسد كان الصوت الوحيد الذي تسمعه، الصادر من ضمائرهم والرغبة في اقتراف الخطيئة كان في أشده، هذا ما حصل بالضبط.

سارة لم يلق لها آدم بالاً، شعرت بغيرة تحرق داخلها وتنهش لحمها، أحست أن أنهر ستكون محط إعجابه، سارة لا تقبل ولا تعترف بهذا المنطق، الرجال يجب أن ينظرون لها، ويعجبون بها وحدها! نداء كان لها نفس الانطباع، تضايقت من وجود آدم وسطهم رغم براءته

وإضافته جو من السرور واليقظة على جلستهم، كان محاورًا نظيفًا لا يخدش حياءً أو يغبن دمعة، همست نداء بأذن سارة بترنيمة استنكار إبليسية بعد أن مالت إليها:

– لماذا هذا هنا؟ على ما يبدو سيسبب لنا متاعب لا حصر لها، هل رأيتِ كيف ينظر إلى أختك بطرف خفي، أنا لاحظته، لم يغب عني لحظة، مغرور ويرى نفسه شيئًا، على ماذا؟ سمار بشرته؟ كأنه هندي في شعره الطويل الذي يشبه ذيل الحصان وثيابه الغريبة التي وضعها على كتفه وصدره كيفما اتفق كثياب الحمالين، لا أعرف كيف بدت أنهر مبهورة به وبطلعته المشؤومة هذه!.

مروان شاركهم الشرب، ظل يمج بالشرب ويكرع منه بسرعة، شرب كثيرًا على غير عادته، خلط في شربه، بدأ بالويسكي ثم العرق وبعد أن التهب وشعر بحرقة في معدته، جاء على البيرة المثلجة، هو لا يتحمل الشرب الكثير، لو سكر يترنح ثم ينام، لا يعلم بعدها من أمره شيئًا، لكنه ظل هذه الليلة يقظًا، يراقب أخيه ويتحسر بنظراته على أنهر، انزعج من وجود آدم وسطهم، قال في سره: ما الذي أتى به؟ لماذا لا يرجع؟ أشعر بالتعاسة، حظي ليس مثل حظه!، هو شخص موهوب منذ صغره، حكيم، له قابلية فذة في التعامل مع الآخرين، يستطيع إقناعهم بما يريد بسهولة كما

يشرب الماء، سيوقع أنهر في حبه، أنا متأكد من ذلك، ساحر لا يصعب عليه شيء، فما بالك بهذه البريئة..

كان ينظر إلى أنهر، فتزداد حيرته ويزداد وجومه وشروده، لم يجد ساعتها من منقذ أمامه غير الشرب، نهبه الشرب، شرب بلا وعي، صاح به نصير أن يكف عن الشرب، أن يذهب لينام، وبدلاً من ينفذ ما أراده أخوه الكبير أشعل سيجارة وظل يبلع دخانها بمرارة وحرقة، وما برح يخاطب نفسه: لأحرق أي شيء، أفضل من أن أحرق نفسي.. المسكين لم يعرف بأنه قد احترق قبل أن يشعل سيجارته، تحول إلى رماد رصاصي مفتت لا يقوى على مجابهة الريح البسيط، قبل أن تتحول سيجارته إلى رماد أبيض لا فائدة ترجى منه بعد ذلك..

غرق في بحر من الغيرة، الحسد أكل قلبه، تمنى من أعماقه لو يختفي أخيه! خاف أن ينافسه، أنانيته غشت عينيه وعقله، لماذا تكون الغيرة في أشدها وربما الحسد كذلك من المقربين إليك؟ لماذا الغريب لا تشعر بأن عينيه عليك؟ القريب يطق لو شعر بأنك تتقدمه أو لك ميول أو مواهب هو لا يمتلكها، ليس الجميع يفكرون بهذه الطريقة لكن الأغلبية هكذا للأسف، وكما يقال احذر الصديق قبل العدو والحمى تأتي من الرجلين لا من الرأس، القريب ينطبق عليه هذا المثل...

مروان تمنى لو لم يأتِ أخوة، آدم لم يزاحمه في شيء، بل لم يكن في باله أبهر ولا غيرها، لو صارحه مروان بما يضمره قلبه، لطمئنه قائلاً: أخي الحبيب، قرر وعلى بركة الله، سأكون أول من يرقص في عرسك، لكن مروان لا يحمل قلب كقلب آدم، الأخير له شبه كبير من أبهر، أنانيته على قدر حاله، غير واضحة، ليست طاغية على تصرفاته، يعطي أكثر مما يأخذ، هو سعيد بما يفعل..

مجيد اكتفى بكأس من عصير البرتقال المثلج قدمته له نداء، قال يحاور نفسه: لأتحدث مع سارة كي أشعل نار الغيرة في قلبها، تقدم لي العصير وكأنه رشوة!، هذا الأمر يروق لي كثيرًا، أنا أفهم عالم المرأة جيدًا، ابتعد عنها تركض وراءك طالبة وصالك، اقترب منها ترفسك، ضحك لوصفه الأخير، صحح الجملة، المرأة ليست حصانًا حتى ترفس، لم أقصد ذلك، شكر نفسه، قال: عفية يا مجيد، هكذا يكون الجنتلمان، عندما يخطئ يعتذر، يُصحح خطأهُ، اقترب من سارة ورحب بها:

– مساء الخير!

ضحكتها سبقت كلماتها، شعرت بأن فرصتها آتية لمضايقة نداء، قالت تخاطب نفسها: سأجعلها تذوب حرقة، تتعذب وهي تنظر لنا كيف نتحدث، ثم رنت بصوتها ذاك:

– صباح الخير!

سألها متخابثًا لمعرفته الأكيدة بغرورها وأنانيتها المفرطة:

– قالت لي نداء إنكِ تعملين في استعلامات دار الإذاعة والتلفزيون، هذا يعني بأنك تلتقين بأغلب الفنانين هناك – مطَّ كلماته ليعطيها بُعدًا أو تأثيرًا أكبر – تُرى، من أثار فضولك أكثر من غيره؟.

تنحنحت، عدلت من جلستها، رفعت رأسها إلى الأعلى قليلاً، هزت كتفيها، ثم نطقت:

– لا أحد يستطيع الدخول أو الخروج إلا بأمري، معاينة هويته أولاً، في إحدى المرات صادفني المطرب الكبير (ي. خ.) يريد الدخول إلى مبنى الإذاعة، رفعت صوتيَ الجميل الذي تعرفه، وقلت له: هويتك! انتكس الرجل لحظتها، أحسست به، شعوره الداخلي طغى على وجهه، امتعض، لم يعجبه سؤالي ولا طريقة كلامي، قال:

– صوتيَ وحده هويتي، يعرفني الناس منه، ألا يكفي هذا؟

رقصت في رأسي شياطين الجن كلها ساعتها:

– معذرة، هذه التعليمات تطبق وتسري على الجميع. وسكتُ أنتظر رد فعله.. حتى لعلع صوته الحنون: يا حسافة على الدنيا.. وأضاف متكدرًا: من قلة الخيول شدت على الكلاب سروج.. ثم أخرج هويته من عبه تلك التي لم انظر بها، سمحت له بالدخول، أردت مشاكسته فقط، هو فنان كبير، شعر بإهانة لا تغتفر لشخصه، لكن لمن تقول ذلك، اللوائح تقول هذا، كنت أتحكم في الفنانين بهذه

obeikandi.com

الطريقة الشنيعة المخجلة وأحرجهم، حتى مرات لا يحملون هوياهم معهم، ينسوها، هم جبلوا على غير طباعنا، مبدعون ولا يفكرون مثلنا، أنا أعرف ذلك جيدًا، لكن، المسؤول يقول لي بصريح العبارة: يجب أن نفعل ذلك، لابد من مضايقتهم، لماذا؟ لا تسألني.. هذه هي التعليمات الصادرة!.

انبهر مجيد من صراحة سارة، قالت له أشياء غاية في الخطورة، هي لا تقول ذلك لأي شخص، خصته بها، سارة نجحت، وصلت إلى هدفها، أشعلت في قلب أختها نار الغيرة، جعلتها تتلوى كأسياخ اللحم على الجمر، تتحسر، تنظر لهما ومرجلها يكاد ينفجر، فارت نداء في مكانها كقدر ماء على النار.. قامت من محلها، جلست وسطهما عنوة بعد أن رأت سارة وهي تقترب كثيرًا من مجيد حد التلامس وهي ترسم ابتسامة بلا معنى على وجهها الأسمر الطافح بالحبيبات، ثم بتلكؤ:

- عن ماذا تتهامسان؟

انطلقت منهما ضحكة مدوية جاءت على صوت العود فتراجع الأخير مستسلمًا.. نهضت وسن ووقفت بجانب آدم تسأله بعد أن غادر حلقة الجالسين منفردًا ملتهي بالأكل والشرب:

- ما رأيك بأنهر؟

بثقة:

- هذه عصفورتي. سأحرص عليها كما أحرص على بؤبؤ عيني، ستكون لي دون منازع.

- وماذا تنتظر؟

- الانتظار حدث يحتضر في زمن لا يسعى إلا للجري، والصبر في عرف الحاضر همس لا يسمع له صوت!

أفحمها برده، وسن لم تفهم شيئًا مما قاله لها، سألته بامتعاض مستفهمة:

- ماذا تقصد من كل هذا؟

- سأفتح سجون فكري، سأكسر قضبانها، سأزيل عني عصبة ذهني، لابد لي من رؤية الحقيقة، أنهر حقيقتي منذ الليلة التي سأعيش من أجلها.. وأضاف مبتسمًا: هل فهمتي الآن يا جاسوستي الرائعة؟ والآن دعينا من هذا كله، لنتسلل إلى الفندق، أريدكِ لأمر مهم، لا أحد يستطيع مساعدتي إلا أنت..

وقبل أن يتسحبا خفية رأتهما أمه، صاحت بهما:

- إلى أين في هذا الليل؟

- سنذهب يا أمي إلى فندق المنتجع لعمل مكالمة مستعجلة إلى بغداد ثم نذهب إلى الشقة.

تمنى للجميع ليلة سعيدة.. انفجر صوت نداء وهي تنظر إلى مجيد بمعنى:

obeikandl.com

- هل نراكم يوم غد لنلعب معًا الكرة؟

أجابتها وسن:

- متى؟.

- العاشرة، هل الوقت مناسب؟

آدم صاح:

- سنكون هناك عند الملعب بانتظار الجميع وسنلعب مع من يحضر.. إلى الغد إذن..

تدخلت أنهر برقة:

- كيف يعني إلى الغد؟ الغد هو يومنا هذا، ثم عقبت بتحرش: انظر إلى ساعتك؟

دون أن ينظر إلى ساعته اليابانية من نوع "ستزن" الأتوماتيكية التي ابتاعها له مجيد بطلب منه بعد أن أعطاه وقتها تسعة وعشرين دينارًا، وقال له اشتري لي ساعة على ذوقك، مجيد لم يكذب خبرًا، أضاف من جيبه دينارين واشترى لأخيه تلك الساعة التي تحطمت بعد عشرين عامًا عندما تشاجر آدم مع رجل إيراني، سقطت على الأرض وتحطمت.. عندما نوهت أنهر على الوقت، كان هو يعرف بأن الساعة لم تحن بعد الثانية عشرة، إذن الغد مازال ينتظر، رد عليها بثقة:

obeikandi.com

- أنتِ لا تهتمين إلى الوقت، لا تتقلدين ساعة، ثم غير مسار تهجمه: الزمن في عرفي كالنبض لقلبي، أهتم به كثيرًا وأحسبه بدقة متناهية.

آدم أفحمها بقوله الأخير، حزر طبيعتها بسهولة، عرف من قبل مشيتها والآن يقول لها، إنكِ لا تعيرين للزمن أهمية، كان على حق، أبهر تعرف ذلك، بهتت من فراسته وقوة ملاحظته. الدم صعد إلى وجه مروان، تقهقر الأخير، قال مخاطبًا نفسه: ملعون آدم هذا، بنظرة يستطيع أن يأتي على غريمه، هو لا يحتاج إلى الكلام الكثير، عيناه تكفي، يفعلان له ما لا ينطق به لسانه. وسن همست بأذنه:

- لا أحد يقدر على أبهر إلا أنت يا آدم، لكن كن خفيفًا معها، لا تسلط لعناتك عليها دفعة واحدة، هي أرق من أن تلمسها نار لعناتك، ألا ترى، فراشة ملونة هي، ما أحلاها، سبحان من خلقها، ثم حسمت خطبتها: ارحمها، تكفي نظراتك..

تخفيا كاللصوص منسحبين بين ممرات وباحات الشقق التي اصطبغت بلون الليل، وهما متجهان إلى فندق المنتجع الذي لا تقفل أبوابه أبدًا. همس آدم كالحالم بكلمات تنقذ الروح من قلق الشكوك:

- انظري يا وسن..

- انظر إلى ماذا؟

وهي تتلفت حول نفسها كالتائه.. كشاعر في لحظة تجلٍ:

– إلى هذا يا وسن.. ألا تنظرين؟ ما أسمى وأروع عدل الظلام..

قاطعته وسن بحدة:

– عدل الظلام؟

استمر آدم في مناجاته دون أن يعير لمداخلتها أهمية واصفًا ما كان يشعر به وجدانه:

– نعم يا ابنة أختي الغالية، عدل الظلام عندما يطبق على الأرض وما تحمل على صدرها يحولها إلى جسد واحد دون تفرقة، بلا امتياز أو شاره، لن يتعرف المرء تحت جنح الظلام الدامس على الغرور أو التكبر، ولا على الفقير والغني، ولا على العاقل والمجنون، تتساوى حظوظ الناس، يصبح الجميع عبيد الله بعد أن تصطبغ الأشياء بلون واحد، ليس هناك من قوة أو جبروت على الأرض تستطيع زحزحته من مكانه إلا واجده سبحانه وتعالى..

وقبل أن يصلا الفندق المطل على شاطي البحيرة، سألها بنشوة مترنمًا:

– هل تسمعين؟

– أسمع ماذا؟ أنا لا أسمع إلا صوتك يا خالي الوقور؟

– يا الله.. كيف لا تسمعين؟ ما أجمل وأروع صوته.. استرقي السمع.. هل تسمعين الآن؟ وأضاف متابعًا: مقطوعة موسيقية من مقطوعات باخ العظيم، صوت الموج الراخي، له شبه كبير بألحان

ذلك الفذ الموسيقي الذي دوّخ العالم بموسيقاه، التي تشبه هذا الصوت الرقراق الذي يحاكي رمل الشاطئ بوداعة.. برقة نجهل أسرارها، تلاعبه، تلامسه، وترجع جذلة سعيدة إلى ديارها.. الأمواج لا تتعب، شوقها يغلبها، ترجع إلى الشاطئ، تحتضن رمله، تقبله، تدخل تلافيفه برغبتها، تريد أن تنام ولو لعشر من ثانية بين حناياه، تتوق لفعل ذلك وهذا اللقاء السرمدي الذي لا يعرفه ربما غير الشعراء عندما يلتقون بمن يحبون..

وسن ارتاحت لكلامه، شعرت بالسكينة تعمر داخلها، قالت تسر ذاتها متمنية مبهورة رغم عدم فهمها الكامل لما كان يقول، أن يستمر حديثه معها في وصف الليل والسكون، وصوت الموج الذي يرخ أهدابه عندما يُقبل رمل الشاطئ ثم يرجع فرحًا لانتصاره بنشوة عارمة تجعله يرد له مجددًا وبنفس الشبق، تتمنى أن يبث شجونه تلك على نفس الوتيرة، ألا يصمت، أن يبقى يسترسل في هوسه، في جنونه، في فضح مشاعره حتى وقت متأخر من الليل..

هي لم تصارحه بما كان داخلها يجول، كانت تسر نفسها فقط، تخجل لو طلبت منه ذلك، الفتاة الشرقية بعمر وسن ومع أقرب الناس لها لا تصرح ما تنطق به مشاعرها، هي لا تدرك هذه الحقيقة، بل، لا تقف عندها، تكذب لو واجهتها، تراوغ وتزوغ من

النقاش، تتمنى، لكنها لا تصرح بما ترغب إلا ما ندر وشذ، تجد ذلك عيبًا، خطيئة ربما لن تغتفر..

آدم لم يسمع نداءاتها ولا همسها، واصلا السير.. في هذه اللحظات ظهر لهما الفندق بأبهة عظيمة، كان باب الفندق الزجاجي الدائري يدور، دخلا في إحدى مثلثاته الأربعة ليجدا أنفسهما في صالة الفندق، انبهرا بوجود حشد كبير من المقيمين فيها، البار لم يغلق، مازال ساهدًا يقدم خدماته إلى زبائنه، الإنارة ساطعة والأجواء كانت تنعش وكأن النهار مازال يسطع بشمسه، سحبها من يدها وتلاصقا بجانب الهاتف العمومي وقال:

– هذا هو.. رفع السماعة وقدمها لها، اتصلي بإخلاص كما في كل مرة، قولي لمن يتحدث لكِ، صديقتها وأحتاجها لأمر مهم، اعتذري لو خرج أحد غيرها، خذي حذرك، نبيهة مثل خالك، أخبريهم إنها مسألة مهمة تتعلق بمادة امتحان يوم السبت، عندما ينادون عليها، أكون أنا مستعدًا لإدارة الدفة..

صاحت وهي تضحك:

– جني أزرق لا يقدر عليه أحد.

obeikandl.com

- ٨ -

أعطته سماعة الهاتف وتنحت جانبًا.. سألها مندفعًا:

- كيف حالك؟ وأضاف بشغف: ماذا تفعلين عندك؟

بتهكم:

- كيف يعني ماذا أفعل؟ أتحدث معك طبعًا، ثم همست بتأثر صادق: اشتقتُ إليك كثيرًا، يا ليتك لم تسافر، أُجبرت على عدم الحضور، لم أتوقع أن يأتي أخي من الجبهة فجأة، أربكني قدومه المفاجأة، لكنه وبعد أن استحم وتعشى، خرج مع أصدقائه وقال: لن أرجع إلا عند الفجر، فتذكرتك، ندمت لأني تعجلت برفضي وبقرار موافقتي على سفرك، أعتذر منك يا كنزي الثمين، ثم صاحت: هل أستطيع أن أقول شيئًا؟

- ماذا؟

- أحبك.. ثم نوهت وداخلها يتهشم كزجاج ارتطم بصخرة: لقد أحببتك أكثر من أمي! لماذا لا تريد أن تصدق؟..

لفهما السكوت، غرقا بصمتهما.. بعد فترة لا يعلمان طولها نبرت متوجعة وكأنها في حالة شبق لم يصل إلى ذروته:

obeikandi.com

- أرجو لك وقت طيب مع أهلك، تمتع، انسَ، لا تفكر بشيء، هذا عيدكم، من حقك أن تفعل كل ما يدخل المسرة إلى قلبك، تذكرني...

ثم شهقت بالبكاء.. حاول تهدأتها:

- ولماذا البكاء؟ ألم نتفق؟ أنتِ تعرفين يا إخلاص كم أودّك وأعزّك، لكنني لا أستطيع حيال ديني شيئًا، هذا قدري، ربما قدرنا نحن معًا، الدين ليس عبادة فقط، بل تجمع اجتماعي ورابط رحم، هو الذي يحدد الفرد، يقول له قف هذا حدك.. لو كنت سيئًا لوافقت، لقلت لك نهرب، نسافر، نتزوج، ندع ديانتينا على جنب ونتزوج، الموضوع سوف لن ينتهي عند هذا الحد، سيخرج لنا ألف موضوع.. الأولاد، الأهل، مشاكلنا لو ظهرت على السطح، الأصدقاء، بل ماذا نقول لأنفسنا يوم نواجه طقوسنا؟ كيف نتدبرها؟ ماذا عن دين أولادنا، ماذا سيكون؟ وأمور كثيرة لا حصر لها، لذلك أقول، كلا، لن أستطيع، لا أجاريك في مشاعرك وهذا ما قلته لكِ منذ اليوم الأول لتعارفنا.. أليس كذلك؟

وأضاف مندفعًا:

- اسمعي سأسركِ شيئًا أليمًا يحز في نفسي كما تحز السكين الحادة قطعة لحم، منذ أكثر من سبعة عشر عامًا تقريبًا، كنت وقتها في حدود الخامسة أو ما يقارب، حدثت كارثة رهيبة زلزلت بيتنا

وهدمت فيه أقوى أركانه، لم أكن أعي وقتها ما كان يحدث، لكنني كرهت مسببها، وأزدادُ مقتًا كلما رأيت أمي تبكي بحرقة لم أعهدها، ولاحظت مكوث أبي وأخي نصير في البيت بشكل ملفت للنظر، لم يسبق لهما لازما البيت فترة طويلة، يتحدثان بهمس مقهور مع عمي وابنه الكبير اللذان لازما العائلة أكثر من أسبوع بوجود ابن خالتي نديم الذي نحبه حبًا لا يوصف، ثم حدث ما لم يتوقعه أحد على الإطلاق، أنا لا أريد أن أكرر نفس المأساة، الجريمة التي اقترفتها أختي عندما تزوجت بإصرار لا مثيل له بمن تحب، كان على غير دينها مثلك، نبذها عائلتنا، لم يسألوا فيها أكثر من سبعة عشر عامًا، حاولت أختي مرارًا الاعتذار منهم دون فائدة، جعلت من يتدخل لمساعدتها كي يتوسط بينها وبين أهلنا ولم يقتنعوا، مات أبي حزنًا وخزيًا، تقيأ دمًا وهو جالس على السرير يتوسط أمي وأخي نصير وبحضور أخيه وابنه ونديم بعد أسبوع من فرارها مع من تحب، غياب أبي المفاجئ عنا ترك فينا فراغ عاطفي ومعنوي لا يطاق، ولا يمكن تحمله بسهولة، ابنته قضت عليه بتصرفها الأناني البشع البغيض، لم تمهله عمر أطول كي يعيشه مع أسرته، أنانيتها فاقت كل تصور، محاولاتها الفاشلة فيما بعد للرجوع إلى حظيرتنا الدينية والأسرية سبب لها هوس قاسٍ، ألم لا يحتمل، فبقيت وحيدة تخور مثل بقرة مريضة في حقل موحش.

توقف لبرهة، تحسر بآهة مسموعة ذبيحة تقطر ألمًا، ثم سألها بلوعة:

– هل فهمتِ سبب امتناعي وصدودي؟ أرجو أن تقتنعي بما قلته، ففيه مصلحتنا معًا وتكمن راحتنا وربما سعادتنا أيضًا.

من خلف دموعها نبرت:

– أنت لن تتركني؟

– لأنني أعزّك سأتركك، لابد من نسياني، أن تتعرفي على شاب من دينك، تحبينه وتتزوجيه.. هكذا فقط يرتاح ضميري..

كطفلة لا تريد إلا ما ترغب:

– لكنني أحبك أنت، لا أريد غيرك، لا يهمني شيء في الحياة سواك.. لماذا لا تريد أن تفهم، ثم ناحت: قل إنك تحبني كما أحبك!

– أعزّك أكثر من أي شخص آخر، أنا لا أحب أن أكذب عليك، لا يعجبني أن أقول شيئًا لا أشعر به، الحب الذي تمتلكينه لي أفتقده أنا، أتعذب لذلك، لكني صادق معكِ وهذا يكفيني.. بعد توقف قصير أضاف: اسمعي يا عزيزتي، هذه المكالمة ستكون آخر ما بيننا، لن اتصل بكِ مرة أخرى، سأبدأ من الليلة محاولاً العيش بدونك، هذا من صالحكِ حتى لو كان قراري قاسيًا ويجعلك تتألمين، سأتألم أنا أيضًا، سأحُرم من رؤيتك، ربما سيجعلني ذلك تعيسًا، لكنني سأكون ساعتها مرتاح الضمير.. أرجو لكِ التوفيق والسعادة مع من ستختارين.

obeikandi.com

أغلق الخط، كان هذا كافيًا لسقوط دموعه على خديه، لم يشعر إلا وهو ينشج ببكاء صامت لاحظته وسن ولم تتدخل.. أمسكت يده وقالت: هيا بنا.. الوقت قد تأخر، أنت متعب إلى درجة الإغماء..

••••

انقطع الخط وبكاء إخلاص لم ينقطع، تحول إلى نحيب متواصل ثم إلى شهقات، تفتت قلبها، شعرت بعجز كامل حيال إقناع آدم فيما تحب أن يكون، آدم كان صادقًا معها منذ اليوم الأول، مازال ذلك اليوم حاضرًا معه، لم ينسه، كان الوقت عصرًا، الحرب في سنتها السابعة، جالسًا في متجره الصغير الذي يشبه الكهف، يقع على ناصية ميدان جميلة بجانب الرصافة، استأجره مع زميل الدراسة الذي تعرف عليه منذ عهد الثالث المتوسط، تطورت علاقته معه بمرور الوقت، تحولت الزمالة إلى صداقة أخوية حميمة، تلازما وتكاتفا على أمور الحياة، تبادلا الآراء في كل صغيرة وكبيرة، تعاضدا على الخير والشر، في السراء والضراء.

جبار كان شابًا أسمرًا، قصيرًا وبدينًا، لا يغلبه في الرياضيات أحد، يعتبر شخص مكشوف لآدم كالمرآة، ما أن تنظر لها حتى ترى صورتك فيها.. آدم لا يحتاج إلى جهد لكي يعرف ما يفكر به

obeikandi.com

صديقه، إذ ما أن ينظر في عينيه الهادئتين اللتين لهما لون اللوز حتى يحزر ما يخبئه جبار دون جهد يذكر، ربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلت الأخير يتعلق بآدم لفراسته ومعرفته الرائعة في دخائل النفوس.. فهيم بمساعدة الآخرين على أساس رؤاه.. قبل أن يتعرف على آدم، حسب نفسه من الأموات، آدم أحيا فيه نبض الحياة، جعله ينظر إلى الناس بعينين مختلفتين كما الأشياء التي تحيطه، انبهر به فلازمه وأحاطه كما يحيط الحزام الخصر.

تخرجا من الإعدادية في نفس العام، منَّ الله عليهما بأن لا يفترقا، فقُبل جبار في كلية الزراعة جامعة بغداد، في حين انخرط آدم في سلك لم يكن يحلم به من قبل مطلقًا، عالم الحيوان، كلية الطب البيطري التي بنايتها تجاور كلية الزراعة في أبو غريب، فكانت سببًا لتزاور الصديقين باستمرار، فلم يبتعدا حتى وهما في جامعتيهما يدرسان..

الدين لا تأثير له في ذلك الوقت على اختيار الناس لصداقاتهم، لا أحد يسأل عن دينك، الصحبة لم تعتمد على المذهب، أصدقاء آدم كانوا يعرفون بأنه يؤمن بدين آخر، لكنهم لم يتأثروا، بل على العكس، أدخلوه بيوتهم، كانوا يشاهدون مباريات كرة القدم في كل مرة ببيت من بيوتهم، عائلاتهم يجالسونهم وكأنهم أسرة واحدة،

حتى مرة حنّوا له يديه عندما تزوج صديقه ستار الذي كان يدرس معه في الإعدادية، كان يتدرب معه على رياضة الكاراتيه، جبار كان معهم أيضًا، تعرف آدم على سامي الذي يعتبر أفضل صديق لجبار، يسكن معه في نفس المدينة الشعبية المعروفة سابقًا باسم مدينة الثورة التي أمر ببنائها الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم كهبة ومكرمة من حكومته إلى الفقراء من أبناء شعبه، ثم تغير اسمها عندما زارها الكايزر في منتصف السبعينات فحملت اسمه... أصبح سامي مع الوقت مثل جبار له، من المقربين إلى روحه، كانا لا يفترقان، جلسا على مقعد واحدة عامين كاملين في الإعدادية..

جبار تعلق بآدم كثيرًا، بات لا يفارقه.. وقبل أن يتعرف عليه ويشاركه تجارته ويفتح معه متجرًا كان يسرح بدراجته الهوائية يبيع علك الماء❁، وعندما ينتهي من بيع الحصة المخصصة له في كل يوم كان يزور صديقه في بيته، هو يسكن غير بعيد عنه، ربما المسافة لا تتجاوز بضعة كيلومترات، لم تكن عائقًا، حياة آدم المرفهة نوعًا ما لم تكن عائقًا في طريق صداقتهما، الفقر والغنى لا يعترفان به، لن يحدد لهما مسار علاقاتهما، كانا أكثر وعيًا ونضجًا من الفوارق التي

❁ علك الماء : العلك البلدي

obeikandi.com

صنعها الإنسان بنفسه، يعرفان ما يفعلان، الوفاء الحقيقي والصدق عماد كل علاقة، بقية الأشياء تأتي في مراتب متأخرة جدًا، كتطور جهاز الصنوبر في رأس الكائن الحي، كلما كبر الأخير كلما زاد صاحبه جهلاً، عند الإنسان يكون أصغر مما عليه عند الحيوان...

انبهر جبار بشخصية آدم كثيرًا، يقول عنه: حكيم وعقله أكبر من سنّه، بات يسره في كل ما يخصه ويخص أهله، يقول له إن أخوه محمد يذهب راجلاً إلى كلية الهندسة التي يدرس فيها في باب المعظم لأنه لا يملك حق المواصلات!، وعندما تخرج الأخير من الكلية بدرجة ممتاز لذكائه الحاد، تطوع في الجيش برتبة ضابط، وأول سيارة حصل عليها كهدية من الدولة باعها ليعطي أخيه حقها كي يدخل شريكًا مع آدم في تجارته التي لا يفقه جبار منها حرفًا، تلك التي يصنع فيها الحلي.. في بداية سنتهما الدراسية الجامعية الثانية، افتتحا متجرهما الذي يفتح أبوابه في المساء فقط.. عندها توقفت تجارة صديقه في بيع العلكة البلدي..

هناك في ذلك المتجر الصغير الذي يشبه غرفة كاهن الاعتراف رأى إخلاص، لم يكن وقتها في حالة تسمح له بالمزاح أو النكتة أو حتى يقدر على نسيان ما جرى له قبل بضعة أسابيع..

في ذلك المساء البغدادي الأصيل، قبل يوم واحد من وفاة أخيه سعيد، ذلك الشهم العنيد الذي يحب المواجهة والتحدي، لا يساوم في الحق أو يهادن فيه مثل رجل من أهل الجبل، شعر رأسه قصير مجعد، له شارب قروي غليظ، عينان دائريتان صغيرتان، ممتلئ الجسد قوي إلى حد لا يوصف.. سأله جبار وهما جالسان في كهفهما:

- غدًا عيد ميلاك.. تُرى ماذا تنوي أن تفعل؟ أين ستحتفل؟

نظر له بحزن لا يعلم سره أو عمقه، وهو يقول له مقتضبًا:

- أراك تنتظر مني الفرح؟

- ولِمَ لا ؟ عيد ميلادك كعيد ميلادي، أفرح له وأطرب..

بنبرة كالتهديد وداخله يصرخ:

- اطرب كما تريد، لكن بعيدًا عني!

بصوت خفيض وكأنه يفشي سرًا:

- لماذا كل هذا التشاؤم يا آدم؟

- هل أصابك العمى وأنا لا أدري؟ انظر حولك.. جرّب أن تفهمني، ترى هل ترانا نعيش في بلدنا كباقي البشر في أوطانهم؟ لتحسب علينا ولادتنا يوم ميلاد حقيقي، نفرح به ونحتفل!

ثم باغته منفعلاً على غير عادته:

- أجاهل أنت، أم تدعي الجهل؟ واستدرك بجزع: كما ترى والحمد لله، نعيش هنا في عزلة تامة كالعناكب في بيوتها، بل أحيانًا يبدو لي أن الشيطان قد أضلنا، ولو تُبنا لشك الناس في توبتنا!!

obeikandl.com

متحمسًا، مختلج النفس ملتهب المشاعر:

– يا آدم يا عزيزي أنت تعرف قبل غيرك، أن مشكلتنا ليست الوطن، بل من يحكم هذا الوطن.. نحن مثل الجمرات إن أبعدت عن موقدها قسرًا خمدت، بردت، انطفئت جذوتها ووهجها، تخلت عنها روح الحياة.. لم تعد تنفع لشيء، هكذا نحن، هذا لا جدال فيه، لا أحد يساوم على وطنيتنا..

ثم أدار اتجاه الموضوع ليرجع إلى صلبه:

– ها.. لم تقل، ماذا أنت غدًا فاعل؟

– لا أخفيك سرًا يا صاحبي.. ليس لي مزاج السكران، سأبحث عن مأتم أبكي فيه! هل تصدق ذلك؟

وجاء الغد راكضًا يزف لهما البشرى، وأي بشرى؟ إذ لم تعد ذكرى يوم ميلاد آدم شيئًا سعيدًا في حياته.. الحادثة التي وقعت قصمت ظهره وخلعت قلبه من مكانه.. فما أن حلّ ذلك المساء وفيما كان جبار وحده في المتجر، ظهر شخص طويل وعريض كنهر الجحيم، يسأل عن صديقه بارتباك والقلق يركبه:

– لقد سألت عنه.. قالوا إنه يعمل معك هنا، بالله عليك أين أجده؟.. أرجوك، الموضوع لا يتحمل الصبر أو الانتظار..

حاول جبار أن يرحب به، أو يهدئه متوسلاً:

– أفهمني ما المشكلة ، لقد أقلقتني، لم أعد أسيطر على أعصابي، ؟.

openeikandar.com

همَّ الغريب مغادرة المتجر وكأنه لم يستمع إلى توسلات جبار، وما أن أصبح في الخارج، ذهب وراءه يصيح به:

– يا رجل، انتظر قليلاً، آدم سيأتي حالاً، لن يتأخر..

لكن الغريب كان مرتبكًا، منهارًا ومترددًا وهمَّ راكضًا لا يلوي على شيء، تركه يصارع حيرته التي غزته، تغلغلت في أعماقه كطعنة خنجر.. ومن بعيد رأى آدم يتوجه قادمًا إلى المتجر، صاح به كالمجنون:

– ما الذي حصل؟ ماذا يجري؟

ظل يتحدث معه ويسأله وآدم ينظر له باستغراب وامتعاض شديدين، لا يعرف أصل الحكاية، أو لماذا كان جبار يوجه له كل تلك الأسئلة الغبية دفعة واحدة وبنفس مقطوع، حتى ظهر الرجل الغريب بوجهه الصارم العنيد الأسمر الذي لفحته الشمس، فبدا كالجلد المدبوغ.. وهو يسحب آدم من كتفه بقوة ويسقط في أذنه كلامًا مقتضبًا، فتغيرت ملامحه فجأة، أزرقَّ وجه وأصبح كوجه ميت.. وركضا معًا دون أن ينتبها لوجود جبار أو يضعا اعتبارًا لوقوفه معهما واختفيا سريعًا كالوهم.

• • • •

حاول جبار الاتصال بأهل آدم ولم يفلح، فقرر إغلاق المتجر وهو يردد: يذهب البيع والشراء والمال إلى الجحيم، يجب أن أعرف ما يحصل لصديقي.. وما أن دخل بيتهم الذي كان بابه الكبير مفتوحًا على مصراعيه حتى ذهل من المنظر، كان الرعب أرحم منه، لا يطاق، الصراخ يعلو الزقاق ويشق الآفاق، النساء يلطمن الخدود والرجال يبكون كالنساء، بحث عن آدم ولم يجده، الجو كان عامرًا بالنواح والصراخ، تفوح منه رائحة الموت..

ما أن عرف آدم بالكارثة التي حلّت بهم بعد أن دخل دارهم مرعوبًا منهارًا مع ذلك الرجل الغريب مدبوغ الجلد؛ حتى ضحك ضحكة شيطانية مهزوزة مريضة مجنونة لا تعود إلى عالم الإنسان في موقف كهذا، لم تعد ساقاه تستطيعان حمله وكأنهما من إسفنج، خرَّ ساقطًا على الأرض فاقدًا لوعيه وكأنه لا يريد أن يحضر الواقعة أو أن يصدقها، فقرر الهروب بتلك الطريقة نحو عالم اللاوعي!.

في صمت جنائزي رهيب، التقى جبار صديقه على انفراد، وَجَده مقرفصًا كبوذي متعبد عند قدم جدار أحد الغرف في الطابق الأول من دارهم، لم يكن هناك أحد سواهما وصوت البكاء الصاعد إليهم من الطابق الأرضي.. اقترب منه بحذر، مسد شعر رأسه برقة كأب يرى ابنه في مأزق منهارًا كئيبًا ومن الحزن في نهايته، بصوت منخفض حاول مواساته:

obeikandl.com

– ماذا دهاك يا صاحبي؟ هكذا هي الحياة، وهذه هي الأقدار تغدر دون أن تراعي شعورًا أو ظرفًا...

ثم تشجع قليلاً، تماسك وأردف بعطف ملائكي:

– كنتَ دائمًا أنت الذي تعظني، تنصحني وترشدني.. ماذا جرى لك، عجبًا؟

زم شفتيه، ضَيَّقَ ما بين عينيه ولم يرفع آدم رأسه، تحاشى النظر إليه، بقي صامتًا كالتمثال.. منظره كان يثير في النفس مكامن الشجن، تجعل الشقاء تحت أقدامه يبكي، والأحزان بهيبتها تصمت.. وقتها أحسَّ جبار أن صديقه لا يحب الحياة التي يتحدث عنها، يبصق عليها، فجأة أصبحت حياته كحياة المحكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة التي لا ينتظر الفرج منها، يمقت الأقدار وجبروتها، بل شعر جبار في لحظة أن صديقه بات يشك في عدالة السماء من نظرته، من صمته...

قال يخاطب نفسه: ربما له الحق فيما ذهب إليه، في ليلة ميلاده، يوم خروجه إلى الحياة صارخًا يريد الحياة ويسعى إليها طالبًا، في هذه الليلة بالذات وليست غيرها.. القدر لا يحب المزاح إلا على كيفه، مزاحه ثقيل لا يستوعبه عقل البشر أحيانًا، الموت لم يختر يومًا آخر، بل أثبت عناده الصارم كالصخرة التي لا تتزحزح من مكامنها بعد

obeikandi.com

أن أزمع، يريد يوم ميلاده ذكرى، تاريخًا لآدم لا ينسى.. فيا لظلم الزمان وغباءه.

في يوم ولادته انفرط عقد عائلته، نهب الموت أغلى خرزها الثمين، سعيد، ذلك الشاب الذي لا يقبل أقل من الحق نصابًا، خطفه القدر، أبعده عن أسرته وزوجته وولديه وهو مازال في مقتبل العمر كزهرة لم تتفتح بعد.

اقتنع آدم في بداية الأمر، أن الحجر بات أفضل منهم لأنه لا يعرف حياةً أو موتًا، لا يحس، لا يرى أو يسمع أو يتأثر.. الإنسان العراقي أصبح يحسد الحجر، يتمنى أن يكون مثله كي لا يتألم أو يتعذب.. يا لسخرية الأقدار... قال ذلك هاذيًا يخاطب نفسه بنكهة القهر التي لها رائحة الشمع المحروق في أنفه، وتابع بصرخة قاطعة كالسيف: الإنسان لا يشعر بتلك الأحاسيس الدقيقة إلا من يُقرص وتدميه مخالبها، الموت جبروته أرعن، لا يفرق كثيرًا بين طفل وشاب، بين كافر أو مؤمن، عزائيل أعمى، لا يستطيع أن يميز بين الفرد الطالح والصالح، ويمكن أنه لا يقدر على الأوباش واللصوص وقطاع الطرق والقتلة، علينا أن نأخذ الأمور هكذا على علاتها، نتصارع مع أقدارنا مع مأساتنا التي كبرت وأصبحت كالجبال لا يمكن زحزحتها أو قهرها، أو التغلب عليها في بلدنا، عراقنا الذي لا نعرف غيره وطنًا.

- ٩ -

مضت فيهم الشهور، سعيد لم يرجع ولم يُبعث من جديد، رحل عنهم كزمن لن يعود. بكاؤهم لم ينفعهم، عويلهم وصراخهم وجنون مروان لم يفدهم، تقبلوا أمر الواقع، ترك أخيهم فراغًا مروعًا في بيتهم، لم يستطع أحدًا تعويضه أو ملئه. ولادة زوجته في ليلة وفاة زوجها أمر أقرب إلى المعجزة، لماذا ولدت زوجته في نفس الليلة التي مات فيها زوجها؟ ما الغاية من ذلك؟ لا أحد يستطيع أن يجيب على هذا السؤال أو مثله، مدارك الإنسان تبقى محدودة، جبلت على قدر، هذا التحديد أعطى بُعدًا وعظمة مطلقة للخالق، وبه أغلب الناس يؤمنون ويستعينون.

في تلك الفترة العصيبة من حياة آدم ظهرت إخلاص فجأة، بالصدفة التي عجز العلماء من تفسير حدوثها، كثيرًا ما كان يتغيب عن دراسته وعمله، حاول صديقه الوفي جبار أن يخرجه من أزمته حتى أقنعه في يوم أن يرجع إلى عمله، أن يهتم بنفسه وبدراسته، الحياة مهما يجد ويحصل فيها تبقى مستمرة، لن تتوقف، آدم يعرف ذلك جيدًا، هو استوعب الدرس، بل وقف مجابهًا أهله بأن يخلعوا

obeikandl.com

عنهم الثياب السوداء، قال لهم: سنموت كلنا لو بقينا نعيش على هذا المنوال.

أخوه الكبير نصير وقف بجانبه، أكد على كلامه، قال: آدم على حق، يجب أن نهتم بولديه وزوجته، خلعوا عنهم الثياب السوداء، تغيرت حياة الأسرة نحو الأحسن، تخللها طبعًا البكاء والنواح، لكن حياتهم سارت نحو الأفضل خاصة بعد أن طرح عليهم آدم فكرة تزويج أخيه مروان قبل أن يفقد الأخير عقله تمامًا، أراد أن يدخل الفرح بيتهم، أن يعلو صوت البهجة دارهم، آدم كان حكيم بفكرته، أثنت الأسرة على مقترحه، بدأوا يبحثون بشكل جدي عن فتاة تلائم طبعه وتتحمله، هو ليس سهلاً، عقله صغير جدًا، عصبي المزاج وحاد في تصرفاته، سريع التهور، سريع الاشتعال، أهله يعرفونه جيدًا، ليس كل فتاة تتلائم وتقبل بالعيش معه تحت سقفٍ واحد..

القدر وبهذا الوقت بالذات وضع إخلاص أمامه، رآها في متجرهما عند أحد العصاري وجبار ملتهي بخدمتها التي لا يجيدها لأنها ليست صنعته، هو يعرف أن يسرح بدراجته الهوائية لبيع العلكة، لكن لبيع الحلي الأمر يختلف، حضر آدم ورأى صديقه متورطًا لا يعرف كيف ينقذ نفسه، تدخل بسحر وخفة بين إخلاص وبينه، في تلك اللحظة قال لها كلمة كانت سبب علاقة قادمة متينة استمرت

obeikandi.com

عامين كاملين: من يراكِ يقف مذهولاً يتلبسه ألف شيطان ويقول (........) ثم صمت ولم يتم كلامه!

هو لم يكن يعرف أن صديقه كان قد وضع عينيه عليها، لم يخبره بذلك، كما لم يخبره أخيه مروان عندما سلط نظره على أمهر، امتعض جبار من تصرف شريكه، أضمر غضبه، لم يظهره، كان يحبه حبًا جمًا، يفديه بروحه لو طلب منه، سكت، بلع امتعاضه وقهره وسكت، لم ينبس ببنت شفة، هو يعرف صديقه جدًا، قال: آدم سوف يعلق إخلاص، لن تقاوم كثيرًا، ما هي إلا دقائق وسيجعلها تحبه وتموت من أجله، لكنه لم يترجم خواطره هذه أو يصرح بها إلا لنفسه.. في تلك العصرية تعرف إلى إخلاص التي شعرت بأن الفرح يسطوا عليها، ينهبها، لم تقاوم شعورها، بل العكس، تمردت، قالت: ليفعل بي ما يشاء، فغمزته قائلة:

– أنا لا أملك مزيدًا من الوقت الآن، أرجو بعد أن تتم تصليح حليتي أن تجلبها لي لو سمحت إلى مكان عملي!!

آدم لم يفته ذلك، قال: تريدني أن أختلي بها بعيدًا عن جبار، سألها صادقًا:

– لكنني لا أعرف أين تشتغلين؟

نبر جبار متعجلاً، متدخلاً نابصًا:

– أنا أعرف!

openkanda.com

ابتسم آدم عنوة، خرجت ابتسامته شاحبة لا لون لها وتكاد تكون ميته، أجابها:

- ليكن، في مساء الغد آتي إليكِ بصحبة صديقنا الملهم جبار وأسلمك قطعتكِ.

ابتسمت بعذوبة قائلة:

- أرجو أن لا تنس أن تقول لي ماذا يقول ذلك الشخص الذي يتلبسه ألف شيطان حين يتوقف أمامي؟.

سمعها وهي تردد حرف الراء بشكل واضح كما ينطقه الهنود.. قال يسر ذاته: هي تريد أن تسمع مني مزيدًا من كلمات الإطراء والإغراء، من حقها، جمالها أخاذ يأسر القلوب، تضعها على كل الجروح فتتعافى، لها رائحة تسكر، عينيها العسليتين الكبيرتين استعمرت جزء كبير من وجهها، بياضها طاغٍ يرعب الأرواح المؤمنة المستكينة، يا إلهي.. ارحمني لا أريد أن أموت على يديها أو على صدرها هذا الناهد..

خرجت من المتجر وهي تترنح بمشيتها وعطرها، وزرقة تنورتها القصيرة التي كانت ترتديها، وقميصها السمائي بلا أكمام، جعلت جو المتجر يسبح بفرح هائم لايستكن.. لا قرار له.

• • • •

obeikandl.com

في مساء اليوم التالي وعند الثامنة والنصف تقريبًا أغلقا متجرهما وتوجها إلى المكان الذي تعمل فيه إخلاص، بُغية ترجيع حليتها كما وعدها آدم.. تراجع الأخير خطوتين وطلب من صديقه أن يقرع باب المتجر الذي تديره والدة إخلاص بمساعدة ابنتها بعد أن تنهي الأخيرة دوامها المدرسي، كانت في سنتها الثالثة في إعدادية التجارة للبنات الكائنة في حي جميلة، قرأ آدم بوقفته غير البعيدة اللافتة المعلقة على واجهة المتجر المزينة بصورة لسيدة حسناء شعرها طائر في الهواء "حلاقة نور للسيدات".

لم ينتظر طويلاً حتى خرجت إخلاص متلهفة لرؤيته، وقفت قبالته فتنفسا الهواء معًا شهيقًا لقربها منه، شم رائحتها العذبة الربانية، سبح بها كما فاض فيها قبل يوم، مدَّ لها يده وهو يعطيها حليتها ويقول:

- خذي.. هذه قطعتك على أحسن حال، بل أفضل مما كانت عليه!

برقة:

- هذا بفضلك، ثم سألته: لم تقل، ماذا يقول ذلك الذي تلبسه الشياطين ساعة رؤيته لي؟

ابتسم وهو يقول مناورًا:

onelkandil.com

- هل ما زلت تذكرين؟ وتابع: سأجيبك على هذا السؤال عندما أرجع من معسكر التدريب الطلابي لجامعات العراق، أي بعد شهر تقريبًا..

امتعضت، قهرها آدم دون أن يدرك، شعرت بوخزة في قلبها، قالت وهي تنظر له بنهم وبصوت هادئ كمن يسبّح بخفوت:

- متى ستذهب؟

- غدًا صباحًا.

- إلى أي جهة؟ أقصد، هل تعرف أي معسكر؟ لأنني قد أستطيع مساعدتك، فأبي ضابط في الجيش.

بلوعة كلوعة القلق:

- الحقيقة.. هم لم يقولوا لنا الجهة التي سنذهب إليها، يعتبرونها جزء من السرية، لكن الأمر لن يختلف معنا، ستلفحنا الشمس، نتعذب قليلاً ثم نعود مثلما ذهبنا!، سوف لن نجني شيئًا أو نتعلم ما يستحق.. فالطلاب مستاؤون وحتى الأساتذة، لكنه أمر رئاسي علينا تنفيذه..

جبار ظل واجمًا طوال الوقت، يرقبهما بحذر، ثم تدخل نابرًا:

- لا ترفع صوتك يا آدم، ثم استدار نحو إخلاص مشيرًا: ستخرج أمكِ لو تأخرتِ عليها، لا نريد أن نخلق مشاكل لكِ.

أجابته مقتضبة:

obeikandi.com

- أمي تثق بي كثيرًا وأنتما لا تخلقان أي مشاكل لي، بل العكس، أحضرتما حليتي وهذا ليس عملكما..

ودّعها آدم بقوله:

- سأراكِ حينما نعود.. إلى اللقاء

- إلى اللقاء..

مدت له يدها فصافحها، وجدها دافئة، رقيقة، أبقى يدها في يده، لم يتركها، شعر برغبة قوية لامتلاكها، وعت هي على نفسها وهم مازالوا أمام محل الحلاقة واقفين يستحلون طرف من رصيف الميدان الترابي المطل على حي جميلة خافت الإنارة.. همست برنة تعبق بالحزن:

- مع السلامة.. تعود لنا سالًما..

ردد هو الآخر:

- مع السلامة، سلنتقي بالتأكيد مجددًا، لا تقلقي وكما يقال: السيء لا يصيبه مكروه..

ابتسمت، جبار نوه هو الآخر مودعًا قائلاً:

- أبلغي تحياتي وسلامي إلى الوالدة، هي تعرفني، قولي لها سلام خاص من جبار..

وأعطياها ظهريهما وهمَّا بمغادرة الميدان. ردد آدم وظهره لها:

- لترعانا رحمات الرب في هذا الوقت العصيب الأغبر..

obeikandl.com

وهو يلوح لها بيده كالبيرق إشارة الوداع..

• • • •

حدس آدم كان صحيحًا، المعسكر الطلابي الذي أُجبر على الاشتراك فيه لم يأتِ بفائدة لهم، لقد كان مجرد تلهية للحط من كرامتهم وامتهانها، يجعلون المثقفين والدارسين في حالة قلقة، العطلة الصيفية لو استغلها الطلاب الجامعيون وأساتذتهم في أمور صالحة، مبدعة ومثمرة ستسبب للكايزر العراقي وشلته الحاكمة متاعب لا حصر لها، هو يريدهم أن يكونوا متعبين غير مرتاحين، الراحة والاستجمام يدعوان إلى التفكير والتأمل، والحكومة لا تكره في حياتها أكثر من التأمل والتفكير، لأن ذلك يؤدي إلى نتائج ربما لا تحمد عقباها لها.. لذلك أوجدوا بدعة التدريب في وقت راحتهم، عطلتهم الصيفية بعد موسم دراسي طويل، من يتخلف عن المشاركة تنزل عليه لعنات الله كلها، الطالب يفصل من جامعته، والأستاذ يُقال ويعتبر خائن، الخيانة وصمة مجلجلة لكنهم يطلقونها على من يريدون بسهولة كما يشرب المرء الماء..

آدم رأى الويل والهول والهوان في ذلك الشهر اللعين، نحل كثيرًا، حرارة الشمس كانت لا ترحم مثل نار جهنم، أصيب بإسهال حاد

openkandi.com

في أول خمسة أيام من إقامته، مع ارتفاع حرارته حد التاسعة والثلاثين، أعطاه الدكتور المسؤول في المعسكر إجازة مشروطة لمدة ثلاثة أيام، أن يحضر التدريب مشاهدًا دون أن يشارك!.

مكان النوم.. عبارة عن خيمة – جملون – هرمية ثابتة وكبيرة، كالبيوت التي تُربى فيها الأبقار والخراف والدواجن! جدرانها بنيت من الطابوق وسقفها من الحديد، في الليل تمرح فيها مشاغبة الجرذان والفئران بحرية لعينة، في النهار تكون الخيمة مثل فرن كبير لا تطاق، الحمامات المؤقتة التي بنوها كأعشاش الحمام، لا تصلح للاستعمال الآدمي، الماء لا يتوفر إلا في فترة الصباح، وسوء استغلال لإنسانية الإنسان في أبشع صورة، يعجز القلم من وصفها، كل ذلك، من أجل أن يكون العراقي محطمًا معنويًا، وعندما تتحطم معنويات الإنسان يتحطم جسده، إرادة الإنسان حدودها الجسد، متى ما ينهار الأخير تنهار الإرادة.. يا لهم من ذئاب، يعرفون كيف ينقضّون على فريستهم في الوقت الذي يختارونه بإحكام يجهل الشيطان فصله...

سنجار، تلك المنطقة النائية التي لم يعرف آدم عنها شيئًا غير اسمها، والحقيقة هو لا يرغب في ذكرها أو تذكرها، لكن بعض المواقف التي حدثت لهم هناك.. جعلته يحكيها ويرددها على مسامع أهله

وأصحابه فيما بعد متندرًا.. كتلك الحادثة التي عاشها بكل أجزائها حد النخاع: في لحظة خُيِّلَ لآدم أنها لم تحمل في أجزائها نبض الزمن أو أنه غادرها دون أن يمسها أو يصل إليها؛ اهتزت الأرض من تحتهم بقوة، أو هكذا بدا لهم نتيجة الصرخة التي فجرها الطالب الذي لا يعرف آدم اسمه في أجواء القاعة التي كان ينام فيها، لم يشعر ساعتها بالزمن وكأنه لا وجود له...

لوثت صرخته التي تُشبه عويل الريح آفاق المعسكر الطلابي وجرحت صمت الليل الكئيب ببرودته اللاسعة وفضت بكارته، الذي لا ينتظرون منه سوى بزوغ صباح أقسى من سابقه وهم نيام بعين واحدة كما يقال، بحذر رهيب نتيجة خوفهم من العقارب المنتشرة بكثرة كالبق، في تلك البقعة النائية غير المسكونة من صحراء سنجار العراقية، خاصة بعد تحذيرات الضباط لهم ساعة وصولهم من تلك العقارب السامة التي لا تميز ولا تعرف الصديق من العدو، ولا الكافر من المؤمن!..

ظلَ نومهم في تلك الليالي التي بدأوا فيها معسكرهم قلقًا لم يغمض لهم جفن، عانوا الأرق والسهد وهم يعدون الأيام البطيئة لعلها تمضي وتكون شيئًا من الماضي، لكنها أبت إلا أن تعذبهم، بعد أن أجبرتهم الحكومة وقتذاك من المشاركة فيه أثناء عطلتهم الصيفية،

بدلاً من الترفيه عن أنفسهم كطلاب للجامعات العراقية بعد فصل دراسي طويل منهك، أو بدلاً من أن يحاول الطالب العمل لمساعدة نفسه أو عائلته في الحصول على بعض المال أثناء عطلته الصيفية. دُفع بهم إلى المشاركة في التدريب العسكري وعلى الكيفية التي يمكن من خلالها حمل السلاح، تلك المشاركة التي لم يجد آدم لها من هدف، سوى كسر أنوف العراقيين على كل المستويات العلمية، ليس إلا.

عاش تلك الصرخة القاسية المؤلمة، المجروحة والمفزعة وسط هدوء وسكينة الليل البارد الموحش، الذي لم يكن لهم من دقائقه سوى أخذ الحيطة والحذر من العقارب السامة التي تدب في الليل وتنشط حركتها وهي تبحث عن ضحاياها، وهذا الطالب الذي لا يعرف اسمه يصرخ بأعلى صوته وهو مازال شبه عار نائمًا في سريره الإسفنجي القذر الممدود مثل جثة هامدة..

كانت الصرخة مدوية مجنونة وكأنها آتية من وحش مثخن بالجراح، تلك التي جعلتهم يفزّون من نومهم غير العميق أصلاً مذعورين وهم يشعرون بالهلع يركبهم وكانت هذه البداية أو الغيث للكارثة التي حذروهم منها.. وقفوا جميعهم بثياب النوم كيفما اتفق وكأن مسًا من جنون قد أصابهم، يفورون كنار في تنور، وصراخه مازال

يعلن نذيره، وهم يحيطون به وأبدانهم تهتز لكل حركة أو وقع يصدر منه مع الشحنات التي تصدر نتيجة صرخته الهائلة، المجلجلة المخيفة التي يجهلون سببها...

يا له من موقف مثار، قِسم منهم كان يزفر بالآهات، وآخرون منه يقتربون ثم يولون متراجعين خائفين وعنه يبتعدون، وهناك من كان يشحذ الهمم وثان من يقسم صارخًا بأغلظ الإيمان بأن الطالب سيموت لا محال، وثالث يدعو الجميع لعدم الاقتراب منه كي لا تلدغه العقارب ويكون ضحية أخرى.. في هذه الأثناء دخل عليهم بعض الرجال الذين كانوا في الحقيقة من طلاب الكلية العسكرية المسؤولون عن تدريبهم أثناء إقامتهم في المعسكر، فأصبحت في لحظة القاعة في هرج ومرج، وغاصت بالرجال...

حاولوا أن يقولوا شيئًا، لكن كلماتهم جاءت مبعثرة غير مفهومة، تائهة والظلمة تسيطر على المكان، لم يظهر منه سوى شبح رجل مستلق ما بين النوم واليقظة وهو يصرخ بأعلى ما تمتلك حنجرته من قوة، وكأن العقرب الذي لدغه مازال يؤدي عمله بكل جرأة وحرفية، في لحظة تحرك الطالب قليلاً فبان وجهه رغم العتمة.. له وجه الغجر بعينين بقريتين كبيرتين قاتمتين. رفع يده اليسرى ثم

obeikandl.com

رجله اليمنى وكانوا في هياج وحركة مستمرة حوله لا يعرفون كيف يبدأون لإنقاذه...

في هذه الأثناء المربكة القاسية المتشبعة بالرهبة والخوف.. تقدم أحد طلاب الكلية العسكرية من الطالب الذي كان يعوي بشكل دام مجلجل وهو مازال متمددًا في سريره، هز سريره بحذر هزة قوية، وعندما لم يستيقظ أو يقم، نكثه بقوة من على سريره حتى سقط الطالب على الأرض وهو يدمدم بنغمة حزينة، متعبة، بائسة ويائسة، وبطريقة صبيانية مفاجئة وبكلمات كانت تستحق شنقه، متدفقًا وهو يزفر ناشجًا كالطفل، ثاغيًا كالشاة عند ولادتها:

- ماذا حدث؟ لماذا أنتم هكذا واقفون أمامي وحولي وكأنكم تودعونني في موتي، أو كالذين يمارسون طقوس دينية لا يؤمنون بها؟ أرجوكم قولوا شيئًا.. فأنا لا أفهم ما يدور حولي.. استحلفكم بالله، ماذا حصل؟ وأنا أرى نفسي وسطكم فجًا كالتيس!، لقد كنت أحلم بشيء لم أعرف ماهيته، لكنني ما أن أفقت عليكم، حتى ملكني الخجل، كيف هذا؟ ولماذا أنتم هكذا؟ تتجمعون حولي في هذا الليل الذي لا يريد أن ينتهي، سحقًا للشيطان، ماذا تريدون مني؟ بل ماذا تريدون أن تفعلوا بي؟.

oudenkandal.com

وهكذا ظل المسكين ابن الجنية يهذي دون أن يأخذ نفسًا، وهم يضحكون عليه وعلى أنفسهم وظنونهم وشكوكهم وخوفهم وهلعهم، واستمرت ضحكاتهم تجلجل في سماء المعسكر، وانقلبت تلك الضحكات إلى قهقهات لا يمكن إسكاتها أو أن يوقفوها لأنها تعدت حدود إرادتهم، وربما أيضًا قدرهم في ذلك الليل الكثيف، المخيف والمخيم عليهم الذي يحتضن الكون حتى الأفق..

أو عندما فضّل الإقامة مع أصحابه من أكاديمية الفنون الجميلة، الذين جمعهم عدم التخطيط والدراية من قبل منظموا المعسكر والمسؤولين على توزيع الطلبة على خيم الأبقار الهرمية، وجعلهم يسكنون مع طلاب الشريعة في نفس الخيمة، حيث تحولت أوقات العصاري كلها أفراح وأتراح بسبب أعمال الشغب والتصادم التي كانت تحدث بين طلاب كلية الشريعة وطلاب الفنون.. فما أن يبدأ أصحاب الإيمان بالصلاة على شكل مجاميع حتى يبدأ طلاب الفن بالطرب والغناء والرقص، مما يثير حفيظة المؤمنين ويجعلونهم يقذفون الكفرة حسب ادعاء أهل التقوى بقشور الرقي أحيانًا والأحذية والنعل في أحيان أخرى عندما يشتد الجدل والدجل والصدام!.

شاعت الصور وتناقلت الألسن أحداث المعارك المذهلة المسلية التي كانت تحدث في المعسكر بشكل سريع، فلم تمر على إقامة آدم هناك غير ثلاث ليالي حتى فرّ راجعًا إلى زملائه من كلية الطب البيطري، إذ لم يتحمل تلك المناظر التي كانت ترعب النفوس قبل أن يتدخل أفراد الجيش لفك النزاع.. أطلق آدم على الخيمة اسم: الخيمة الساخنة!!.

أقسى لحظاته تبقى عندما نصحه زميله بأن يذهب إلى الجامع ليتخلص من العاصفة الرملية التي هبت على منطقة سنجار في يومه العاشر من إقامته هناك؛ شعر بصعوبة في التنفس، أكثر من استعماله للأدوية التي اصطحبها معه ولا يقدر على التخلي عنها مطلقًا، تلك التي تساعده على التنفس في حالة الضيق أو عندما تشتد عليه الأزمة، معاناته من مرض الربو الذي لازمه منذ قرابة ثمانية أعوام استهلكه وجعل أيامه أكثر قسوة، خاصة بعد أن أجبر على تناول الكورتيزون وبنسب عالية كي يبقى على قيد الحياة..

أخذ بنصيحة زميله أحمد وذهب إلى الجامع الوحيد الموجود في المعسكر؛ تخلصًا من الحرارة القاتلة وغبار الصحراء الخانق، خاصة بعد أن شجعه بأن هناك سيجد ضالته في الراحة ويمكن له القراءة وهو ينعم بالهدوء والسلام والأجواء النظيفة الباردة.. وافق آدم

obeikandl.com

على الفكرة، وجدها رائعة، فهو سيستمتع بمطالعة ما يحب تحت أجواء صحية من حيث البرودة والهدوء والنظافة من جانب، وبالسلام والأمان تحت وصاية الرب في بيت العبادة والإيمان لحين ما تهدأ العواصف وتخف قليلاً حرارة الشمس...

فما أن انتصف النهار وتمادت الشمس حتى وصلت الذروة وقمة الجنون في حرارتها، التي كانت تصبها كالحمم بكل عنف وجبروت وكأنها غاضبة، أصبحت الأجواء في تلك اللحظات من عمر الزمن لا تطاق مع وجود العواصف الترابية التي كانت هي الأخرى تُعبِّر عن حنقها ومقتها لساكني الأرض وما يقبع عليها.. حتى احتل ركنًا هادئًا وباردًا في الجامع، جلس مقرفصًا كما يجلس المؤمن متأملاً.. فتح كتابه الذي كان لطاغور، ذلك الشاعر الهندي الروحاني العظيم.. عندها انتظم نبضه، بات يتنفس بحرية وبصورة طبيعية..

ارتاحَ للأجواء النظيفة والهدوء الذي يطغي على المكان.. قال واعدًا نفسه: مكانٌ رائع، سأحاول أن آتي إليه كلما وجدتُ نفسي محاصرًا بين المرض والضجر والأجواء التعيسة، ثم غرق في بحر الشاعر وتأملاته الشعرية الساحرة، مسرورًا هائمًا سارحًا وحالمًا.. فجأة هبط عليه ظل جسد عامر بالقوة والضخامة وكأنه سقط عليه من السقف.. كان الهيكل يعود لضابط في المعسكر، وقف قبالته

كالصقر وكرشه الذي يشبه سنام الجمل يتقدم بدنه وهو يقول آمرًا:

- ماذا تفعل هنا يا عسكري؟

أنصت له السمع بقلب راجف، ثم أجابه بإنكار:

- أتحدثني يا سيدي؟!

- ومن غيرك أقف أمامه؟

- وجهت كلامك إلى عسكري وأنا طالب، ثم استطرد بمكر قائلاً: حتى ظننتُ بأنكم يا سيدي تعنون شخصًا آخر!

بينما ظلت نظرات الضابط شاخصة نحوه لا يطرفُ له جفن.. ففهمَ آدم الموقف، عندها هتفَ بجد قائلاً:

- أنا هنا أستمتعُ بالوقت وبالأجواء النظيفة الهادئة التي لم أجدها في مكان آخر من هذا المعسكر.

- جميل جدًا أن أسمع منك هذا الإطراء والمديح في بيت الله! ولكن لم تقل لي لماذا لا تقوم للصلاة بدلاً من جلوسك هكذا كالشحاذ؟

- أصلي؟ أجابه آدم مستغيثًا..

- ماذا، ألم تسمعني؟

ثم أردف الضابط مؤكدًا بنبرة لا تخلو من تهكم:

- نعم، تصلي مثل هؤلاء.

obeikandi.com

وهو يشير بيده الغليظة التي تُشبه طرف المجداف العريض في نهايته ناحية المصلين، وأردفَ بإغراء:

– انظر إلى المؤمنين الذين تراهم هناك وهم يعبدون الله ويؤدون واجب الصلاة تجاه خالقهم..

أجابه آدم مقتضبًا يائسًا:

– أنا...

وهمَّ بالكلام، لكنه تردد في الإفصاح.. صمت ولم ينبس ببنت شفة.

– أنت ماذا؟

ثَم استرسل بالاستجواب بازدراء:

– مازلتُ أنتظر ردًا شافيًا منك يا مستهتر بالدين وفي حرمة هذا البيت الذي لا تقدره حق التقدير.

ثم لفت انتباهه الكتاب الذي يحضنه.. فسألهُ بحقد وامتعاض:

– ما هذا الذي بين يديك؟

– هذا؟.

وهو يرفع الكتاب أمام عينيه وكأنه ينوي تقبيله، ثَم طفق شارحًا:

– إنه كتاب شعر، لشاعر هندي عظيم...

obeikandi.com

قاطعهُ الضابط بحدة وقد جُنَ جنونه، انقلب فجأة من ضابط فضولي وقح إلى نمر مجروح يصرخ ويزمجر بعنف ويقذفُ بالكلمات دونَ حذر أو خجل:

– إنكَ شخص تثير الحنق فعلاً!، ثمَ سارعَ في القول محتجًا: تجلسُ هنا، في الجامع، في بيت الله لتقرأ شعرًا؟ ما هذا الفسق والكفر الذي أنت فيه؟!

تفجر صوته كالقنبلة في المكان وهو يشتم ويسب كالمهووس:

– انهض يا حقير.. يا زنديق.. ثمَ شدّهُ بقوة وهو يدمدم كنحس طاعن في السن: هذا جامع وليسَ مكتبة.. وصرخَ به بكل نذالة: اخرج من هنا يا سافل!.

بإحساس مليء بالخيبة ردَ عليه آدم وهو يدفع يده الخشنة عنه:

– نعم.. أنا أعلم جيدًا أنني هنا في جامع، وكما هو واضح من اسمه جامع لكل شيء على شرط أن لا يغضب الرب أو خلقه.. ثم شرع بكل اعتداد وثقة: سيدي الكريمَ، الجامع هو بيت الله، بيت للصلاة والعبادة، بيت للتأمل والتفكير، بيت للسلام والراحة والطمأنينة... وأنا هنا لم أخالف هذه الأعراف ولا تقاليدها.. وتابع بنبرة حازمة: كما ترى يا سيدي الضابط، فأنا أقرأ وأتأمل الروح وهي تحلّق في رحاب عالية، كالملاك يرفرف فوق رؤوس المؤمنين.. فما الضير في ذلك؟!

obeikandl.com

طفحَ كيل صبر الضابط، دقَّ الأرض بقدمه بقوة وهو يبصق في وجهه بكل حقارة وجرأه وندد شاتمًا، مهددًا باستهتار:

- اخرج من هنا يا كافر.. وجودك هنا يلوث بيت الله، وكلماتك الرعناء تسمم أفكار المؤمنين الصالحين..

ثم عوى وهو يتوعد بالويل:

- لا أريد أن أراك هنا ثانيةً.

قال ذلك والزبد يخرج من فمه أكوامًا ووجهه باتَ أحمرًا كلون سرطان البحر. نهض آدم متأسفًا على قراره في الحضور والجلوس في بيت الله وهمس في سره بانقباض يعاتب زميله أحمد على نصيحته تلك التي لم يفكر فيها كثيرًا..

رجع مخذولاً إلى مكانه وسريره المتهالك الذي لا يرتفع عن الأرض أكثر من ثلاثين سنتمترًا.. لا ينقطع عن إطلاق صرير من نوابضه الحديدية التي يكسوها الصدأ كلما جلس عليه أو تحرك، كصرير السلاسل الحديدية المتصلة عند سحبها، وهو يجرُ أذيال المهانة والخيبة وراءه، ثقيلة وقاسية كحرارة شمس ذلك النهار وقوة عواصفه الترابية الغاضبة.

• • • •

obeikandl.com

بعد يوم واحد من رجوعه من المعسكر التقى بجبار في متجرهما عصرًا.. وما هي إلا دقائق معدودة بعدد أسنان الفك لدى الإنسان ظهرت إخلاص منشرحة، فرحة وابتسامتها تأكل وجهها الجميل وهي ترتدي نفس الملابس التي التقت بها آدم قبل شهر.. وما أن دخلت المتجر حتى انتشرت رائحتها الزكية فيه، جلست على المتكأ الصغير اليتيم في ذلك الكهف الهرمي الشكل بأبعاده الثلاثية الذي كان يعمل فيه من قبل شيخ يبيع المكسرات، لكنه لم يوفق في تجارته، فاضطر لتركه، آدم لم يكذب خبرًا، جلس بجانبها لصيقًا، جبار امتعض، غلي الدم في عروقه، خجل واحمرَّت أذناه، صاح:

- آدم، كن أكثر تعقلاً، الزبائن ينظرون لكما، ابتعد قليلاً عنها، ستسبب لنا مشاكل لا حصر لها..

وأراد أن يكمل كلامه.. قاطعه آدم بفعل حيث غرس يده اليمنى في جيب تنورة إخلاص والأخيرة شجعته بذات الجرأة، فأدخلت يدها اليسرى فامتلأ جيبها بأيديهما التي تعانقت بشوق عارم ورغبة محمومة! انتفض جبار، نهض من كرسيه الرابض خلف طاولة البيع الخشبية الصغيرة التي نجرها لهما صديقهما أمجد مجانًا من بقايا بعض قطع الخشب التي يتاجر بها أبيه كهدية ومساعدة منه لأصدقائه، على الرغم من أنه لم يكن يود جبار أو على وفاق معه.. همست إخلاص بأذن آدم برقة مغالى فيها:

– لم تخبرني بعد.. ماذا يقول ذلك الذي يراني منذ الوهلة الأولى.. وعدتني بأن تفشي سرك لي قبل التحاقك بالمعسكر، أم نسيت؟.

ضحك ثم رن صوته مداعبًا:

– الحقيقة التي لا مراء فيها هي إنك فتاة جميلة رقيقة، ومن يراك لابد أن يصدم بجمالك.. هذا ما أردت قوله..

ابتسمت بغنج وطلبت منه رقم هاتفه وطفقت:

– سأتصل بك اليوم ليلاً، ابق بجانب الهاتف.

ثم ناولته ورقة صغيرة مطبقة بشكل محكم كما تطبق العلكة بورق السوليفان، وقالت:

– اعتنِ بها..

ثم نهضت وهي تودع جبار بابتسامه جعلته يكفر باليوم الذي ولد فيه، لأنها لم تستعبره كما لاقى صديقه منها من إعجاب ومودة واهتمام.

• • • •

لم يجعل هاتفهم في البيت يرن طويلاً.. رفع السماعة وهو متأكد من أنها إخلاص.. حتى صدق ظنه، قالت:

– كيف حالك الآن؟ ثم أردفت: لقد قلقت عليك الشهر الفائت كثيرًا، أردتك أن ترجع سريعًا، لن أجعلك تذهب عني بعيدًا...

obeikandl.com

قاطعها بحنكة:

– ماذا.. أراكِ تقولين شعرًا..

ضحكت وهي همس:

– من أجلك، سأفعل كل شيء!.

– رائع، صاح آدم وتابع: هل يمكن رؤيتكِ خارج أسوار الكهف؟..

بتوجس:

– أي كهف تقصد؟

ضحك وهو يشرح لها:

– آه.. نسيت أن أذكر لكِ بإنني أطلق على متجرنا الصغير كهفًا.

– حسنًا، فهمت الآن، ونوهت: ما رأيك أن نلتقي عندكم؟.

بحذر وجدية:

– عندنا أين؟.

– بيتكم!.

– ألا تخافي مني؟

– كلا.. لي نظرة لا تخيب، تصيب دائمًا، أنت تختلف، إنسان بحق..

– كيف عرفتِ؟

– من رنة صوتك، من نظرتك، من كلامك..

في هذه اللحظة وقع ما لم يكن في الحسبان.. سمع أصوات ولغط وصراخ لم يستطع أن يعرف مصدرها سوى بكاء وصوت إخلاص

opeikandi.com

وهي تصرخ وتقسم بأغلظ الإيمان بإنها لم تكن تتكلم مع رجل!، بل مع صديقتها.. لكن ومن الظاهر أن أخوها كان يسترق السمع، صاح بها وهو يكيل لها الشتائم والصفعات: لا تنكري يا ساقطة، لقد سمعت صوته بوضوح وهو يقول لكِ ألا تخافي مني!.. نعم، أنا لا أنكر ذلك لكنه لم يكن يتكلم معي، بل مع أخته التي هي صديقتي!!

هكذا كان آدم يسمع صوت المتقاتلين والخط مازال مفتوحًا وسماعة الهاتف لم تغلق؛ سمع كل شيء، إخلاص كانت بذكاء ترفض أن تعترف بإنها كانت تتحدث مع شاب، وأخوها مصممًا على موقفه: لقد سمعته بوضوح وهو يجيبك على ماذا لا أعرف، لكنه كان يتحدث معكِ، ثم سمعه آدم وهو يصرخ بأمه.. عليك أن تأخذيها للدكتور للتأكد من عذريتها.. إخلاص ما انقطعت عن البكاء والنحيب وهي ترفض الاعتراف.. فاضطر آدم من إغلاق الخط بعد أن عرف أنه تسبب في مشكلة كبيرة لها من أول مكالمة هاتفية بينهما..

• • • •

openkandil.com

كميئوس لا فائدة منه تُرجى ظلَّ واجمًا، مطرقًا ومتأملاً في الكيفية التي يساعد بها تلك الفتاة الجميلة التي ظهرت فجأة في حياته.. حتى دخلت عليه لمياء زوجة أخيه سعيد وهي تسأله:

– ما لي أراك واقفًا صامتًا كالتمثال؟ هل هناك مشكلة؟ هل لي أن أساعدك؟ احك ما بك؟.

فبرقت له فكرة جهنمية.. سحبها من يدها ودخلا غرفتها، جلسا على سرير نومها العريض المفروش بأناقة تنم عن حسن ذوقها، قال بسرعة وكأنه محشور بالكلام:

– لقد تسببت في مشكلة كبيرة لفتاة تعرفت عليها منذ فترة قصيرة، بل للتو، ثم صحح الكلمة، أعني حصلت بيننا قبل لحظات أول مكالمة هاتفية وسمعنا أخوها فضربها وهو الآن يهددها بالقتل ويطلب من أمه أن تذهب بها إلى دكتور لفحص عذريتها..

فقاطعته لمياء مستاءة:

– كيف عرفت هذه التفاصيل؟.

– منهم، رد عليها وتابع: بقي الخط بيننا مفتوحًا، كنت أسمع صرخاتها وأخوها يضربها ويشتمها بكلمات بذيئة وكلام من هذا الذي تعرفينه يكون حاضرًا في ظروف كهذه..

– نعم، نعم.. أنا أتفهم ما تقول، وبعد هنية أمرته: تعال معي.

باستغراب:

obeikandi.com

– إلى أين؟

– ستعرف حالاً..

وعند الممر الضيق الذي يفصل غرفة الجلوس وباب البيت الخشبي العريض، وقفت بجانب الكوميدو الذي يجلس على رفه جهاز الهاتف الأزرق الجميل وطلبت منه أن يدير لها الرقم! مذعورًا:

– رقمها؟

بثقة وهي تهز رأسها:

– كما سمعت..

ثم سألته عن اسمها. ضرب أزرار الهاتف وأعطى سماعته لها مباشرةً وهو لا يعرف ماذا ستفعل الملعونة التي التجأ لها دون تخطيط كبير:

– ألو من معي؟

سألت أم إخلاص عبر الهاتف بصوت مخنوق منهارة، بسرعة كمن يوزن وقته بالنقود:

– أنا لمياء صديقة ابنتك إخلاص!!

بشعور كمن ينفي عنه الشبهات وهي تتنهد بصوت مسموع كشأن العاجز:

– الحقيقة يا بنتي أنها في وضع لا يسمح لها بالكلام الآن.. أعتذر منك، اطلبيها فيما بعد..

فقاطعتها زوجة سعيد بحنكة:

obeikandi.com

– كيف هذا؟ لماذا تضربونها وهي لم تجنِ شيئًا، ولم تقترف خطيئة!!
الأم مصعوقة:
– ماذا تقولين؟
– نعم، كما سمعتي يا خالة، لقد كنت منهمكة في الحديث معها ودخل ابنك هذا المتعجرف الذي يشك في نفسه معنا على الخط وربما كان يسترق السمع كالجاسوس ثم اقتلع سماعة الهاتف من يد إخلاص بكل رعونة وهو يتهمها بأنها كانت تتكلم مع رجل!!.
ثم استطردت بشيطنة بعد أن جعلت الأم تتعاطف معها وتتأثر بكلامها:
– من يعتبر نفسه؟ ملاك الطهر أم ملك النقاء والصفاء؟! بفعله هذا غير المسؤول يجعلني أعيد النظر بعلاقتي البريئة التي تربطني بابنتكم، أمر لا يصدق ولا يمكن السكوت عليه! سوف لن أجرؤ على الاتصال بها مجددًا، لقد أهانها ابنك وبحضورك وضربها وقال كلامًا ما كان عليه أن يتفوه به، وأخته أنظف وأشرف فتاة عرفتها في حياتي! أعتذر منك يا خالة على جرأتي، لكنكم ظلمتم ابنتكم دون وجه حق...
ثم بإصرار طلبت منها أن تتكلم مع ابنها!! اعتذرت الأم وهي تشعر بأنها غرقت في خجلها:
– لقد خرج هائمًا متشنجًا وعصبيًا، حتى إنني خائفة عليه جدًا وقلقة.

وهكذا حلّت لمياء المشكلة باعتذار أخوها من لمياء بعد أن أعطت رقم هاتفهم لها، واستمرت علاقة إخلاص بآدم فيما بعد سنتين دون رقابة أو منغصات تذكر!! إلا من أمر كاد يصرعهما ويحطم مستقبلهما وقت إلقاء القبض عليهما من قبل رجال حماية القصر الجمهوري عندما كانا في تاكسي عائدين من كلية الطب البيطري بعد أن اتفقا أن يقضيا يومهما هناك ثم يعودان إلى منْزله...

كانا يتسامران في المقعد الخلفي في التاكسي، لم ينتبها إلى الطريق، وصاحب سيارة الأجرة يتمتع بمنظرهما بالمرآة المثبتة أمامه، آدم يفرك يد إخلاص بحب خالص وبرقة أفقدت عقل السائق، كتفيهما متلاصقان، يضحكان همس ويبثان شجونًا غير معلن، مال برأسه نحوها، قَبّل شحمة أذنها، ذابت إخلاص كالشمع وتركته يفعل ما يشاء لحظتها، شعر بتفاعلها، دنت شفتيه من رقبتها الرخامية البيضاء الرائعة، زحفت شفتيه ببطء نحو صدغها، تعلقت نظرات السائق بمنظرهما، لم يطرف له رمش ولم يعرف لحظتها ما كان أمامه ينتظره، فَقدَ السيطرة على نفسه، ضاع في لجة عميقة من النشوة، غرق بها ولم ينتبه إلى طريقه إلا وهم وسط فريق من رجال حماية القصر الجمهوري المدججين بالسلاح، يشهروها بوجوهم بعد أن هيئوا بوقفتهم التي تدل على أنهم سيطلقون النار في أي ثانية،

آمرين بصوت عالٍ مدوي كصوت انفجار قنبلة من الجميع الترجل من السيارة!!

لو ذبحت إخلاص وقتها لن تنفر قطرة دم منها! آدم شعر بالارتباك وهو يسلم هويته الجامعية إلى أحد رجال الحماية، بعد أن اعتذرت إخلاص منهم بأنها لا تحمل أي أوراق تثبت شخصيتها، لكن آدم تسارع بذكاء وهو يبلع ريقه بصعوبة:

– إنها وسن ابنة أختي قمر.. كانت معي وبضيافتي في زيارة للجامعة التي أدرس فيها ونحن الآن في طريقنا للعودة حيث نسكن في منطقة البنوك، وإذا كان السائق لم ينتبه لطريقه وتجاوز في سيره حتى دخلنا لا أعرف أين، فلم نقترف ذنبًا نستحق عليه الحجز أو العقاب..

قاطعه صوت النقيب الذي كان يرفع مسدسه عاليًا صارخًا بحنق لا مثيل له وبلهجة عراقية دارجة:

– انجب*، ولا نفس، قف جانبًا وانتظر أوامرنا.

وهو يسحب السائق من ياقة قميصه الأبيض المتسخ الذي ينقصه زرين في وسطه، فظهرت بطنه مندلقة على حزام سرواله وكأنها رأس مصلوب، يشتمه النقيب ببذاءة سوقية دون اعتبار:

---

* انجب : اصمت

- הבא -

obeikandi.com

- قواد.. لقد تجاوزت سيطرتين دون أن تتوقف، أوهمتنا بأنك أحد مخبرينا الذين ينقلون المسؤولين والذين يعملون معنا وقد تعودنا منهم أن يأتوا بسيارات أجرة كسيارتك للتمويه، لكنهم يمتلكون كلمة السر، يسيرون ببطء قبل وصولهم سيطرتنا، يتوقفون، يطلقون التحايا أقصد، السباب والشتائم التي تعودنا سماعها، لكنك لم تفعل شيئًا، كنت تقود سيارتك اللعينة كالمسحور، ترى ما وراءك؟! اعترف وإلا جعلتهم يسلخون جلدك المدبوغ الأسود هذا..

انفجر السائق بالبكاء الممزوج بالعويل وهو يردد:

- أعترف بماذا؟ أنا رجل من الرمادي، لا أعرف طرق بغداد بشكل جيد، استأجرني هذا الشاب من منطقة أبو غريب متوجهين إلى منطقة حي البنوك كما قال صادقًا، هذا كل ما في الأمر، لم نكن نقصد إيذاء أحد، أقسم بالله العظيم، بالعباس، برأس سيد الشهداء الحسين عليه السلام، أستحلفكم بديننا وحق جاه النبي أن تدعوننا نغادر بسلام، فتش سيارتي يا سيدي، لو وجدتم شيئًا يستحق أو تشكون به.. رقبتي هذه أمامكم، جزوها يا سيدي..

وهو يضرب رقبته كما يضرب من يريد شراء رقية!! والنقيب يرد عليه ببرود مريض:

- سنرى، لا تستعجل رزقك، سنجز لك رقبتك الوسخة بإذن الله..

ثم اتجه نحو آدم وطلب منه ومن إخلاص أن يذهبا بسلام ويتركان سائق السيارة يهتمون بشأنه وأمره، بعد أن أشار لهما الطريق الذي يوصلهما خارج أسوار قصرالسلطان وأرجع له هويته الجامعية بعد أن تأكدوا من صحة ادعاءاته على أنه طالب في كلية الطب البيطري ويسكن في حي البنوك فعلاً ولم يكذب بما أخبرهم به.. إلا بعلاقته وقرابته من إخلاص، وهذا الأمر لم يشكوا فيه ولم يتأكدوا منه لحسن حظهما.. اعتبرا خروجهما سالمين نعمة منّها الله عليهما، وبعد مسيرة نصف ساعة أو أقل ظهر لهما الشارع الرئيسي.. وقفا بانتظار سيارة أجرة تقلهما حتى ظهر صاحبهما مجددًا، السائق الولهان المعذب برؤيتهما حتى كاد يروح فيها. اعتذر منهما وهو يضحك بخبل غير مصدق ما حصل له وبأنه زاغ من قبضتهم وعاد حرًا طليقًا يقود سيارته ويعرعر بمقودها محتفظًا برقبته كاملة تحمل رأسه الثقيل!.

opelkandi.com

- ١٠ -

عند العاشرة صباحًا وفي اليوم الثاني من أيام العيد كان آدم ووسن ومروان ومجيد في ساحة الرياضة كما اتفقوا.. وما هي إلا لحظات حتى طلّت المجموعة المتكونة من كمال وسارة ونداء وولدي أختهم سمر رند ورامون، في تلك اللحظة ظهرا فجأة ولدي نصير، نوري وميسم وأختهما ضي.. تبادل الشباب التحايا وبين البنات القبل..

سأل آدم سارة عن أختها أنهر، قالت وهي تغمزه:

- كعادتها تتأخر دائمًا، ستأتي فيما بعد، ثم أضافت بمكر بصوتها المميز: هيا.. لننقسم إلى مجموعتين، وعندما تصل تستطيع أن تلعب معنا لو شاءت..

آدم لم تعجبه طريقة أختها في الحديث عن أنهر وبغيابها، رد عليها مقتضبًا:

- أفضل أن ننتظر قليلاً حتى تأتي..

قاطعته نداء نابصة:

- لا، لن ننتظر أحد، هي هكذا، لا تهتم للوقت ولا لمواعيدها، تراها الآن مازلت تستحم أو تصفف شعرها، ثم أنهت جولتها بخبث ساحق: أختي وأعرفها..

obeikandl.com

آدم لم يرق له تصرفات أختيها، قال:

- يمكنكم اللعب بدوني، سأذهب إليها ونأتي معًا..

وغادرهم دون تردد.. وصوت كمال يصله وراءه، لا تتأخرا..

تم تقسيم المجموعة إلى فريقين، ضمَّ كمال في صفه كل من وسن وولدي أخته رند ورامون وابن نصير الكبير نوري، في حين كان الفريق الآخر من نصيب نداء.. فرحت كثيرًا لأنها ستلعب بجانب مجيدها، مروان امتعض بوقفته شاخصًا كمسلة عتيقة، وجد القسمة غير عادلة، قال هامسًا: غلبني آدم حتى قبل أن نلعب! أنهر ستكون معه، بصحبته، هذا يعني في حوزته، سوف لن يتخلى عنها، أنا أعرفه كما أعرف باطن يدي.. مأساتي مع فضاء لا تريد أن تنتهي، أعني القدر لا يريد أن يساعدني كي أنساها، حظي سيء، سأبقى أعاني الأمرين.. من منا يستطيع أن يهرب من قدره؟.

فما أن انتقلت أسرة مقبولة زوجة أخيه نصير إلى بيتهم حتى تعلق بأختها فضاء تعلقًا لا فكاك منه، أحبها بجنون كطبعه، بادلته نفس المشاعر الجياشة، بقيت علاقتهما سرية في بادئ الأمر، سرعان ما اكتشفها أخوها سلام، صال وجال وما انقطع من الترديد: يكفي ما نهبه نصير منا، فضاء لا، لن اسمح بأن يخطفها هذا الهلفوت.. وأقسم أن يبعد أخته عنه، وجد لأهله شقة متواضعة فوق السطوح

obeikandi.com

في حي الصالحية المطل على ضفة نهر دجلة وأجبرهم على الانتقال، خاصة بعد أن تشاجر مع مروان حين رصد تحركاته وكاد يطعنه بسكين جيب صغيرة، لم تترك غير أثر بسيط في جسده، مارس الضغط على أخته حتى جعلها تحاول الانتحار برمي نفسها في النهر، خلصها الجيران بمعجزة، وجدوها شبه طافية على سطح النهر، الله كتب لها عمرًا جديدًا، تزوجت بالإكراه من ميكانيكي للسيارات مقيم في الكويت، هذا ما خطَّط له أخوها بمكر، كان داهية عندما يركبه الشر، بزواجها من الميكانيكي انتقلت معه لتعيش في الكويت وبذلك نفذ سلام قسمه وأبعد فضاء عن مروان بخبث لا يعرفه الشيطان! صفّر كمال لبداية المباريات.. وانهمكوا باللعب ملتهين.

••••

ضغط آدم زر الجرس. ظهرت له أنهر مبتسمة كأنها تتوقع حضوره. بظهورها انتشرت رائحتها الزكية، ترتدي قميصًا بنصف ردن مثل لون عينيها، تحته بنطال قصير حد الركبة أخف لونًا من قميصها، كان رائعًا... زادت ملابسها من فتنتها رغم بساطتها، شعرها ترنح على كتفها، لم يزعجها ذلك، تركته بحريته... رحبت به قائلة:

- تفضل، أمي وأبي مازالا في الشقة وأردفت: أعتذر لأنني تأخرت عليكم، انشغلت بتحضير قهوة أبي العربية المطحونة بحبات الهيل

opelkandil.com

التي يحبها عند الصباح، يقول: لا أستطيع مواجهة يومي إذا لم أشرب قهوتي من يد أمهر..

قاطعها بذكاء:

– إذن سنجرب قهوتك وبعدها نحكم إن كان السيد الوالد على حق؟

ضحكت بدفئ نوراني وقالت:

– خوش.. سأجعلك تجربها لكنك سوف لن تتخلى عن شربها بعد اليوم، أعدك بذلك!

– هل أحسب هذا اعتداد بالنفس أم غرور؟

– لا هذا ولا ذاك وأضافت: يمكنك أن تقول إنها الحقيقة..

تركته في صالون الشقة وذهبت إلى المطبخ، ظهر داوود في بيجاما النوم، صبّحَ عليه وقال:

– من أنت؟

– أنا يا عمي آدم أخو نصير، ألم تعرفني؟

مرواغًا بحنكة:

– بلى، لكنني أردت أن أختبرك!

– وما هي نتيجة الاختبار؟ طمئنني..

– أقول إنك شاب رائع يا آدم وأتمنى أن يكون أحد أزواج بناتي واحد مثلك..

خرجت بدرية من غرفة النوم ممتعضة:

obeikandi.com

– بماذا تهذي يا رجل؟ مثل هذا الكلام لا يقال بحضرة أحد..
قاطعها آدم باحترام:
– أنا يا خالة ليس أي شخص، اعتبريني بمنْزلة كمال..
غيرت من لهجتها العدائية:
– لم أقصد ذلك يا ولدي، بل أردت أن أقول لزوجي العزيز أن يختار كلماته بدقة، أن يفكِّر بها قبل أن يطلقها في الهواء.. أنت بالفعل شاب مهذب ومثل كمال ابني بالضبط... ثم سألته: كيف أختي أم نصير؟
– على أحسن حال، هي تفكر بزيارتك.. ربما تتصل بك قبل ذلك.
ظهرت أنهر وبيدها صينية ستيل صغيرة وفي وسطها يجلس فنجاني القهوة.. التقط أحدهما وهو يصوب نظره نحوها، رآها فجر أخاذ رائع الطلعة، همس برقة: يا الله.. سيكون حكمي عليها قاسيًا.. رشف منها على مهل، كانت القهوة ساخنة، ردد:
– عال، رائعة، طيبة المذاق رغم مرارتها، صاح مفتونًا: كيف صنعتها؟ وتابع: كل يوم نشرب القهوة العربية لكن لم تكن ذا بال، هذه تختلف، لها مذاق ونكهة خاصة، عمي أبو كمال على حق، أحسنتِ يا أنهر، قهوتك ستدخل التاريخ لمذاقها الفريد.
أطرى داوود على كلام آدم مضيفًا:

- إذا أردت التعرف على أهر عليك الاقتراب منها. عندها ستذهلك دميتي هذه، ملاكي الذي يحرسني.

دنت من أبيها، قبلت رأسه وهي تسأله:

- هل تريد فنجان آخر؟ وأضافت: على الرغم من إني لا أنصحك بذلك، فقد شربت فنجانين وهذا يكفي لهذا الصباح..

أجابها:

- شكرًا لكِ، أريد أن أشم رائحة النبيذ بعد قليل، هذا يكفي كما قلتِ..

طلب آدم الإذن منهما لمصاحبة أهر والذهاب معها إلى ملعب الكرة.. وافقا على طلبه، همس داوود في أذنه:

- احذر على أهر.

- من عيني..

أجابه آدم، وخرجا..

••••

في الطريق سألها بشجون المحبوس:

- كيف تسير معك الدراسة؟

- كل شيء على ما يرام إلا اللغة الإنجليزية اللعينة، أفهمها، أتحدث بها بشكل جيد، لكن أجد صعوبة في التحريري، لم أستطع ترويضها.

obeikandi.com

ثم غيرت مسار الحديث:

– عرفت أنك قارئ جيد..

قال هامسًا وكأنه يناجي ملاك في السماء:

– لدي مكتبة تعجبك كثيرًا مثل مدينة من مدن الله!!

ضحكت بصفاء وعذوبة يفتقدها الكثير من نسلها وهي تعقب باستغراب:

– عجبًا من وصفك، وما هي مدن الله؟ لم أسمع عنها من قبل!

انعكس فرحه على وجهه، بدا مرتعًا بالعافية، وباعتداد نوه شارحًا:

– تلك التي تجدين فيها كنوز المعرفة، مدن مثل أثينا، الأسكندرية، بغداد، روما وغيرها من المدن التي تشتهر بمكتباتها.. ومكتبتي لا تقل شأنًا عن أخواتها من مدن الله..

وهي تبتسم بجذل..

– جعلتني أتوق لرؤيتها..

– وما المانع؟ سأجعلك ترينها، بل تستطيعين أن تستعيري منها ما شئت.. وأضاف غامزًا: لقاء أشياء رمزية!.

– خوش.. هذا لطف منك.. لكن ما هو ذلك الشيء الرمزي؟

– رؤيتك...

قال ذلك وخفض نظره.. أنهر خجلت من تنويهه، احمرّت وجنتاها، طوّحها بكلامه المفاجئ الجريء، لاذت بالصمت، هو أحب صمتها

obeikandl.com

الملائكي لحظتها، صمتها كان مهيبًا مثل صمت الغابة.. عندها تطوع سائلاً فكسر بسؤاله الصمت المهيمن والمخيم عليهما:

– بالحق، ماذا يعني اسمك؟

– الحُسن، النقاء والصفاء..

قالت ذلك وهي تعيش لحظات تجلي غير عادية، فزاد من خجلها مثقالاً قوله:

– إذن اسمًا على مسمى، ثم أردف متخابثًا: فأطلق على صاحبه ما اجتمع فيه من حسن الخصال وروعة الجمال.. تُرى ماذا يتمنى المرء أكثر من ذلك؟

لوح بيده وكأنه يهش غنمًا بعصاه مُنهيًا كلامه متندرًا:

– المدن التي يكثر فيها المؤمنين ترين فيها الكثير من العجائب!.

لم تنبس أنهر ببنت شفة على تعقيبه، هامت في خيال رحب لم يعلم آدم عن سره شيئًا، طمأنها ظنها، صدّقت شعورها.. وصلا ملعب الكرة، وجدوا القوم منهمكين، متعبين وغارقين في عرقهم.. رحبت أنهر بهم وأشارت:

– ها.. ما هي النتيجة؟

بفخر زائد صاح كمال:

– طبعًا من صالح فريقي.. وتابع: هيا اقتربوا، يمكنكما اللعب، وسألهما: إلى أي فريق تودان الانضمام؟

opeikandi.com

شكرته أنهر ونوهت:

- استحممت للتو، لا أريد أن أغسل شعري مرة أخرى، غسل الشعر بهذه المواد الكيمائية القاتلة تجعله يفقد رونقه ويخطف لونه يصبح والعياذ بالله كأسلاك الكهرباء المشنترة[*]... قالت ذلك وهي تمسك بخصلة من شعرها، ثم أضافت: سأكتفي بالنظر لكم.

وهمست لآدم:

- يمكنك اللعب معهم، قراري هذا لا يسري على غيري..

آدم كذلك، لم يكن يرغب باللعب في تلك اللحظات، الجو كان دافئًا، الساعة لم تتجاوز الحادية عشر والنصف، النسيم الآتي من جهة البحيرة كان منعشًا يسعد الروح، سألها:

- ماذا تقولين لو نتمشى قليلاً؟

- فكرة رائعة، أريد أن أعرف المزيد عن مدينة الله التي حدثتني عنها.

- اتفقنا.

ودّعوهما، الآخرون لم يبالوا بهما كثيرًا، كانوا منهمكين بالكرة، ما عدا سارة التي صاحت بهما بصوتها المخنوق الذي يشبه عواء الريح أو أنين المرضى:

- إلى أين؟.

---

[*] المشنترة : المنتصبة

opelkandi.com

- سنتمشى قليلاً ونعود..

قالت ذلك أهر... وغادرا المكان..

• • • •

اتجها صوب الشاطئ، الشارع كان نظيفًا كنسته الرياح، فيه انحدار بسيط، سرعتهما ازدادت دون قصد منهما، بدآ بسرعة رتيبة، سرعان ما ازدادت بسبب انحدار الأرض، لم يتوقفا في الطريق أثناء الحديث، آدم لا يحب هذه العادة التي يتعلق بها البعض، يمقتها، من يمارسها معه يجعله يفقد أعصابه بسرعة، يكون لا صبر له، طيبته تختفي فجأة، يركبه ألف عفريت، يصيح بصاحبه: لماذا توقفت؟ ألم تستطع السير والحديث في آن؟

بعد أن سارا بضع خطوات سألها مباغتًا:

- انظري إلى هناك!

تتلفت حول نفسها ولم تعرف بالضبط ما كان يقصد:

- انظر إلى ماذا؟

- إلى تلك الشجرة!

استغربت، إذ لم تجد فيها ما يلفت النظر:

- ما بها؟

- بعفرتة: تشبهني!

ضحكت عندما دققت النظر فيها فوجدها نحيفة تتمايل أغصانها مثل أوراقها مع سير الريح، نهرته برقة:

– لماذا تصف نفسك هكذا؟

سرح في الأفق الذي يحمي ظهر البحيرة، وقال:

– سألوا مرة الشاعر التركي العظيم ناظم حكمت لماذا لا تكتب في دواوينك إنك شاعر؟ قال بجدية متناهية: لأنني لا أقبل العيب على نفسي! وأردف: الشعر ليس عيبًا، لكنني وبالرغم من إنني أنظم الشعر منذ قرابة أربعين عامًا لكنني لا يصح أن أطلق على نفسي شاعرًا، أترك جمهور القراء هم الذين يقولون في ذلك كلمتهم!.

ردت عليه متحمسة بعد أن استدرجها للحديث:

– هذا يعني إنك تقول عكس ما تحمل وبذلك تكون كالعارف المتواضع؟

– لن أرد، سأترك الآخرين هم الذين يقدرون ذلك على وزن شاعرنا العظيم ناظم رحمه الله..

قال ذلك وابتسم ثم شرع بقلب مليء بالورع مسترسلاً في حديث جهنمي:

– اسمعي، تودين أن تعرفي المزيد عن مدن الله، أليس كذلك؟

لم ينتظر الجواب، تابع بشغف وهي تومئ برأسها علامة الإيجاب:

opelkandil.com

- على الرغم من أن شريعة الدين لا تتفق مع قوانين العلم، لأن الأخيرة متغيرة وعقيدة الدين ثابتة، يبقى الله يحب المعرفة.. خلق الإنسان وجبله على الحب القدري، صوّره وهو يتوق إلى المعرفة، جعله فضوليًا يريد أن يعرف كل شيء، توّجه بحب الاستطلاع وخاصية التقصي، فلماذا نأتي نحن ونخالف رغبة الله؟.

ثم عطفَ متابعًا:

- سأل يومًا الروائي العالمي نيكوس كازانتزاكيس شجرة اللوز: أريني الله يا أختي، فأزهرت الشجرة اللوز.. هكذا هي الحقيقة.. الله سبحانه وتعالى موجود، لكن الناس لا ينظرون في حياقم إلا بعد موقم!..

قاطعته مبهورة:

- ما قالته لي وسن ليلة أمس لم يكن إلا جزءًا من الحقيقة!

- أي حقيقة؟

- أنك ساحر، تسحر محدثك وتجعله يسكر برحيق كلامك دون وعي أو إرادة!

ضحك، هز كتفه بثقة ونبر:

- وماذا عنكِ؟

- أنا!

- نعم، ومن غيرك أمامي... ثم استدرك:

obeikandi.com

- إن ما شجعني لرؤيتك هذا الصباح هو جرأتك، وضوحك وشخصيتك القوية التي يراها الضرير في عينيك!!.

خفضت رأسها نحو الأرض، نظرت إلى أصابع قدميها، كانت تنتعل حذاءً صيفيًا بسيور بنية اللون، ظهرت من تحتها أصابعها.. بخجل مؤنس:

- خوش.. وماذا بعد؟

تابع دون تردد:

- هكذا فتاة وبسنك من الصعوبة أن نجدها في مجتمعنا الشرقي الغافي على سطح حاضر الرومانسية والغارق في ذكرى التاريخ الذي لن يعود، وبما إنكِ عرفت من الفقمة ابنة أختي أنني طالب جامعي، اكتشفت من خلال دراستي أن الحيوان أحيانًا يكون أرحم من الإنسان، أكثر وداعة ولطف، الفرد منا نجده يراوغ، يكذب، يخون، يدس الدسائس لأخيه ويقدر على القتل بدم بارد كذلك، الذئاب لا تأكل فصيلتها، الإنسان يستطيع فعل ذلك ثم نراه يصلي في المساء وكأن من ذبحه كبش العيد! في وقتنا هذا لا نجد من نسل البشر من هو صادق وحقيقي إلا ما ندر وشذ.. أحببت الحيوانات رغم خوفي منها، وجدتها أكثر براءة من كثير من أبناء نسلنا، مشكلتنا الرئيسية هي إننا لا نعترف جهرًا ولا سرًا بذلك، نخاف من أنفسنا والحسد كما نخاف الموت، بل يوحي لي أحيانًا أن

obeikandi.com

الشرقي يهاب الحياة أكثر من خوفه من الموت! لذلك يكثر من شرب الخمر ويغرق في عالم وهمي يصنعه بنفسه، يترك عالمه الواعي، لا يريد أن يدخل ذلك العالم، يجد فيه مأساته، همومه وعذاباته، لكن يتناسى صاحبنا المسكين أن الوهم هو عالم المجنون الذي يعيش وسط أحلام يرسمها له ذهنه المفقود، الذي يجهل أبجدية ورموز العقل..

قاطعته:

– لم تذكر كيف يستطيع الإنسان أن يعترف، أقصد، لمن يعترف؟

– لم أعنِ المواجهة مع الآخرين، قصدت أن يبدأ بالتصالح مع نفسه، أن يصادقها، ومتى ما حصل هذا؛ عندها يظهر التوافق طافيًا نقيًا بين ضمير الإنسان، لسانه وفعله، ساعتها يكون قد حقق نصرًا على ذاته، يقول ما يريد إلى العالم أجمع دون أن يطرف أو يهاب، وقتها لا يخشى إلا الله، وما دام قد وصل من النقاء أصفاه، لا خوف عليه.

سألته وهي تعقد حاجبيها اللذين يشبهان سيفين بلهجة كأنها تسترضي طفلاً يبكي:

– ماذا عن المطالعات الخارجية، هل تتأثر بكل ما تقرأ، أم تأخذ ما يفيدك فقط؟

برنة لها هيبة الأحزان:

– القراءة تجعلكِ تفهمين ما يدور حولك، كلما تعمقت في المطالعة وتبحرت فيها أصبحتِ أكثر تواضعًا، لذلك الجاهل يكون أعظم

الناس تكبرًا، وهنا لا يسعني إلا أن أقول، إنني أقرأ كل شيء، ولا آخذ إلا ما يفيدني، أحب استقلاليتي كثيرًا، كما حريتي الفكرية، لذلك تجدينني وأنا بهذا العمر وفي ظرفنا القلق الخطير مستقلاً، لم أنتمِ لأي حزب ولن أنتمي..

- عجبًا!

- وفيما العجب؟

- أنا كذلك، لا أحب الأحزاب، ولا السياسة..

نظر في عينيها بدقة، همس بصوت خفيض لم يسمعه غيرهما:

- السياسة لعبة قذرة، امرأة فاجرة، رجل خائن، لا أقربها، لا أطيقها، ولا أميل إلى منتسبيها.. وسياسة من يحكم العراق واضحة: يخافون من الطبقة المتعلمة المثقفة، يشغلونهم بأي شيء كي يشعروا بالتعب، بعدها لا يستطيعون التفكير بتركيز في أمور العراق وسياسته، المهم مضايقتهم، الحق ليس الهدف المنشود، البقاء في الحكم والسيطرة على ثروات العراق من أهم برامج الحكومة، أن يجعلوا الناس يلتهون في معيشتهم أنجح الطرق لإبعادهم عن القرارات، إذا أردتِ أن تكوني طبيبة افعلي، ادخلي كلية الطب وستجدين نفسك بعد ست سنوات تمارسين المهنة، لكنهم يحبسونكِ داخل الحرم الجامعي النهار كله دون حتى محاضرات، يعطونكِ حصة في الصباح والثانية بعد الظهر من أجل أن ترجعين إلى بيتكِ في المساء وأنتِ جائعة،

obeikandi.com

متعبة، منهكة ولا تريدين إلا أن تتناوشين السرير لتنامي، لتصبحي مجددًا عند الفجر لاستقبال يوم جديد لا يختلف عن سابقه، هذا كل ما في الأمر.

بلع ريقه وتابع بلوعة الاشتياق:

– قال لي مسجل الكلية ونائب عميدها الذي تربطني به علاقة إنسانية جميلة يومًا: "إذا كان طالبنا الجامعي طابوقة في الصف الأول من دراسته، سنخرجها ونعطيها شهادة بكالوريوس في سنتها الرابعة، لكنها يجب أن تبقى وتكون كما رأيناها طابوقة! لا تشعر، لا تتكلم، لا تسمع ولا تناقش أو تجادل، لكننا سنمنحها شهادة لقاء جمودها!"، وسألته لماذا تركزون على طلبة الجامعة؟ ضحك وأشار إلى رأسه وكأنه يقول: مجنون أنت! وتابع: نركز اهتمامنا على الطبقة المثقفة المتعلمة التي تقع عليها المسؤولية في المستقبل، نكسرها أو نجمدها لنبقى نحن في الحكم، كان يقول ابن اللذين: الجاهل لن يخيفنا، المتعلم هو رأس الحية.. ثم عطف آدم قائلاً وعيناه تشعان طيبة ووداعة: صدقيني يا أنهر.. نحن خراف الله كما يقال، نُذبح لقاء من يدفع ثمن لحمنا.

ارتاحت لكلامه رغم خطورته، وجدته منطقي، خاطبت تسر ذاتها: فلسفته رائعة، فيها حكمة، يستطيع المرء أن يستفيد من عِبرها،

وحججه قوية كحجج عزرائيل عندما يريد أن يأخذ روحًا انتقاها، بعد تفكير وسألته:

- ماذا عن دراستك؟ لقد عرفت أنك لا تُحب تخصصك، لماذا أجبرت نفسك عليه إذن؟

بغصة:

- اسمعي، هذه قصة طويلة سأحكيها لكِ فيما بعد، لكنني أستطيع أن أقول مختصرًا: العازف عندما تقصين أصابعه ماذا تنتظرين منه؟ أو أن تشقين طبلة أذن الملحن أو تقطعي يد النحات أو الرسام وما إلى شابه.. ماذا سيتبقى لهؤلاء غير العزاء.. وأنا في لحظة شعرت بأني لا أختلف عنهم قيد شعرة، رفضوا انتسابي إلى أكاديمية الفنون لأنني مستقلاً، لا أحمل أفكار حزبهم، لا أؤمن بها، قرروا معاقبتي برفضي، ساعتها ذبحوني يا أنهر بلا سكين!.

ثم احتواه الصمت فغرق في بحره.. أنهر تألمت لسماع حكايته منه وبأسلوبه، ندمت لأنها سألته، قالت مؤنبة نفسها: يا ليتني لم اسأله، لقد جرحته، بل فتحت جرحه الذي لم يندمل بعد، ها هو يتذكر ذلك بحرقة كادت تأتي عليه، تبًا لي من غبية.. نظر لها من طرف، أحسَّ بشرودها، أراد أن يخرجها منه، قال:

- لا عليك، حدثيني لو سمحتِ عن حياتك قليلاً.. أقصد، هل أنت مرتبطة مثلاً؟

obeikandi.com

همهمت منخفضة الرأس خجلاً:

– لا.. لست مرتبطة على الرغم من محاولات ابن خالتي سيف الفاشلة وضغط الأهل من جانب آخر على القبول به، لكنني مازلت متمسكة برأيي..

فقاطعها:

– وما هو رأيك؟.

– اسمع؛ لقد طلب يد سارة ووافقت عليه، لكن خالتي رفضت أختي ولم تقبل بها زوجة لابنها، ماذا تنتظر مني حيال موقف كهذا؟ هل أوافق عليه بعد أن كان قد قرر الارتباط بأختي ولم يحصل؟ لا يمكن.. ثم أنا مازلت في الإعدادية ومصيري الدراسي مجهول تقريبًا، المعدل هو الذي سيحدد مستقبلي العلمي، فلم العجالة؟.

قال:

– أحسنتِ.. ثم عدّل من قوله وصاح: خوش، جدًا خوش وضحكا كالأطفال وهو يشير لها مطفقًا: انظري إلى هناك..

– ماذا هناك؟..

عثرا على مكتب لتأجير الدراجات الهوائية، خطرت له فكرة جهنمية، باغتها بسؤاله:

– هل ترغبين بركوب الدراجة الهوائية؟

بدلع طبيعي همست:

obeikandi.com

- نعم، جاءت في وقتها، أتوق لفعل ذلك، وأردفت: لا أخفيك، أحب كذلك ركوب الجمال والخيول.

لم يتفاجأ من ردها ورغبتها، هو يعرف أن أنثى من نوع أنهر تهيم بمثل هذه الأشياء، لا تعتبرها مخصصة للذكور فقط، تكره التقييد الأرعن الذي صنعه الذكر متباهيًا متبخترًا بما جاء به كالديك وهو يصيح عند الفجر أو عندما ينبش الأرض مغرورًا.. قال:

- اتفقنا..

سحبها من يدها، لأول مرة يمسكها، لم يفكر قبل أن يقدم على ذلك، واستطرد منوهًا:

- ذكريني أن أحكِ لك قصة المغرور!

جذلة:

- قصة المغرور!!

- نعم.

- ومن يكون صاحب الحظ التعيس هذا؟

- الديك طبعًا!، ومن يكون غيره؟

- سأذكرك بها، لن أنسَ، اعتمد عليّ.

أعطت يدها له دون تردد، هي لم تعتبر إمساك يدها فيه ما يسيء لشخصها.. ذهبت معه وهي مطمئنة وقبلها عامرًا بالسعادة.

opeikandi.com

قبل أن يدخل مكتب تأجير الدراجات استوقفته:

- لحظة من فضلك!

- ماذا، هل تراجعتِ عن رغبتك؟

- كلا، بل أردت أن.. أن اسألك عن أمر لي فضول في معرفته!

- لا ترددي، اسألي ما يدور في خلدكِ.. وصاح بشكل مسرحي وهو يفتح ذراعيه: شبيك لبيك..

ضحكت وهي تضع راحة يدها اليمنى على فمها وشرعت بكلمات متأنية:

- ماذا عن مكالمة الأمس؟ وهل رسمت صورها كما رسمتنا يوم أمس؟

ثم نوهت معدلة عن رأيها: انسَ، لا تقل شيئًا. اعتبر نفسك لم تسمع.

قاطعتها كلماته التي جاءت حاسمة:

- آه.. على ما يبدو أن ذاكرتكِ قوية جدًا.. يسعدني ذلك.

ثم أطلق للسانه العنان:

- في الطرف الآخر من الخط كانت فتاة تدعى إخلاص، جميلة جدًا، ليست من ديننا، لكنها أقرب الناس إلى روحي، تعرفت عليها في ظروف بالغة القسوة، بعد وفاة أخي سعيد بأسابيع قليلة، كنت

obeikandl.com

صادقًا معها حد الشك، حدثتها منذ البداية إنني لا أستطيع أن أحبها، ديني يمنعني، وافقت على شرطي الوحيد، استمرت علاقتنا سنتين كاملتين، لم أجعلها تخطئ ولم اسمح لنفسي أن أتمرد على إنسانيتنا النظيفة أو أن أتجاوز عليها، ربما لهذا السبب تمسكت بي بشكل مثير، كانت تقول: أحببتك أكثر من أمي!، لكنني كنت قاسيًا معها خوفًا عليها، وهذا ما أخبرتها به مساء أمس، أنهيت ما كان قائمًا بيننا، قلت لها بالحرف: أرجو أن تكوني سعيدة مع من سيختاره قلبك، هذه آخر مرة اتصل بكِ.

بكت بقوة، تفتت قلبها، ذاب كما يذوب المعدن في ماء الذهب، شعرت بذلك لكن خوفي عليها أكبر من حبها لي، لم أضعف حيالها قررت وحسمت الأمر.. بعد وقفة تأمل قصيرة، تابع: بلى، لقد رسمتها ولكن على طريقتي الخاصة!

– ماذا تقصد؟

بإيحاء فنان:

– رسمت شعرها وهو يلاعب كتفها وجزء من وجهها فقط!

– ولماذا نصف الوجه؟ ثم تذكرت شيئًا فأدركت: هذا يعني بأنك رسمتنا يوم أمس بأنصاف وجوه؟ أرني الرسم إن كنت تحمله..

مد يده في عبه، أخرج قصاصة الورق وقدمها لها.. نظرت فيها بإمعان وصاحت:

obeikandl.com

- ما هذا؟ نكاد نكون مسوخ أو بالكثير أنصاف منه.. لكن أين صورتي؟ إنك لم ترسمني!.

قاطعها بقوله:

- مازلت لم أقرر بشأنك بعد، أعدك بأن أرسمكِ في وقت قريب جدًا.

وتابع وهو يضع يده في جيب بنطاله:

- الإنسان على حقيقته لابد أن يكون هكذا، اسمعي، رأيت في يوم ما فيلمًا نُقش بذاكرتي كما ينقش الحرف على الرخام، لم يغب عن ذهني لحظة، يتحدث الفيلم عن شابين اتفقا أن يتركا الحياة المدنية ويعيشا في غابة بعيدًا عن ضوضاء وصخب الحضارة.. بعد فترة شاهدا فتاة وحدها تعيش كذلك في نفس الغابة، تقاتلا عليها ومن أجلها، كل شاب كان يريدها لنفسه، هذا هو الإنسان على حقيقته دون رتوش أو ألوان، لن يستطيع أن يتغلب على نكران ذاته.

قاطعته مازحة:

- هذان الشابان لهما طبع سارة أختي، يا الله.. تقول عكس ما تفعله، وتفعل عكس ما تقوله.. ثم بعين باسمة أضافت: المتدين الحقيقي يُقتل ولا يَقتل، منْ يَقتُل باسم الدين لا دين له، يكفر في دنياه!.

بسخرية تقطر مرارة:

- صدقيني يا أمر، ربما تكون سارة كذلك، لا وجود للكمال، ما نراه غالبًا ما يكون نصف الحقيقة، نحن نحتال على بعضنا البعض قدر

obeikandl.com

طاقتنا، البشر ماكر مع نفسه والآخرين، يعرف متى يضحك ومتى يبكي، في أحيان يكون صادقًا وحقيقيًا كالمرآة المصقولة، لكني ومازلت أقول.. هذا يحدث أحيانًا وليس كل وقت، وأنا لم أرسم إلا ما أقوله وأؤمن به، ربما أكون على خطأ، لكن هذا ما أراه على أقل تقدير.. خفض بصره وأضاف: رسمتها بعين واحدة لكن برمشين وحاجبين، العينين لا أرسم منهما إلا واحدة، لأنها تعبر عن البعد الذي لا نراه، الحدس، الشعور، من يقابلها ويعاشرها هو فقط من حقه أن يكمل رسمها، لقد أبقيت طرف مهم من شخصيتها مجهولاً، هي لم تمتعض، بل علقت اللوحة في متجر أمها للحلاقة، بعد أن طلبت مني أن أوقعها بحرف اسمي الأول فقط وفعلت. كذبت على أمها حين سألتها عن الرسام، قالت: صديقتها في المدرسة رسمت صورتها، هي حدثتني عن ذلك..

توقف عن الكلام، أحسّ بأنه تفوه بكلمات ما كان الأجدر به أن يصرح به أمام فتاة يتعرف عليها للتو.. سر ذاته: هي أرادت أن تعرف الحقيقة، وأنا لم أقل غيرها، هكذا أفضل، نعم.. وهو يهز رأسه، هكذا أفضل.. أنها لم تنبس بكلمة، شعرت بإكبار له وبحرقة في قلبها على ما آلت إليه إخلاص، لكنها كانت تحب دينها، لا ترغب بعلاقات من هذا النوع، بقت على شرودها حتى استأذنها.

• • • •

دخل مكتب التأجير بعد أن طلب منها الانتظار في الخارج، كان المكتب صغيرًا من الماربلكس*، واجهته الأمامية متحركة صنعت من الزجاج، في النهار تُطوى كما يطوى الورق لتكون مصفوفة على جانب المكتب من يساره، كحارس رفيع القوام.. جاءها بدراجة واحدة وقال آمرًا بلطف:

- هيا، اصعدي أمامي، هذه المغامرة لن تتكرر بسهولة لو رجعنا إلى بغداد..

صفقت للمفاجأة، تحولت أنهر فجأة إلى طفلة في الرابعة، صعدت أمامه وهي تضع ساقيها واحدة فوق الأخرى، وقالت:

- هيا.. انطلق بنا نحو فضاء الحرية..

وهي تضحك بعفوية ساحرة.. في الطريق شاهده أحد زملائه في الكلية التي يدرس فيها، صاح به: مرحبًا آدم.. رد عليه التحية ولم يتوقف، أنهر قالت له: انطلق، لا تتوقف، استمر بالقيادة وهو يميل الدراجة يمينًا ويسارًا، سعيدًا بتلك اللحظات القصيرة من عمر الإنسان، هكذا هي السعادة على الأرض، دائمًا عمرها قصير، آدم يعرف ذلك... أنهر كذلك تفقه هذا جيدًا، هي أشارت له بدقة، قالت: يوه.. انطلق.. في سماء الحرية، لن نسير على بلاط الشارع،

---

* - الماربلكس : الإسمنت الأصفر

obeikandi.com

بل سنحلق كالطيور.. قلبها كان عامرًا بالسعادة يخفق بالغبطة، تحولت فجأة إلى نورس مبتهج يحوم فوق ساحل البحر الذي يعشقه، تمايلت في جسمها مع كل حركة كان آدم يقوم بها لتغيير مسار الدراجة، ميل جسمها كان مثل خيط دخان عود البخور، آدم نسي نفسه، نسي حزنه، صاح بملء رئتيه: يا ملكوت السماء كم الحياة جميلة.. لم يفكر بإخلاص لحظتها، لم يسأل نفسه: ماذا عن أهل أنهر لو يروها معه وهي تجلس أمامه على الدراجة! غاب عن العالم ساعتها، ماذا يعنيه ما على الأرض وأنهر طلبت منه أن يطير بها ومعها، هي لا تريد أن تترجل، كرهت السير على أقدامها، تريد أن تطير.. وها هو آدم يحقق لها أولى أمنياتها في الحياة..

بدا وكأنهما تقاسما روحًا واحدة، حلّت فيهما كرحيق الصلاة، سَرت مع دمائهما، صارا كيانًا نفسيًا واحدًا، لا تستطيع أن تفرق بينهما.. حتى صادفتهم أختها الكبيرة سمر فاستوقفتهم عنوة وهي تصرخ بوجهيما:

– ما هذا الذي أراه.. إلى أين؟

صعقت من مباغتة أختها لهما، وعت أنهر على نفسها من سؤالها، أسقطتها سمر على أرض الواقع الصلبة، كسرت خاطرها، حطمت أحلامها التي لم تولد بعد، أنهر تعرف أهلها جيدًا، لن يصمتوا، ستقوم القيامة، سيحاكمونها بجلسة طارئة وسريعة، سيوجهون لها ألف اتهام بُغية الانتقام، سينزلون عليها أقسى العقوبات. هي تعرف، سيتخلى عنها الجميع إلا أبيها ورحمة الله..

لحظتها فقط أحسّت أنهر بأن أيامها الآتية ستكون عذاب لا يطاق، ستتغير، ستكون أنين متواصل مثل أنين المرضى وهم يحتضرون.. لكنها لم تنوه ذلك لآدم، لم تقل له ما كان ينتظرها أو ما خالج فكرها.. قالت تسر ذاتها: هذه مشكلتي وأنا سوف أعرف كيف أواجهها، هو لا ذنب له، لم يجبرني على شيء، وافقته بمحض إرادتي، كنت وما زلت مقتنعة بما فعلت، لم أجنِ خطيئة ولم أقترف جرمًا..

سمر لم تعرف الرحمة بسؤالها، كانت مثل شهر آب في حرارته الذي يصهر الحديد في مكانه في بلد مثل العراق، سألتها بصرامة وكأن أنهر ابنتها التي لم تبلغ سن الرشد بعد: إلى أين أنتما ذاهبان؟ أنهر

obeikandl.com

كانت ممسكة بمقود الدراجة قريبًا من قبضة آدم، في لحظات قصيرة ودون إدراك أو قصد وضع آدم يده فوق قبضتها، هي لم تتزعج ولم تنقل يدها إلى موقع آخر، أبقت قبضتها مرتاحة تتمتع بدفئ كفه الذي أطبق عليها دون عمد أو تخطيط مسبق، الفطرة هي التي دفعته لفعل ذلك، أنهر أحست بهذا وصدقت شعورها، قالت تخاطب نفسها: الفطرة الربانية أصدق ما يملكه الإنسان على الأرض، مثل لحظات الاحتضار التي تسبق رعشة الموت، صادقة حد العري..

أوقف آدم الدراجة، ترجلا منها، بقي ممسكًا بمقودها وهو على يسارها واقفًا، رحب بسمر وقال:

– ماذا.. أراكِ وحدك؟

لم تعر لسؤاله أدنى اهتمام، اندفعت إلى أنهر وهي تسحبها من يدها بقوة وتسقط في أذنها بعض الكلمات التي لم يدرك آدم مغزاها، امتعضت أنهر، فار دمها، احتقن وجهها، أحمرّ، اختفى تألقه وبياضه الناصع، لم ترد على أختها، أرادت أن تنفجر بالبكاء والخجل منعها، توجهت سمر إلى آدم بطريقة مسرحية مغالى فيها:

– أريد التحدث معك على انفراد..

بهدوء:

– طبعًا، يمكن ذلك بسرور، تفضلي..

نظرت إلى ساعتها، وجدتها الواحدة إلا ربع، قالت:

– ليس الآن، بعد الغداء، الثالثة عصرًا عند شاطئ البحيرة قرب الخيمة..

– موافق، سأكون هناك.

غادرتهما مستاءة، تلهث وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة... استعادت أنهر هدوءها وأشارت إلى آدم بأن لا يهتم لما حصل وأردفت:

– سأكون في الثالثة كذلك هناك، لن اسمح لأحد أن يتدخل في حياتي الشخصية بهذه الطريقة الهوجاء الرعناء، أنا لست قاصر، أعرف ما أفعل تمامًا، لي حساب عسير معها في البيت.. سترى، لن اترك الموضوع يمر هكذا.. سأجعل لتدخلاتهم حدًا..

وقتها.. شعر آدم بأنه تمادى في تصرفاته مع أنهر، أحسَّ بالندم، قال لها بأسى مخلوط بالحنية:

– سببت لكِ إزعاجًا ما كان لي أن أسببه. أعتذر عن ذلك، جعلت الفطرة تقودنا دون وعي مني، سأحاول أن أشرح وجهة نظري إلى أهلك.. أتمنى أن تسير الأمور على ما يرام..

همهمت أنهر بصوتها الوادع:

– خوش، لا تضيف إلى همومي همًا. قلت لك لا تقلق، أنا أعرف أهلي..

opelkandi.com

أوصلها إلى شقتها بعد أن أرجعا الدراجة إلى صاحبها في المكتب الصغير الذي يشبه القبو.. رجع آدم إلى شقة أهله مهمومًا، كئيبًا كمنظر الخراب، بعد أن تبددت دقائق السعادة وتناثرت أجزاءها بسرعة لم يتوقعها. هو لا يعرف كيف يورد الحب وينبثق في أجواء ملوثة كالتي يحيوها في العراق؟! هل يمكن لهذا التلوث أن يحرس العشاق ويداريهم؟ّ! سأل نفسه بعد وطأة التفكير التي انتابته فجأة هذا السؤال ورد باستهانة جريئة: لا أعتقد، وتابع هاذيًا: التلوث لا يولِّد ولا يؤدي إلا إلى المرض؛ الصحة لا تكون إلا في أجواء نظيفة خالية من الحروب، وأكد على قوله الأخير: نعم، لابد من توفر أجواء خالية من الحروب، وقتها يمكن لنا أن ندعي بأننا أصحاء ولنا عقل وجسم سليم، ثم صاح منفعلاً كمن يعاتب أو يحاور نفسًا قلقة: يا رب.. إلى متى نبقى نحفظ، نقلد ونردد؟! بدأت أصدق بأن لا لزوم لنا في الحياة!، قال ذلك وهو يشعر بأنه فجأة أصبح كهلاً في الخمسين، ودمعة خائنة فضحته فتسربلت على خده دون شعور.

حاول أن ينام دون فائدة، تقلب على السرير، أراد أن ينسى وجود سمر لحظتها، قال: لماذا ظهرت في تلك اللحظة؟ القدر لا يريد أن يتركني أعيش كما أحب، منغصاته تطاردني كظلي.. نهض، غسل وجهه، سرح شعره وقال لأمه:

– سأذهب إلى الشاطئ، وأعود مساءً..

كلماتها طاردته:

– ألا تريد أن تتغدى معنا؟

أجابها وهو يغلق باب الشقة:

– ليس لي شهية، شكرًا يا أمي..

واتجه صوب الشاطئ لا يلوي على شيء، غير تبرئة أنهر من خطايا لم يقترفوها..

••••

عند الخيمة التي تقع على ناصية مستوية مبلطة بالإسفلت على شكل دائرة منفردة تتمتع بوحدتها.. ليست بعيدة عن الشاطئ الرملي الناعم؛ ضج المتكأ الأبيض المزروع على خد شاطئ البحيرة بالجالسين.. سمر ونداء وأختهم المغرورة سارة وكمال. الخيمة ظلت تراقبهم وتنظر لهم بجلستها الشامخة، وأنهر منشغلة بحديث جانبي مع سمر.. ظهر آدم فجأة وهو يرحب بهم:

– مرحبًا..

نبر كمال وهو يخزره:

– مرحبًا..

في حين فتحت سارة باب جلسة المحاكمة بسؤاله الذي حاولت أن يكون خفيف الوطئ ولم تستطع، فظهر مستفزًا رغمًا عنها:

- أريدك أن تعرف عزيزي آدم بأن أنهر أختنا في حكم المخطوبة من ابن خالتنا سيف، وما رأته سمر ظهر اليوم أرجو أن يكون موقف خالٍ من كل ارتباط عاطفي..

قاطعتها أنهر بحزم:

- لا تكملي.. لقد تكلمنا في هذا الموضوع مساء أمس وقلت فيه كلمتي، لماذا تحاولين إثارته في هذا الوقت؟ هذا ما لم أفهمه!.. إن ما حصل بيني وبين آدم شيء لا يخص أحدًا سوانا على الرغم من براءة فعلنا، ومع ذلك أصرّ على إنني أرفض التدخل في حياتي بهذا الشكل السافر..

تدخل آدم لحظتها محاولاً تهدأتهم:

- أحبتي.. عليكم أن تعرفوا أني جئت إلى هنا بالصدفة، رفضت المجيء مع أهلي في بادئ الأمر، فضلّت البقاء في البيت، ثم عدلت عن رأيي وجئت، ما حصل بيني وبين أنهر ليس فيه أي إساءة لأحد، لم يتجاوز حدود اللياقة المتعارف عليها بيننا وفي وسطنا، أنا لا أقبل أن أسيء لها ولا لنفسي، أعرف حدودي وأقدر ظروفي وظروف الآخرين جيدًا، أعي لما أفعل تمامًا..

قاطعته سمر وهي تلوي شفتيها كعادتها المزمنة وقت الشدائد:

- لا عليك، حصل خير، نحن نعرفكم جيدًا، عائلة طيبة ومن أقاربنا، لكننا لا نريد أن تحدث مشاكل، أمي وأبي لم يأخذان خبر بما حصل

حتى هذه اللحظة، لم نشأ أن نخبرهما، نرجو أن يكون فيما بينكما علاقة إنسانية بريئة وهذا يكفي.

انهضمت أنهر، شعرت بإساءة لشخصها، أخواتها وأخوها يعيشون حياتهم كما يريدون دون أن يسمحوا بتدخل أحد فيها، لماذا هي إذن؟ لماذا يتقصدوها ويحسبون عليها حركاتها وربما نبضها الصاعد والنازل من صدرها؟ شعرت بحرقة لاهبة في داخلها كمن يفقد عزيز على قلبه فجأة.. ثم خرجت من حيرتها وصمتها وهي توجه كلامها إلى سمر بالتحديد برنة ناعمة غارقة بالحنان:

– أرجوكِ يا سمر، أتوسل إليكِ أن تكفِ عن رعايتي، أنا لم أعد طفلة، ظهرت لي أسنان، أستطيع أن أميز الصواب من الخطأ، أقدر خوفكِ عليّ، لكني أقول اطمئني لن أكون غير أنهر التي تعرفينها.. تصرفاتكِ لها شبه منْ يرش الملح على الجراح، أخجل من نفسي قبل أن أخجل منكِ عندما أخاطبكِ هكذا.. لكنكِ تجعلين المرء يفقد هدوءه، أعصابه، واتزانه، ثم يخرج عن طوره، تتكلمين معي وكأنني فتاة غريبة عنك لا تعرفينها، ليست هناك صلة رحم بيننا، هذا الأمر يحز في نفسي كثيرًا، أشعر بالتعاسة التي تفوق أحزان العالم مجتمعة.. لماذا؟ هذا ما يعذبني، لماذا تفعلين ذلك؟ تحاولين اغتصاب حتى الابتسامة من شفتي، هل يسعدك ذلك؟ هل شقائي

هو ما تصبين له؟ لا أصدق.. ألست أختك الصغيرة؟ ماذا دهاكِ؟ أراكِ تلوذين بالصمت.. هل ثمة من تفسير يشفي غليلي؟.

ثم جرت دموعها الحارة بسخاء على خديها الموردين دون أن تعير أي أهمية لمن حولها لحظتها.. البحيرة سمعت آهاتها ورأت دموعها، الخيمة ما انفكت عن النظر إليها، تعمدت أنهر بدموعها كمن يغرف من الماء ويسقطه على رأسه وهو يدمدم بصلاة لا يعرفها غيره، دموعها المالحة الصافية كانت لغة صامتة كنوع من أنواع الابتهال..

كانت وهي تتحدث عيناها الخضراوان شخصتان، توسعتا بشكل مرعب، لكنها وهي على هذا الوضع بدت أكثر فتنة وجمال رغم احمرارهما من أثر الدموع. آدم لم يخفض نظره عنها وهي منهمكة في الحديث، رأى حبيبات تلمع من العرق تجمعت فجأة على جبينها الناصع، عطف عليها وتعاطف معها، لا يعرف بالضبط، لماذا شعر لحظتها بأنه مسؤول عنها، بل يشاركها همها ومحنتها، قال سارًا نفسه: هم يضعوني في قفص الاتهام دون مبرر، ربما يدفعوني لأن أكون مع أنهر أكثر اندماجًا وانفتاحًا، هذا ليس عندًا، بل اعتداد.. لننتظر ونرى ما ستولده الساعات القليلة القادمة..

obeikandi.com

أنهت أنهر كلامها القاصف الموجه إلى أختها سمر، حيث بقيت الأخيرة تتلفت حول نفسها بإحراج كقطة محاصرة.. تركتهم أنهر دون أن تنظر وراءها. آدم رأى وضعه محرجًا، ينظرون له بريبة وهم يغمغمون بأصوات كالتي تطلقها السلحفاة العجوز.. انسحب بهدوء بعد أن ودعهم، ولم ير من أنهر غير ظلها الطويل يترنح وراءها يحرسها وشعرها الذي كان يلاعب الريح كأغصان شجرة في الخريف.. في حين بقي الآخرين يتغامزون بجلستهم ويتهامسون بقرض أختهم بأشنع التهم وأقساها.. يأتون على سيرتها بالرذيلة وكأنها غريبة فاجرة.. بمرأى ومسمع من الله وملائكته!..

••••

عند المساء التقت وسن بأنهر، سألتها الأخيرة عن آدم، قالت:

– هو في طريقه إلى البحيرة، ثم نوهت: ماذا لو ذهبنا إليه، بالتأكيد سنراه هناك.

أنهر أبدت موافقتها، بل كانت لديها الرغبة في لقائه.

لم تمر سوى دقائق قليلة حتى صادفهما مباغتًا على رصيف أحد الشوارع الفرعية المؤدي إلى البحيرة الهادئة الزرقاء مقلدًا سمر بطلّتها عليهما ظُهرًا:

– إلى أين أنتما ذاهبان؟

obeikandl.com

ضحكت أهر من كل قلبها، وسن لم تفهم لماذا ضحكت هي بهذه الطريقة المندفعة المائعة.. صاحت:

– ما الذي يجري؟ أنا أشعر نفسي مثل طرشاء في زفة عرس!

ارتفعت قهقهات أهر بلا إرادة تحاول أن تمسك أعصابها فلم تقدر، فتدخل آدم محاولاً إسعافها بقوله:

– الحقيقة يا وسن أن سمر زوجة عمك الرائع عاصم ظهرت لنا مثل الشبح فجأة في الظهر ونحن كنا نقود دراجة هوائية صارخة فينا: إلى أين أنتما ذاهبان..

– آه.. فهمت الآن، والتفتت نحو أهر وقالت معاتبة: كل ذلك ولم تخبريني بالسر؟ ملعونة..

فقرصتها أهر من يدها، صاحت وسن متألمة بشكل مسرحي:

– أواه.. ماذا تفعلين؟

ساروا بهدوء وقرص الشمس يتبعهم بحمرته التي بدت متوهجة كالشعلة الضخمة.. لحظتها اعتذرت وسن منهما لأنها على موعد مع مروان ومجيد للذهاب إلى الفندق لحضور أمسية تقيمها المطربة العراقية أ. خ. بعد أن رفض آدم مصاحبتهما قائلاً: ربما الحق بكما كما فعلت بحضوري إلى هنا.. وغادرتهما وهي تتمنى لهما أوقات سعيدة دون منغصات أو ظهور لأحد يتعرف عليهما، وأعطت ظهرها لهما وترنحت بمشيتها كالبطة..

obeikandi.com

ساد الصمت للحظات، صمت رهيب كصمت الكون قبل التكوين! لم يشأ آدم أن يكسره، قال يخاطب نفسه: ما أجمل الصمت عندما يُعبِّر عما يريد الإنسان أن يقوله! الصمت صلاة للرب في بعض الأحيان، شيء مقدس، نعمة، خير كالمطر بعد جفاف، يطلبه البعض ولا يجدونه...

لاحظت أنهر تأمله وسرحانه فتدخلت شاهقة مشاكسة:

- إحمْ.. نحن هنا!

انتبه إليها، أرجعته إلى الأرض كما من قبل دقائق، قال مراوغًا:

- ماذ قلتِ؟

- والله عال.. حتى إنك لم تسمعني.. إذن وجودي لا داع منه، سأذهب، وبطريقة متدلعة مسرحية نوهت: مع السلامة وهي تهم بالسير وحدها..

- توقفي، صاح وأردف: أعتذر، لقد كنت أناغي الصمت على طريقتي، سرحت بخيالي وكأني أتسلى بالنظر..

- وبماذا أجابك صمتك؟

- بحضور الملائكة تسقط وتزول كل اللغات، وأضاف: الصمت لابد من أن يكون لغة الحديث الناطقة ساعتها.. هذا ما قاله لي بالحرف!.

خجلت من مجاملته، همست:

obeikandl.com

– لا تقل ذلك.. فأبي ما انفك من ترديد ذلك في كل مناسبة، وأحيان بلا مناسبة..

قاطعها:

– هذا دليل صدقي، فلست الوحيد الذي يراكِ ملاكًا..

خفضت رأسها وهي تقول كلمتها المشهورة:

– خوش..

– ما أجمل هذه الكلمة على لسانك، تخرج وكأنها الشذى، عطر، رفة جناح فراشة..

– يكفي ذلك أرجوك، ولا تجعلني أنسى ما أريد أن أخبرك به..

– نعم، كلي أذان صاغية..

اندفعت بالكلام وكأنه يضايقها وأرادت التخلص منه:

– ما حصل الظهر مع سمر أعتذر عنه بالنيابة، لقد وضحت الأمر لهم قبل أن ألتقي بوسن ونلقاك، تفهموا وضعي إلى حدٍ ما، أرجو أن يكونوا صادقين، هذا ما أنتظره منهم، المهم عندي هو أنت!.

ثم سكتت وكأنها قالت كلمة بالخطأ، لاحظها آدم جيدًا، قال بخبث:

– ماذا قلتِ؟.

– قلت ماذا؟

obeikandi.com

وهي تروغ في الكلام، أنهر في مثل هذه الحالات وعندما لا تريد أن تقول شيئًا، يجب أن تشهر سلاحك أمامها، سوف لن تحصل منها على إفادة لأقوالها.. آدم لم يعرف بعد طبعها ذاك، قال:

– أريد أن أسمع الكلمة الأخيرة التي نوهت عنها مذ لحظة!

– أي كلمة؟ عجبًا..

– أعيدي عليّ الجملة التي تفوهت بها وأنا سأقول لك ما هي.

قالت وهي تضحك:

– نسيت، نعم لقد نسيت ما قلته.. عن ماذا تتحدث؟.

– يا أنهر.. ذاكرتك ما شاء الله من الفولاذ.. كيف تنسين بهذه السهولة؟..

غيرت مسار الحديث بطريقتها التي تجيدها:

– ما أريد أن أقوله هو ألا تنزعج من تصرف سمر، واعتبر الموضوع بحكم المنتهي..

ثم علا صوتها الحنين وهما مازالا يسيران على كورنيش البحيرة المبلط بالإسفلت، وصوت الموج يصلهما وكأنه لحن موسيقى يأتيهما كما تصلهما نسيمات الهواء المنعشة.. الإنارة المنبعثة من أعمدة النور القصيرة السوداء اللون والواحد منها يذكرك بصولجان الملك كانت خافتة، رومانسية تشعرك بأجواء حالمة تنشط القلب على النبض:

obeikandl.com

- كيف تعلمت العزف على الجيتار وأين؟

- تعرفت في الآونة الأخيرة على شاب موهوب اسمه محمد، من خلال صديقي جبار الذي أشاركه تجارتي في صناعة وشراء وبيع الحلي في متجر متواضع بحي جميلة، ذلك المتجر الذي يشبه الكهف.. هناك تعرفت على إخلاص التي حدثتك عنها؛ يعزف على الجيتار بطريقة رائعة، لم يعلمه أحد، يسمع ثم يقوم بعزف ما سمعه، هو الذي أوحى لي بفكرة الانضمام إلى نادي الصليخ قسم الموسيقى حيث هناك يتعلم، "جر رجلي" كما يقولون، تقدمت للامتحان ونجحت، انضممت إلى العازفين الذين من ضمنهم كان محمد، وفي نفس الوقت انتميت إلى معهد خاص للعزف في شارع السعدون يدعى معهد جيتار، لكنني وبعد أن أمضيت سنة كاملة هناك، لم أتعلم شيئًا يستحق المال الذي دفعته، كان رجلاً مسنًا يجلس في ركن من غرفة يقول عنها معهد، في الطابق الثالث من بناية متهالكة آيلة للسقوط تخافها العناكب وتحاذر من بناء بيوتها هناك.. لا يتكلم كثيرًا، يأخذ منك المال كل بداية شهر ثم يكتب في دفترك للنوتة لحن موسيقي لفيروز أو لعبد الحليم ويقول لكِ: هيا.. المكان لا يسمح للتمرين، هناك من ينتظر الدخول!

توقف قليلاً، ثم نوه بشكل تمثيلي:

– الحقيقة، أنا كنت متفهم وضعه، المكان كان فعلاً لا يسمح بالمكوث طويلاً، لكننا نريده أن يعزف لنا اللحن في أقل تقدير، أو أن نعزفه نحن ويقول رأيه، لكنه كان عنيدًا جدًا وغير متساهل في هذا الموضوع، لو جادلتيه ينتفض، يتغير لون وجهه، يقول صارخًا: خذ نقودك ولا تريني وجهك مرة أخرى.. حتى بدأت أشك بأن الكثير من العراقيين على هذه الشاكلة، أقصد نَفسهم في التعامل مع الآخرين قصير، ضيق، لا يتحمل الكلمة، بل لا يريد إلا أن يسمع ما يرغبه.. وهذه مصيبة، تركت المعهد بعد سنة ولم أتعلم شيئًا.. وكما رأيتي بنفسك مساء الأمس، أطنطن[*] بعض الهمسات التي لا تذكر بالطيبة..

– وماذا عن الرسم والكتابة؟

مازحًا:

– آه.. متى ستنتهي محاكمتي؟ ثم أردف: بابا.. هذان موضوعان كبيران يحتاجان إلى جلسة!

– ما رأيك في مقهى الفندق؟ سأدعوك إلى شيء نشربه..

– رائع، لكن المكان لا يصلح لجلستنا!!

– لماذا؟

---

[*] أطنطن : أردِّد

openkandil.com

– لأن هناك من سيطل علينا بحسنه ويقلب جلستنا عزاء..

ضحكت كعادتها قبل الحديث الذي يحلو لها:

– هل تخاف؟.

– منْ، أنا؟ أبدًا، لكنني أخاف عليك، أعني، لا أريد أن أسبب لكِ أي متاعب..

– لا عليك، لن تسبب لي أي متاعب، أضمن لك ذلك، وسألته مجددًا: ها.. ما رأيك؟..

قالت ذلك فمست يدها يده، شعر بدفئها وطرواتها، قال يخاطب نفسه وهما يتجهان صوب الفندق بعد أن وافق على دعوتها: سأذوب كالسكر في الماء لو لامستها لفترة أطول.. ما هذا؟ سحر هندي ماضٍ وعظيم! أعوذ بالله..

obeikandl.com

- ١٣ -

عند المساء كانت نداء طائرة من الفرح، ترطن وهي ترتدي ملابس الحفلة وتدندن بأغنية لفيروز: حبيتك.. في الصيف، حبيتك.. في الشتاء.. همس في سرها: سأرى مجيد، أجلس بقربه، أتمتع بحديثه، أجعله يسحرني، أذوب في همساته، هو فنان متمرس فيما يفعله، ملعون يعرف كيف يخطف الأبصار كما القلوب، أراقصه، أغازله، وأسقط في أذنه كلمات لم يسمعها من قبل، من الظاهر هو لا يعرفني جيدًا، أنا لست سهلة أو غبية، أعرف تمامًا ما أريد، قد أستطيع إقناعه في رسم مستقبلنا معًا، بالتأكيد يحتاج إلى فتاة مثلي تحبه وتخاف عليه وترعاه، لماذا لا يريد هذا الشيطان أن يفهم؟ لن أجعله يهرب مني كما يوم أمس..

سارة كانت تسرّح شعرها، تأملاتها زادت عن حدها، هذه لها خرائط في الحياة لا تعد ولا تحصى، تفكر أن تستعمر العالم بأجمعه وتجعل من فيه يركع أمامها يطلب وصالها، همس تسر ذاتها: أنا سارة الجميلة، لا اسمح لأحد بالدخول إلى مبنى الإذاعة أو الخروج منه إلا بأمري!، نظرة واحدة من عيني الجميلتين تجعل الفولاذ يذوب منصهرًا، فما بالك لو كان مجيد مجرد شاب أسمر ليس له

حظ من الوسامة ولا يجيد غير لغة الحديث! سأجعله يحبني، يتعذب لوصالي ولن يصله، أتمنع عنه كما يتمنع الطير من دخول القفص الذي سيحبسه، بل لن أكون ذلك الطير الذي يدخل سجنه بنفسه مهما حصل؛ أنا أريد أن أملي غروري، أن أجعله يتألم، يبكي أمامي، لكنني وقتها سأصفعه، أقول له: هه.. من أنت حتى تطلب مني هذا؟ أنا سارة الجميلة، نجمة السماء التي تحلم أن تطولها، ضحكت من مناغاتها لنفسها وبهذه الطريقة الساذجة، أكملت ما كانت به ملتهية، تسريح شعرها وهي راضية عن نفسها كل الرضى..

كمال لم يختلف كثيرًا عن أختيه، انهمك بارتداء أجمل ما أحضر معه من ملابس، سيلتقي بعد قليل بمطربة عراقية معروفة، صاح بوقفته أمام المرآة: أ. خ. ليست شخصية عادية، سألتقط صورة تذكارية معها، مثل هذا الحدث لن يتكرر بسهولة، كسقوط نيزك من السماء.. ثم تذكر وسن، قال بصوت خفيض: هذه البطة البيضاء ماذا أفعل بها؟ إنها لا تلائمني لكنني لا أجد أمامي سواها، سأراقصها، أجعل صدرها يلامس صدري، ستخدر لو فعلت هذا، تستسلم لي، تنتظر مني أي إشارة، أي همسة، سأقول لها أنا مغرم بكِ، ولو وافقت على طلبي سأتقدم لخطبتها، أنا لا أعرف فتاة أخرى، الجيش، الحرب اللعينة التي لا تريد أن تنتهي، كل شيء من

حولي مضطرب وغير طبيعي، لماذا تطلب مني أنهر أن أكون شخصًا آخر؟ سأكون سعيدًا مع وسن.. اغتبط بنتائج أحلامه، سعادته أنسته نفسه، صاح مؤنبًا: لقد تأخرت كثيرًا، عليّ أن أسرع.. أنا لست بفتاة كي أتأخر في ارتداء ملابسي!، لابد أن أكون جاهزًا قبلهما، لن أقبل على رجولتي أن أكون جاهزًا بعد البنات، هذا الأمر لا أطيقه، يدفعني لأن أفقد أعصابي، أنهار وأصاب بالعمى.. إذن عليّ أن أكمل ما بدأت به..

قبل أن تخرج أنهر مع وسن طلبوا منها أن تذهب معهم إلى الحفلة، لكنها رفضت، قالت: أحب أن أكون بجانب أمي وأبي، كذلك سيحضر ولدي سمر، سنلعب معًا، منذ وقت طويل وأنا لم أرهما.. سأعود قريبًا، قبّلت أبوها وأخبرته بأنها لن تتأخر عليهم..

••••

اختار آدم – وبرغبة من أنهر– طاولة في ركن قصي من مقهى الفندق، كسر وحدة الطاولة ووحشتها كرسيين جلدهما أحمر، المقهى يطل على مسبحين، أحدهما صغير، والآخر يصل طوله إلى مائة متر، مسيجين بشجيرات قصيرة، تنام أمامهما أسرّة خاصة للاستلقاء، بيضاء مفروشة بفرش مطرزة بالورود والأزهار، مُدَّت وصُفت حول المسبحين الواحدة بجانب الأخرى مع إبقاء مسافة

نصف متر تقريبًا بين سرير وآخر، لولا هذا البُعد لظهرت وكأنها أصابع بيانو لنسقها الجميل الموحد، يستطيع المرء الجالس في المقهى أن يرى من يسبح بشكل واضح من خلال زجاج الشبابيك الكبيرة الواسعة التي لا يصدق بأن هناك زجاج يفصله عن ما هو خارج المقهى لنظافتها..

في الوسط وقفت طاولة مستديرة يقوم خلفها رف عالٍ طويل مليء بزجاجات مختلفة الألوان، مملوءة بأنواع من الخمر يصعب عدّها أو وصفها لكثرتها، يخدم الزبائن شخصين أحدهما فتاة بيضاء جميلة تشبة راقصات الباليه لنحافتها، وإذا تأملتها تجدها لا تستكن أو تتعب، بنت الملعونة كانت تصول في المقهى وكأنها في سباق مع الزمن، بينما وقف الشاب الذي يساعدها يعبئ الكؤوس ويجامل الذين يجلسون أمامه حيث ناصية الطاولة المستديرة البنية اللون الناصعة التي تلمع كالصاج المصقول..

جاءتهم النادلة التي كانت ترتدي قميص بني يلمع مثل خشب الطاولة المستديرة، تركت أول زر من قميصها لم تغلقه، ظهر جزء من صدرها الأبيض واضحًا عندما انحنت وهي تقدم لهما لائحة المأكولات والشراب بسرعة غير متوقعة، أشعلت بلمح البصر الشمعة التي كانت تجلس على كف تمثال قصير من الكريستال

obeikandi.com

على هيئة ملاك.. وتركتهم بعد أن تمنت لهم مساءً جميلاً.. همس آدم بإحساس مشحون بالفرح:

– على ما يبدو الخدمة هنا رائعة!.

وهي تنظر له بطرف ضاحك:

– الخدمة أم الذي يقدم الخدمة؟

شاركها ضحكتها الصماء وأجاب بيقين ساخر:

– والله برئ، وأردف باستنكار مازحًا: لماذا النساء هكذا؟ ما أن تقول شيئًا بحضورهن حتى يأخذنه على أنه الحقيقة التي لا مراء فيها، ألا يعرفن النكتة أو الإطراء البرئ؟.

بنبرة خبير:

– بلى، نعرف، لكننا لا نأتمن الرجل دائمًا، له طباع والعياذ بالله لئيمة في بعض الأحياة لا يطيقها الشيطان..

– ها.. بدأت تتحدثين لغتي، هذا وصفي، بل كلماتي التي أتمختر بها، لماذا تسرقينها ثم تقدمينها لي على إنها من نتاجكِ الخاص؟ هذه تسمى سرقة أدبية!.

– خوش.. بدأت جلستنا بسرقة وستنتهي..

قاطعها قائلاً:

– ماذا تريدين أن تشربي؟.

obeikandl.com

- أنا التي دعوتك ومن حقي أن أسألك، ونوهت مبادرة وبطريقة حالمة ارتاح لها آدم تسر القلب: ما رأيك في كأس من العصير الطازج؟

- سأشرب ما تطلبينه يا سيدتي حتى لو كان عصير محلوب من صبير غابات جهنم الموحشة!

ابتسمت، هزت رأسها، تلوى شعرها وترنح قليلاً وهي تُشير لراقصة الباليه التي ما أن رفعت أنمر إصبعها حتى كانت الرفيعة تقف على رأسيهما كالعصفور.. طلبا أن تحضر لهما كأسين من عصير الرمان الطازج..

- أراكِ تحبين الرمان؟، وأضاف: الله أنعم عليك بشفتين لهما لونه..

- شكرًا، لكن لا تكثر من الإطراء كي لا أصدق..

- حسنًا، وبدأ الحديث معها مدندنًا: هل تحضرين حفلة اليوم؟

- لا.. أريد أن أبقى في البيت مع أمي وأبي وسيحضر ولدي سمر، ثم أدركت: وماذا عنك؟

- مازلت لم أقرر.. ربما أذهب، وباغتها سائلاً: هل أنتِ سعيدة؟ ما هي أمنياتك؟ كيف عشت طفولتك؟ أريد أن أعرف المزيد عن حياتك، تستطيعين أن تمتنعي عن الحديث أو الإجابة، لست مجبرة على فعل شيء لا ترغبينه..

قاطعته:

obeikandi.com

- لكنني أنتظر شرحًا منك، هل نسيت؟، وتابعت: ها نحن نجلس في المقهى كما رغبت تمامًا..

ما أن همَّ بالكلام حتى وقفت على رأسهم النادلة كالشبح، وضعت كأسي العصير وانسحبت بخفة الساحر بعد أن انثنت أمامهما احترامًا.. رفع آدم كأسه وقال:

- بصحتك..

- بصحتك..

أجابته وهي تصدم كأسها بكأسه، وانبرى مسترسلاً:

- أختي سلوى رسامة رائعة، كنت أنظر إليها منذ طفولتي وهي ترسم بالقلم الرصاص، لكنها كانت ضعيفة ودائمًا مريضة، تُهمل الرسم حينًا وترجع إليه حينًا آخر، لكن رسمها لا يترل الأرض كما يُقال، خطوطها خطوط رسام محترف متمكن من فنه، كنت أتابعها بدقة، حريص على تقليدها، وما أن حاولت حتى أبدت إعجابها برسمي، شجعتني، في طفولتي البائسة التي لم أعشها كانت هي التي تحضر لي الورق وأقلام الرسم الفحمية التي اشترتها في وقت متأخر، في البداية لم تكن تملك تلك الأقلام الخاصة العريضة التي لم أر مثلها قبل أن تحضرها.. هكذا كانت بدايتي مع الرسم، في الكلية التي أدرس فيها أقمت حتى هذا اليوم معرضين للرسم التشكيلي، تعرفت من خلاله على رسامين رائعين أمثال مازن الذي تربطني به

obeikandi.com

الآن علاقة إنسانية جميلة.. شرب قليلاً من العصير وصاح: يا ملكوت السماء، كم هذا طيب..

أجابته ووجهها يشع مودة:

– صحة، وأردفت: هل أعجبك العصير؟

– جدًا.

– احكِ لي قصة؟

استغرب من طلبها، قال وهو ينفخ سروره مناورًا:

– اتهام جديد؟

هدلت:

– لماذا تتعمد أن تكون لغتك غريبة؟

– لأن هذا يحلو لي!

– وهل تكتب بنفس طريقة الحديث؟

– طبعًا، أحاول أن يكون حديثي هو أسلوبي في الكتابة، لكن الأمر أكثر تعقيدًا مما تتصورين، هناك كُتَّاب لا يجيدون لغة الحديث والعكس، خطباء لا يجيدون لغة الكُتَّاب، ومن أنعم عليه الله بفضله، هو من يجيد الاثنين معًا..

– ماذا عن البداية؟.

– أي بداية؟ قال ذلك عن قصد متهكمًا..

– أعني بدايتك مع القراءة ومحاولات الكتابة..

obeikandi.com

أجاب وهو يحاول أن يمسك أعصابه بعد أن بدأ يضحك متندرًا:

- كل بداية تبدأ بالمدرسة طبعًا، هناك يبدأ المرء بتعلم مباديء القراءة والكتابة..

قاطعته متبرمة:

- لئيم، لم أكن أعرف أنك بهذا الشكل، تهزأ بي رغم جديتي..
- آه.. أعتذر منك، أردت فقط أن أضيف جوًا ممتعًا غير هذا الذي نعيشه صباح مساء.
- أنت تختلف عن مروان كثيرًا، بل من يجالسك يُصدم لو عرف أنه أخوك..

ارتسمت الجدية على ملامحه بعد سماعه الجملة الأخيرة، شعر بومضة برق تمر أمام عينيه، جال ببصره حول الطاولات، لم يجد من يعرفهما، شرع:

- هل هذا صحيح؟
- عما تتحدث؟
- عن الجملة الأخيرة التي تفوهتِ بها مذ قليل..

وهي تبتسم بعذوبة:

- أي جملة؟ أنا لم أقل شيئًا.
- رجعنا إلى المربع الأول، الجدل وإخفاء الحقائق..

نبرت هامسة بصدق:

obeikandi.com

– اسمع: لماذا تُغير الموضوع، أريد أن أعرف كيف كانت البداية، مَن شجعك على القراءة أو جعلها محببة إلى قلبك، ما هي كتاباتك الأولى.. لي رغبة بمعرفة كل ذلك.. ثم بعفوية ملائكية نطقت: أرجوك.

بعد صمت قصير لفهما طفق:

– حسنًا، البداية كانت سيئة إلى حدود اللعنة!

– لماذا؟

– لأنني كنت أقرأ كل ما يقع تحت يدي دون فطنة أو محاذير. قرأت كل شيء، لكنني لم أكن أفهم ما كنت أقرأه، وقتها كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، لا أذكر بالتحديد..

ارتفع صوت المسجلة في المقهى، كانت أغنية عبد الله رويشد تصدح: "قلبي معك يا مشغل البال ملتاع".. ضحكت أنهر عندما سمعت الأغنية، قالت:

– إنها من الظاهر تلاحقنا مثل سمر!

نوه:

– أغنية جميلة، بدأت أحفظها، انظري..

بدأ يغني مع روشيد بمرح، صفقت أنهر بسعادة طفولية، تعجبها البراءة، البراءة قطعة منها، الطفولة كذلك... انحنى لها قائلاً:

– هل أعجبكِ صوتي؟

obeikandi.com

- نعم، كنت رائعًا، ثم كطفلة في الرابعة: احك لي قصة من قصصك القصيرة.. لقد قلت لي ذكريني أن أحك لكِ قصة المغرور، أقصد، قصة الديك، أليس كذلك؟

- لا تتعجلي الأمور.. فأنا لم أنته بعد من سرد قصتي الأولى!

اقتحمت كلمتها النقية سمعه:

- أعتذر.

- لا عليك، رفع كتفيه واسترسل في حديثه: وقتها قرأت كتب وجدها في مكتبة أخي مجيد، أمثال طقوس في الظلام، ضياع في سوهو، القفص الزجاجي وغيرها الكثير، تتعلق بالأدب الروائي وقسم منها كانت تتحدث عن علاقة الله بالإنسان لا أذكر الآن الكثير عنها، لم استفد منها لأنها لم تناسب سني حينها، اطلعت عليها وأعجبتني اللعبة، حتى ظهر في حياتي مدرس للغة العربية في المرحلة الأولى من المتوسطة يدعى أستاذ إبراهيم، يعاني من ميل في فكه الأيسر، غالبًا ما يرتدي جاكيت قطيفة كحلي اللون، يعرف عن ديانتنا الكثير، متأثر جدًا بعبقرية العالم عبد الجبار عبد الله، يتحدث عنه في كل وقت يجده مناسبًا لذكره وكأنه ابنه، نصحنا بالقراءة والمطالعة وأشار لنا بمجموعة رائعة من الكتب تناسب عمرنا وقتها، اقتنيتها بعد أن أعطاني حقها أخي نصير، هكذا بدأت مسيرتي المخبطة في القراءة، التخبط وسوء الفهم ثم التدرج نحو الاستقلال

obeikandi.com

كما يقال.. في حين بدأ إنشائي اللغوي يظهر في مراحل متقدمة بالدراسة، أقصد، الإعدادية وبالتحديد في سنتي الأخيرة منها، شجعني أستاذي باللغة العربية الذي له انحناءه في ظهره لطوله الملفت، كان رقيقًا جدًا، يبكي لو شعر أحد الطلاب بضيق أو كان يعاني مشكلة، كان يعطي الطلبة الفقراء ملازم للغة التي يكتبها بنفسه مختصرًا قواعد اللغة العربية بشكل يسهل علينا فهمها مجانًا، لا يمكن لي أن أنسى مظهره، كان أنيقًا، أحمر الوجه، يسرف في شرب الكحول، نشم رائحتها فيه كلما تقرب منا، لكنه كان طيبًا كقديس، أغرم بأسلوبي الكتابي اللعين، أهداني مرة كتابين لأنني أجدت صياغة قطعة من الإنشاء بشكل محكم، ظهر وكأنه قصة قصيرة، طلب مني في إحدى المناسبات الوطنية التي لا تنتهي أن أكتب خطبة وألقيها أمام الطلاب والأساتذة، اعتذرت منه كاذبًا: أنني لا أجيد لغة الخطابة، لم يصدقني ولم يضغط عليّ، أحببته لتصرفه ذاك، كبر في نظري، جعلني أتناقش معه في الكثير من القضايا التي تتعلق بالشعر الجاهلي، أردت أن أعرف رأيه فيما ذهب إليه الدكتور طه حسين بكتابه ذائع الصيت "الشعر الجاهلي" كان متحفظًا في رأيه، بالكاد نوه على أن العميد بالغ قليلاً في حكمه.. بفضله فطنت على موهبتي البائسة التي تعاني الفقر، كما المحبة التي تهوي وتذوي بين أيادينا ونحن منها ناظرون!.

قاطعته:

- رجعنا إلى الكلام الذي لا يأتي بفائدة.

- ماذا أفعل لو كانت هذه هي الحقيقة؟

- كلا، ليست الحقيقة، أنت شخص موهوب، سيقرأ لك العالم كله، كل ما تحتاجه هو الصبر، الجهد، المطالعة، والكتابة المستمرة، يجب أن تكتب وكأنك لا تكتب، ساعتها ستكتب أجمل ما في خلدك!!

وقف، باغتها بوقفته وهو يطلق ليديه العنان مهرجًا بالتصفيق..

- أرجوك اجلس، كف عن التهريج، ثم بصوت منخفض: الناس ينظرون إلينا بريبة، احك لي قصة، أتوق لسماع شيئًا كنت قد أبدعت فيه..

صاح مقاطعًا:

- أبدعت فيه مرة واحدة! ثم استطرد: لكن، متى تسردين لي قصة حياتك؟

- فيما بعد، أعدك بذلك، لا أريد أن أتأخر على أهلي، ربما ولدي أختي الآن في البيت، احك لي قصة ثم نغادر المقهى..

- حسنًا، لكنها قد لا تروق لكِ؟

- ستروق، أنا متأكدة..

onelkandil.com

– اسمعي إذن وذنبك على جنبك، الحقيقة أنني لست شاعر، أعني، لا أحفظ نصوص قصصي كما يفعل الشعراء بقصائدهم، لست نابغًا بما يكفي في هذا المجال!!

– ماذا.. قاطعته مستاءة، هل تضحك عليّ؟..

– لحظة من فضلك، لا تتعجلي الحكم وإصدار القرارات الظالمة، أنا لا أستحق منكِ ذلك.

– خوش.. إذن عليك أن تشرح لي ما قلته.

– كنت أقصد، بأنني أحمل الآن قصاصة ورق عتيقة عفى عليها الدهر، تحمل في طياها قصة قصيرة جدًا كتبتها قبل فترة لا أعلم كم هي بعيدة عنا! تحاكي شاعر مرهف من العيار الثقيل، أمضى أجمل سنوات عمره في الجيش بلا هدف، ستعرفين ما يحدث له من سياق السرد، لن أفسد عليك متعة المتابعة والتشوق، أسميتها: الراقص..

قاطعته:

– وماذا عن قصة المغرور؟

– سأقصّها لكِ فيما بعد لأنني لا أحملها معي، وإذا لم تصدقيني فتشيني.

وهو يحاول فتح أزرار قميصه ويضحك، ثم وضع يديه على الطاولة، فرشهما بأريحية، تقدم بصدره إلى الأمام، لامس قفصه الصدري

opeikandi.com

حافة الطاولة وقبل أن يهم بالكلام مستطردًا سألها أن تقترب منه! استغربت طلبه وردت مماحكة:

- بدأنا نستغل مواهبنا الشيطانية في أمور غير محببة!.

- ها إنكِ تأخذي غيبتي وتتهميني بالشيطنة وقلة الأدب وما أنا بذلك.

- إذن ما قصدك من طلبك؟

همس وبرنة لم تتوقعها أنهر أن تصدر من صوته، كانت حنونة كاد يبكيها بعد أن طرح قصاصته الورقية أمامه فبدت مثل خرقة متهالكة مبللة، وقال:

- لأن القصة لا تتناسب مع الأجواء العامة!!.

- فهمت.

قالت ذلك وهي تتلفت حولها بحذر، اقتربت بكرسيها منه، فلامس كتفها كتفه.. ألهبته حرارة أنفاسها، شمّ رائحتها العذبة الساحرة، استغل الجو المثار عاطفيًا وبدأ بتلاوة قصته بصوت خفيض أقرب إلى الهمس..

• • • •

obeikandi.com

بات جنون الشرقيين وقارًا...
وتصرفاتهم شيئًا أقرب إلى المغامرة والمقامرة والاستهتار..

دخل ضابط الخفر لتلك الليلة على مجموعة من الجنود الفارغين، أقصد، الذين لا شغل لهم في المعسكر سوى قتل الوقت، والوقت كما معروف هو الأيام، والأيام هي الحياة، والحياة هنا هي حياة هؤلاء الجنود الشباب المساكين الذين يتسامرون في تلك الليلة دون هدف أو معنى أو مغزى. وما أن دخل عليهم الضابط فجأة كالقدر، حتى هبوا واقفين في حالة استعداد صارم وكأنهم ينتظرون أوامر مهمة بالغة السرية.. واحسرتاه؛ أين هي تلك الأوامر المهمة التي يمكن لها أن تغير الواقع، الجازمة الحاسمة تلك التي ينتظرها هؤلاء القانطين كجنود مكلفين؟!

ضرب ضابط الخفر الأرض بقوة بحذائه الكبير الواسع الثقيل وهو يصيح كالجريح بأحمد - أحد الجنود - ويغرس نظراته القاسية فيه غرسًا:

- أين كنت؟ لقد سألت عنك ولم يجدوك!!

متحفزًا بهزات من رأسه وببلاهة كالمعتوه ولم ينبس!!

بهوس بعد أن فقد أعصابه:

obeikandl.com

– لقد سألتك سؤالاً محددًا، ماذا كنت تفعل؟ لقد بحثنا عنك طويلاً ولم يعثروا عليك!! ها...؟

تفرس أحمد بالضابط بدقة وكأنه ينوي قياسه، ثم ببرود قاتل أجاب:

– تسألني ماذا كنت أفعل؟ سأقول لكَ يا سيدي وذنبك على جنبك.

والضابط بذهول ينظر له مستغربًا من جرأته وطريقة كلامه وتصرفه الغريب، ثم تابع مسترسلاً وبذات البرود المريض:

– لقد كنت أرقص! نعم، كنت أرقص.. لا تستغرب يا سيدي الضابط مما أقول، ثم سأله جادًا دون خوف: أتريد أن تعرف كيف؟ هكذا..

وإذا به يرتقي طاولة خشبية متهالكة نائمة قريبة منه، وبعد أن اعتلاها بدأ يرقص الدبكة الفلكلورية الشعبية العراقية ويهز كتفيه ويدق الطاولة بقدميه بعد أن نسى نفسه وأخذ الطرب منه مأخذًا، ثم صاح بالضابط كالسكران:

– وتسألني ماذا كنت أفعل؟ كنت أرقص، أدق الأرض، هل يعجبك ذلك؟ عجبًا.. لقد قضيت في هذا المعسكر اللعين ثمان سنوات من أجمل سنوات شبابي بين جدرانه الذي يشبه سجن عال الأسوار.. لا نعمل فيه شيئًا سوى قتل الوقت وبأي طريقة مجنونة كانت.. وتسألني ماذا كنت أفعل وأين كنت؟!

obeikandi.com

صرخ الضابط بالعريف المرافق له في جولته الليلة تلك وهو يأمره بغضب تملكه وكأنه في إحدى نوبات صرعه:

– آمرك بإيداع هذا المعتوه السجن فورًا، وعند الصباح يعرض على الطبيب للتأكد من سلامة قواه العقلية..

ثم غمغم مع نفسه وبدنه كله يهتز كلهب المشعل: كنت أرقص قال!!

عُرف عن أحمد بين ربعه وصحبه بحساسيته المفرطة، وشاعريته الفذة الرائعة، التي لو ذاعت قصائده لحصل على سمعة يمكن أن ينافس فيها أعظم شعراء العراق المعاصر، له أنف، سبحان الله، دقيق ورفيع وكأنه ليسوع، بعينين جميلتين حادتين كبريتيتين، كعيني عمر الشريف، وبقامة ممشوقة مثل قامة فارس عربي أصيل وشجاع..

وهو القائل:

طاولتي ومقعدي
وعودي الكسير
خلاصة الماضي
وعمر الزمن الفقير
وحجرة عتيقة
يكاد أن يدقها
الشهيق والزفير

وكل ما يحيطني

من عالمي الضرير

بعد أن أنهى تلاوتها صمت، نظر إلى أنهر بعينين دامعتين، خاف أن يكون حكمها على القصة سلبيًا، داخله كان يتحرق لمعرفة رأيها، خرجت أنهر من صمتها، صاحت بلا إرادة:

- واو.. ما هذا؟ رائع، جميل جدًا ما سمعته، راقٍ، رغم قصرها لكنها معبرة، حبكتها محكمة، لم تعطِ للمستمع أو القارئ أي وقت ليلتقط أنفاسه، جعلتني أهيم معك، وكأنني أحد هؤلاء الجنود المساكين، صفقت وهي تهمس برقة: أنت مبدع يا آدم، سيكون لك شأنًا في عالم الأدب، أنا أعرف ما أقول، أسلوبك يشد، يضغط على أعصاب المتلقي، يفحمه، ينتظر بشغف أن يعرف ما سيحصل، ماذا سيكون المقطع التالي، وهذا في رأيي المتواضع قمة الإبداع..

- مهلاً، مهلاً.. أنا مجرد آدم، ذلك الشخص المركون وسط حطام حياتنا التي نحياها دون هدف أو إرادة، لا نملك من شأن أنفسنا شيئًا..

قاطعته:

- لا تقل مثل هذا الكلام.. أرجوك، قالت ذلك وكأنها تتوسل به..

- يا الله، لا تقولي كلمة أرجوك مرة أخرى، أشعر لحظتها بأن قلبي ينخلع من مكانه..

- خوش، أعدك، لكن عليك أن تعدني بأن لا تعود على ذكر هذه الاسطوانة مرة أخرى، على الأقل أمامي وبحضوري.

- أعدك ولا أعدك..

ضحك وهو يقول كلماته الأخيرة ثم اقترح عليها أن يوصلها إلى شقتها.. رفعت يدها نحو النادلة، هبطت عليهما فجأة لا يعرفان من أين أتتهما كالطلقة، دفعت أنهر الحساب.. ثم نوهت:

- هل تعرف ماذا سيكون رد فعل كمال لو بادرت الفتاة بالدفع؟.

- من أين لي أن أعرف! كمال ليس صديقي، أجهل طبعه.

- سينتفض ثم يصرخ بأعلى صوته: هل تريدين جرح رجولتي؟ أنا الرجل وأجعل المرأة هي التي تدفع، أي إهانة هذه التي تصفعيني بها.. سيبقى يزمجر ويزعق حتى يدفع..

ضحك آدم بعفوية، دمعت عينيه من الضحك، قال:

- أخوكِ هذا تحفة أصلية، لن نجد لها نسخة مشابهة في العالم ثم سألها: لماذا هو هكذا؟ ما دخل النقود بالرجولة؟ من كذب عليه ليوهمه بصدق هذه النظرية الخائبة؟ مسكين كمال، لم أكن أعرف بأن له مواهب طيبة كهذه!

وبعد أن سيطر على نفسه، خفض صوته وانخفضت قهقهاته بادرته بقولها:

- شكرًا على قبولك الدعوة.

– أنا من يشكركِ، وأضاف: مضى الوقت سريعًا كعادته.

– لا تقل ذلك، يمكننا أن نكرر هذا متى ما نشاء.

– بالتأكيد، سأكون وقتها أسعد خلق الله.

نبرت:

– هيا، لنذهب..

صاح وهو يقف فاردًا طوله:

– آه يا كمال.. كم أنت لذيذ بتصرفاتك، مواهبك رائعة يا صديقي العزيز، يقول.. جرحت رجولتي..

ثم عاود الضحك مجددًا.

غادرا المقهى بعد أن هبط الظلام غير الموحش على مدينة الحبانية، كانت الأجواء هادئة جميلة، الهواء منعش، والأنوار الخافتة تنتشر في كل ركن، جعلت الظلام لم يطبق تمامًا عليهم.. أوصلها إلى شقتها، عند الباب حياها بمصافحتها، واتفقا على اللقاء صباح الغد إن سمحت الظروف لهما.. صاحت وراءه:

– تمتع بوقتك إن كنت ستذهب إلى الحفلة.. أتمنى لك مساءً طيبًا.

ودخلت الشقة وهو مازال لم يتحرك من مكانه حتى أغلقت الباب وراءها..

- ١٤ -

لم يمشِ غير بضعة خطوات حتى سمع صوت أنهر يناديه برنة تقطر عذوبة:

- آدم.. انتظر.

التفت وراءه، وجدها حافية القدمين منتصبة بهيئتها كملاك الرحمة، بجذل مناغيًا:

- عيون آدم، ماذا هناك؟

رفعت يدها وهي تهمس بغنج:

- والدتك عندنا، ألا ترغب في رؤيتها؟

بمكر غامزًا:

- ربما أنهر لا تسمح لي بالدخول!

- كفاك شيطنة، هيا، ادخل وسأعدّ لنا شيئًا نأكله..

رحب به أبو كمال، لم يشرب ذلك اليوم كثيرًا، اكتفى بنصف زجاجة من النبيذ الأحمر، ثم نام عند الظهر، وصحى على ضجيج أولاده عندما كانوا يهيئون أنفسهم للذهاب إلى حفلة المساء، انزعج من صياحهم والأصوات التي كانوا يطلقونها، نَهرهم أكثر من مرة وهو مازال يتربع كالتركي بجلسته على السرير حتى

obeikandl.com

ظهرت عائلة أم نصير، ذهبوا جميعهم وبقيت أم نصير تسامر أم كمال التي رحبت بها وفرحت بوجودها..

أمهر بدأت بإعداد الطعام بخفة وصمت، هذا هو شأنها دائمًا عندما تعمل، الإنتاج تحت تأثير قوى الصمت يأتي بأفضل النتائج وتذكر حسناتها بالطيبة، مبدئها هذا لم تنحرف عنه، قالت هامسة بعد أن وضعت في قدر مملوء بالماء ثمانية حبات كبيرة من البطاطا بقشرها:

- هل تعرف يا آدم سبب نجاح الممثل العالمي شارلي شابلن؟

رفع كتفه علامة الاستغراب.. أدركت أنه يجهل الجواب، شرعت:

- لأن تأثيره على المتلقي مباشر، بلا لغة، بصمت، إشاراته وحركاته التي كان يأتي بها تجعل المشاهد يتابعه بكل حواسه، اللغة تقلل من التركيز، تجعل العقل يشرد نحو جهة غير ما تراه العين، فيُضعف كل هذا من التأثير، الإيحاء علم، له دور لا يستهان به في علاج الكثير من الأمراض النفسية، فرويد مثلاً، كان له السبق في هذا المجال..

ثم سألته وهي تنظر إلى القدر الذي بدأ ماؤه يسخن تدريجيًا:

- هل تحب البطاطا المسلوقة؟

- رأيتها في القدر ولم أستطع تفسير وجودها بهذا الشكل، وتابع: أنا أعرف البطاطا المقلية، ربما سمعت عن المشوية منها، لكن المسلوقة.. هذا الاختراع لم يصلني بعد!.

obeikandl.com

- البطاطا المسلوقة صحية جدًا، خاصة عندما نسلقها إلى النصف، لا يحبذ أن تكون طرية بل كلما تمتعت بقوتها كان طعمها أفضل، تصبح كعسل النحل في فائدتها وطعمها.. انتظر وسترى، واستطردت بحنكة: حيث النشا الموجود فيها يفيد الكبد كثيرًا، الأطباء غالبًا ما ينصحون مصابي أمراض الكبد بالإكثار من تناول البطاطا المسلوقة وبالطريقة التي أجهزها لكم للتو.. ناهيك عن استعمالها في تخفيض الوزن، لها قابلية رائعة في حرق الدهون الزائدة في الجسم.

رفعت غطاء القدر بعد أن غلى الماء فيه، بعد لحظات أبعدت القدر عن النار وأشارت له بأن يساعدها في إحضار الصحون والملاعق والشوكات وينشرها على الطاولة.. ثم نوهت:

- أرجو أن يعجبك الطعام!..

- كل ما تصنعه يدك يكون محل تقدير وإعجاب.. لا تقلقي، وتابع بذات الرنة الودودة: النفس الطيبة ترث دائمًا أشياء طيبة، لكنكِ لم تقولي لي كيف سنأكلها؟ أقصد، بقشرها؟

- ستتعلم أكلها عندما نكون على الطاولة.. لا تتعجل رزقك!.

في طريقه التقط بعض الكؤوس الفارغة التي وجدها واقفة على رف خزانة خشبية تختبئ وراء باب المطبخ، وضع عدة الأكل على

الطاولة، ناولته أهُر زجاجة من عصير البرتقال وصاحت براموس أن يحضر، تقدم منها وقال:

- نعم.

- عندي لكَ مفاجأة!.

- ما هي؟.

- سأجعلك تمتنع عن التدخين، وأضافت: أنت يا حبيبي مازلت طفلاً، ما لك وهذه المصيبة.

- تعودت على السجائر، أمي مشغولة بعملها في بيع الفاكهة والخضار، وأبي كما تعرفينه، موجود وغير موجود، أغلب الوقت وحدي، أصدقائي يدخنون كذلك، هم الذين أعطوني أول سيجارة جرّبتها، ثم تعودت عليها وأصبحت مع الوقت لا أستطيع تركها.

قاطعته:

- بل تستطيع.. قالت ذلك برقة خالطها الحزم.

- كيف؟

- أنتَ قلت إنها مجرد عادة، هذا يعني لو تعلمت شيئًا آخر ستتعود عليه بسهولة كما حدث معك بشأن السجائر.. أليس كذلك؟..

تأملها قليلاً، ثم نبر:

- هذا صحيح.

obeikandi.com

– عزيزي رامون، أنا أحبك كثيرًا، أكثر مما تتصور، ما أقوله لك متأكدة منه، الإنسان منا يستطيع أن يأتي بمعجزات لو أراد..

– ماذا تعنين بمعجزات؟

– أقصد أشياء خارقة لا يقدر عليها أي شخص، تكون استثناء، لو تركت السجائر مثلاً، يحسب عملك استثناء، لأنك تغلبت على أهواءك ورغباتك بقوة الإرادة، هل تعرف ما تعني الإرادة؟

– نعم، أعرف.

– إذًا تفهم ما أقول؟ وتابعت: عندما تقرر شيئًا وتحاول جاهدًا الوصول إلى الهدف الذي رسمته مع نفسك، تكون قد حققت معجزة، الوصول إلى نتائج وتحقيق الأهداف ليس بالشيء الهين، جرب وسترى ما أقوله صحيحًا..

– لكن، ما هي المفاجأة التي قلتِ عنها؟

– سأعلمك كيف تترك السجائر دون أن تشعر، سأجعلك تناساها وكأنك لم تعرفها من قبل.

– يا الله، كيف؟

– اسمع، عندما تشعر أنك تود تدخين سيجارة، ضع في فمك علكة، تعوّد أن تكون في جيبك دائمًا علكة، ستشعر لحظتها بحلاوة، تبعدك ولو قليلاً عن طعم التبغ الذي تعودت عليه، أقصد، الذي اعتاد جسدك عليه بعد أن اختلط بدمك، هذه أول الخطوات، ولو

شعرت بأنك غير قادر على التحمل أكثر، مارس الرياضة، اجري، اركض، افعل أي شيء من خلاله تفقد طاقة، أن تعطش، أن تشعر أنك جائع فيما بعد، أو أن تعمل شيئًا يدويًا، فيه العقل يكون مشغولاً بأمور غير عادية، انظر الرتابة، الملل والفراغ.. أهم الأسباب التي تؤدي بصاحبها إلى الإدمان، ولأنك مازلت شابًا في مقتبل العمر، بل طفلاً، الحياة مازلت لم تبدأ معك، عليك أن تحاول مرارًا، حتى لو أخفقت، أعد المحاولة بدل المرة ألف، وقتها ستعرف يا عزيزي أني على حق وما أقوله من مصلحتك..

قاطعها نائحًا:

- أمي لا تفعل معي هذا الشيء، بل هي لا وقت عندها كي تتحدث معي!

سرحت، تذكرت أمها، قالت همس سرها: يا الله.. إنها تشبه أمها بتصرفاتها، تعتقد أن ما تفعله من أجلنا، في حين هي تضرنا من دون أن تعلم.. اقتربت منه، قبلته من خده، وهمست في أذنه:

- لا عليك، ابدأ أولاً بما اتفقنا عليه وسترى أمك كيف ستغير تعاملها معك، سأتكلم معها أيضًا لا تقلق، لن أبوح لها بسر اتفاقنا، فاجئها أنت بفعلك وليس بكلامك، الكلام يقدر عليه كل الناس، لكن ليس الجميع يستطيعون تحويل أقوالهم إلى أفعال.

openkandi.com

حضنها بكلتا يديه، سقطت منه دون وعي دمعتين كبيرتين، قال منشرحًا:

– أحبك يا خالة كثيرًا.. ربما أكثر من أمي!

قرصت أذنه بحنية تمازحه متأثرة بما قاله:

– لا تقل ذلك، أولاً أمك ثم خالتك..

ضحك مماحكًا:

– حسنًا.. أحبكما بنفس المقدار..

– آه يا ملعون.. وأضافت: كما تريد يا حبيب خالة.

• • • •

كان آدم في هذا الوقت يستمع إلى الحديث الدائر بين أنهر وابن أختها عندما كان يفرش عدة الأكل.. وصلته همساتهما. أدرك لحظتها بأن أنهر جوهرة لا تعوض، ثمينة جدًا، من يعرفها على حقيقتها يحافظ عليها أكثر من نفسه، مثل هكذا إنسان نادر الوجود في الحياة، فرح لأنه توصل إلى هذه النتيجة، قال: هي لا تشبه إخلاص، بل ليس لها أي شبه من أي فتاة عرفتها من قبل، جمعت بين الجمال والحكمة، يعجبني جدًا هذا النوع من النساء، بل أتوق لمعاشرتهم.. أجد متعة في حديثهم وجلستهم، كنت أقول دائمًا: لو استطعت أن أجلس مع فتاة لمدة ساعة كاملة دون أن أضجر

obeikandi.com

أتزوجها.. فما بالي لو جالست أهُر العمر كله دون أن أشعر بالملل؟

ثم دعى وكأنه يصلي: يا رب تب علينا وارحمنا..

دخل رند المطبخ وهو يسألها مقتضبًا:

– كيف لي أن أساعدك؟

– حبيب قلبي، جئت تقدم خدماتك؟ وأدركت: خوش.. خذ زجاجة المايونيز هذه وضعها على الطاولة.

رامون خرج وفي يده زجاجة قصيرة مليئة بالملح. آدم اتجه نحوها، اقترب منها وكأنه يود شمها سائلاً بعد أن تأكد من أنه لا أحد يراه:

– متى تخبريني عن حياتك وطفولتك؟

رفعت رأسها إليه وقالت:

– ربما غدًا أو في بغداد عندما نعود!.

– آووو.. هذا شيء رائع، هناك تقدم ملحوظ أحسد عليه!

قاطعته:

– لا ترفع صوتك!.

– خوش.. قال ذلك مقلدًا وهمس في أذنها سارًا: اكتبي لي رقم هاتفكم، سأتصل بكِ عندما نرجع ونضبط أمورنا هناك بشكل أفضل.

التقطت ورقة من دفتر صغير كان يتمتع بالركود أمامها وكتبت رقم هاتفهم ونوهت:

- لا تتصل بنفسك، اجعل وسن أو زوجة أخوك سعيد هي التي تبدأ بالاتصال.

قاطعها نابرًا:

- أعرف ذلك..

- آه.. عندك حق، نسيت وأنت الخبير العليم في هذه المسائل!

ابتسم بسعادة، كزوج يسمع خبر ولادة زوجته بطفلهما الأول، قبض على الورقة التي تحمل في طياتها مفاتيح مستقبله كله، قطع منها جزء يكفي لتدوين رقم هاتفه وسلّمها لها بحرص وهو يمد رقبته نحو جهة صالون الشقة ثم غادر المطبخ مترنمًا بفرح انتصاره..

••••

وجود أنهر أضاف داخل الشقة جوًا من المرح والفرح، كانت كالنسيمات الآتية من جهة البحيرة، منعشة، تجعل المرء يسمع دقات قلبه الخافقة.. أكلوا جميعهم بنهم بعد أن شرحت لهم باختصار كيف يتناولون البطاطا: هكذا.. تشقها من الوسط، تضع قليلاً من الملح والمايونيز ثم تأكلون لبها.. آه.. ما أطيبها وهي تضع قطعة في فم ابن أختها المسكون بالصمت رند بعد أن قطعت من حبة البطاطا التي كانت نائمة على صحنها كقطعة من الحجر

obeikandl.com

الترابي.. أثناء الأكل ظلوا يتحدثون وينكتون ويتسامرون بشتى المواضيع، حتى استأذنهم آدم وقال:

- يجب أن أُرجع أمي إلى الشقة ثم أذهب خلفهم لحضور حفلة المطربة (أ.خ)، لدي الآن رغبة في الحضور، كنت أتمنى أن تكون أنهر معنا.

تدخلت معتذرة:

- أنا آسفة، أريد أن أكون مع رند ورامون، هذه فرصة لن تتعوض بالنسبة لنا..

تدخل داوود مثنيًا على كلام ابنته:

- أنهر على حق، بل أنا أتوق لأن ألعب معهما كذلك..

••••

في آخر طابق من الفندق وجد صالة الحفلات تضج بالحاضرين.. صوت الموسيقى كان عاليًا يصدح، يتخلله صوت المطربة (أ.خ) الدافئ، الناعم والرحيم، أشارت له وسن ملوحة بيدها، تقدم منهم وهو يرحب بهم مغتبطًا، أمره مروان بأن يجلس في المقعد الوحيد الخالي من الطرف الآخر من الطاولة القريب من طاولة يشغلها فريق رجالي كويتي مشاغب بثيابهم الطويلة البيضاء وأصواتهم التي كانت ترن بآفاق الصالة.. ثلاثة منهم كانوا على خشبة المسرح يرقصون رقصة الهوى الفلكلورية الخليجية بعد أن أخذ الطرب منهم مأخذًا.

obeikandi.com

مروان همس بصوت خفيض يسر ذاته: جاء متأخرا، يبدو سعيدًا، ظني لا يخطئ، لقد كان مع أمهر، هو لا يفوّت مثل هذه الفرصة، الجو كان خاليًا له، يعرف كيف يقتنص ومتى! انتبه آدم إلى وسن وهي تطلب منه أن يرقص معها، قال:

– ولِمَ لا، هيا.. نحن هنا من أجل أن نتمتع بوقتنا، نرقص ونغني وننسى، أفضل نعمة وهبها لنا الخالق هي النسيان، لابد أن ننسى، من لا يستطيع النسيان يطق وينفجر! وتابع: هيا يا عزيزتي لندبك، ندق الأرض لعلها تسمع نداءاتنا.. لكن، أمهليني قليلاً من الوقت حتى يأتي الشراب الذي طلبته.

سألته بخبث وبصوت مسموع:

– وماذا طلبت؟

– كأسًا من الفانتا.. أنتِ تعرفينني، هذا شرابي المفضل.

ضحكت، رفعت كأسها المليء بالجعة، وقالت:

– بصحتك إذن!

رفع يده اليمنى الفارغة، وقال:

– بصحتك يا ابنة أختي الغالية..

في هذه اللحظة أحسَّ بوخزة في خاصرته، نظر وراءه، فرأى أحد الكويتين يناطح كرسيه، يحركه على غير هدى! باحترام قال له آدم:

obeikandi.com

- أرجو أن تنتبه، لقد آذيتني بحركتك تلك.

صاح مهتاجًا:

- يبه ۞، لم يحصل شيء، يا صاحب السعادة، يا آل صباح.. حيوا الرجال.

وما انفك يحرِّك كرسيه بعنف دون رادع من خجل أو خلق.. تأفف آدم وحاول أن يتجاهله، تقدم بكرسيه إلى الأمام محاولة تلافي الصدام. هو يعرف أنهم سكارى، ماذا سينفع الحديث معهم.. قال ذلك يخاطب نفسه.. قطعت عليه وسن أفكاره بقولها:

- هيا ماذا تنتظر؟، كأسك أمامك، هيا اشرب حتى نرقص، أم تراجعت عن كلامك؟

رفع كأسه ونبر:

- بصحتكم يا جماعة الخير، ربنا يجمعنا على الفرح دائمًا..

التقط يد وسن وهو ينحني أمامها:

- هل تسمحين؟ بالتأكيد..

واعتلى منصة الرقص، نداء غمزت مجيد وسألته إن كان يرغب بمراقصتها؟ صاح:

۞ يبـه : أبـي

– معي! وأضاف: أنا أسوأ شخص يمكن له أن يقوم بهذه المهمة، ما رأيك يا كمال! أختك تريد أن ترقص، هيا، أرني مهارتك يا بطل، كن قريبًا من مطربتنا، وأنا اتعهد بتصويريك بجابنها!!.

صعق كمال لإطرائه، وقف وطلب من أخته آمرًا:

– هيا، سيصورنا مجيد مع (أ. خ.)..

قامت نداء معه على مضض، شعرت بالخيبة من أول جولة، سارت متثاقلة وكأنها تذهب إلى ساحة الإعدام لتنفيذ الحكم عليها، سارة ضحكت متخابثة وهي همس بصوتها المنفر:

– ماذا يا مجيد.. سأعلمك الرقص على أصوله العراقية الصحيحة! هل تمانع أم أقوم مع مروان؟

– آه.. لا يمكن لي أن أرفض طلبك، أنتِ تأمرين يا دميتي، هيا..

على المسرح تمادى أحد الكويتين، خرج عن طوره، نسي نفسه، شرب الخمر أكثر مما يتحمله، ترنح وهو يحاول أن يضع في فتحة فستان المطربة القريب من صدرها نقودًا، دفعته بلطف في بادىء الأمر وهي منهمكة بالغناء، عاد الكرة بعد أن التقط من جيب ثوبه الطويل الكثير من الأوراق النقدية وحاول أن يدسها كما في المرة الأولى وهو ما زال يترنح بوقفته.. المطربة منعته، دفعت يده بقوة وهي تنظر إلى عازف القانون أن يتدخل لمنع هذا المعتوه السكران من التعدي عليها، هي مازالت تغني، لم يستطع لحظتها أي

شخص من التدخل.. إلا مروان، فار دمه، انزعج من تصرف الرجل الكويتي الذي لم يحترم حتى الثياب البلدية الوطنية التي يرتديها، حاول أن يتعدى على مطربة عراقية معروفة وهي تغني على المسرح، انسحب من الصالة بسرعة، اختفى فجأة، لم يغب طويلاً، ما هي إلا لحظات حتى كان رجال الأمن يلقون القبض على ذلك السكران الذي شعر بالنشوة التي سرقت عقله.. لم يعرف أي شخص من الفريق الرجالي الكويتي أين اختفى صاحبهم! تقدم أحدهم وهو يسأل مروان بجلف:

– ماذا فعلت بصاحبنا؟ واستطرد بعد شهقة: هو لم يكن في وعيه، نحن ضيوفكم.. كيف تعاملون ضيوفكم بهذا الشكل؟

مروان ظل صامتًا يشرب بنهم ولم ينبس ببنت شفة.. لم يقل بماذا أخبر رجال الأمن عنه..

سرح آدم بخياله، تمنى لو كانت أنهر معه في هذه اللحظات.. همس: آه يا أنهر، لو كنت هنا لاختلف الأمر، افتقدتك، أشعر بفراغ روحي من دونك، لماذا لم تحضري؟ فضلتِ البقاء في البيت، على الرغم من رغبتك في الحضور، الواجب تجاه الآخرين هو الذي منعكِ.. بدأت أعرفك بشكل أفضل، كم أنتِ رائعة، لم أتوقع يومًا أن أتعرف على فتاة من ديني تكون ذكية، جميلة وناكرة لذاتها

مثلكِ، يا إلهي.. كيف وضعتها أمامي هكذا دون حساب؟ أنا لا أعرفها ولم آتِ من أجلها، ثم يحصل هذا الإعجاب المتبادل بيننا وبهذه السرعة غير المتوقعة وتحت هذه الملابسات من أهلها.. أجده أمرًا ربانيًا لا نقدر إلا أن نقبل به كولادة الإنسان وموته، لكنني استغرب من اندفاعي نحوها، ومن تصرفاتي تجاهها، بل هي التي جعلتني أكون معها بلا حدود، لا أنكر أمنيتي بأن ألتقي بفتاة من هذا النوع، لقد شاطرتني ثقافتي، واستمعت إلى أدبي، شجعتني بكلمات لم أسمعها من أقرب الناس لي، ولا حتى من أهلي، لماذا كانت تفعل ذلك؟ هذا ما يحيرني! ترى، ماذا أريد منها؟ أنا مازلت طالبًا في الجامعة..

ساره رأته متأملاً وكأنه فاقدًا للوعي، أخرجته من صمته وأحلامه بصوتها البادع ذاك:

- هالو.. نحن هنا.. إلى أين؟ وأضافت بترق: أنا أعرف بماذا تفكر الآن، يا رجل اتركها على الله..

ثم ضحكت بمعنى لئيم.. انتبه آدم عليها، سمع جزء مما قالته، لم يعقب على كلامها، انبرى بالصمت، قال يخاطب نفسه: الصمت في حالتي هذه فضيلة، لن أرد عليها، الزمن كفيل بأمرها..

انتهت الحفلة بعد أن رقص الجميع وانتشوا، شعروا بالسعادة حتى نداء التي قَبل مجيد في آخر وصلة غنائية أن يرقص معها، فغرقت في بحيرة من السعادة التي لم تكن قبل ساعات تحلم أن تعوم فيها..

obeikandl.com

- ١٥ -

لسبب غير معروف قرر نصير فجأة في صباح السبت أن يقطع فترة الاستجمام في المنتجع ويطلب من أسرته أن تعد عدتها وتضبّ أغراضها لمغادرة الحبانية بعد الانتهاء من فطورهم فورًا! حاولت مقبولة زوجته أن تعرف الأسباب التي جعلته يقرر بغتة قطع سفرتهم والرجوع إلى بغداد دون سابق إنذار، ولم توفق. نصير عندما يقرر شيء لا يرجع به، له مبرراته الخاصة ومنطقه الذي لا يفهم غيره، حينما يقول نرجع إلى بغداد يعني ما يقول وسينفذ ما أمر به.

امتعض أولاده من قراره الغريب المريب، لكنه لم يولِ بالاً لهم... وبدأ يجهز سيارته الزرقاء الجميلة من نوع "سوبر كروان" التي لا توجد في بغداد مثلها سيارة خاصة بهذه المواصفات إلا في سيارات الأجرة، لكن كسيارة خاصة لن تجد لها مثيل أو شبه. فقد حرص أن يقتنيها من أحد التجار الكويتين عن طريق هشام صهره الذي تزوج بفضاء أخت زوجته، بعد تلك المعركة التي خاضها أخوها سلام ضد مروان انتهت بتركهم منْزل أم نصير والتحول إلى حي الصالحية القديم المحاذي لنهر دجلة، وما أن تزوجت فضاء من هشام بعد محاولة الانتحار الفاشلة، انتقلت معه لتعيش في الكويت،

فجلب السيارة معه في إحدى زياراته لبغداد، غيَّر أوراق جنسيتها لتصبح السيارة عراقية رسميًا!.

هَتفَ نصير إلى أمه وهو يبلغها بقراره المفاجئ، تلقته دون أن تصدم، هي تعرف ابنها جيدًا، لا فائدة من مناقشته، قالت:

– وماذا نفعل نحن لوحدنا هنا، سنرجع جميعنا، سأبلغ أخوتك ونحزم أمتعتنا مادامت هذه رغبتك!.

آدم كان له رأي آخر، قال بصريح العبارة:

– نصير يفعل ما يراه مناسبًا له ولعائلته، أنتم أحرار فيما تفعلونه، لكني سأبقى وأرجع مع عاصم في سيارته، هذا قراري ومن يحب أن يبقى معي لا مانع عندي، سنؤجر سيارة تقلنا إلى بغداد حتى ننتهي من فترة حجز الشقة، لماذا نترك كل شيء ونرجع لأن أخونا يرغب بذلك؟ ليرجع هو وعائلته إن شاء..

قاطعته أمه بحزم:

– لا.. إذا رجع نصير نرجع معه، وإن رغبت يمكنك البقاء، فالشقة مدفوع حقها سلفًا وأنت لم تعد صغيرًا، على كيفك.

أمه تعرف كيف يفكر آدم، مع نفسها كانت تردد: آدم على حق، وما دام على حق فلن أقف ضد رغبته، الله لا يقبل بالظلم، لكنني لا أستطيع أن أترك نصير يسافر مع عائلته ونحن هنا نستمتع، الأمر

obeikandi.com

يختلف مع آدم، أعرفه جيدًا، لن يخطئ بحق نفسه أو مع الآخرين، تصرفاته سليمة ورزينة لا يحتاج لمن يخاف عليه، ثم خرجت من نطاق خيالاتها وقالت:

– يمكنك عزيزي البقاء، لكننا سنرجع مع عائلة نصير، اعتنِ بنفسك.

تقرب منها وقبّل رأسها، وتعتع:

– إي.. أمٌ رائعة، تذكرني بأم مكسيم جوركي في كتابه الشهير، مناضلة وتعرف كيف تتعامل مع الجميع بحنك وذكاء..

ضحكت الأم التي لم تعرف وقتها على ماذا كان يتحدث ابنها الذي ظل نهار السبت بطوله يسبح ويتشمس ويتأمل حياته القادمة وما ستؤول إليه بفرح يمازجه قلق لذيذ...

••••

في طريق عودتهم صباح الأحد فضّلت أنهر العودة مع عائلة أختها سمر.. جلست بجانبها في المقعد الخلفي تاركتا المقعد الأمامي لآدم؛ فجلس بجانب عاصم المنكود المنفوخ المتأهب دائمًا وأبدًا كطير يتهيأ للطيران، حتى وهو غائصٌ في مقعده خلف مقود السيارة ما انقطع من سرد أحداث لا مجال لتصديقها عن عنترياته أثناء دخوله في مشاجرات خرج منها أبدًا منتصرًا حسب قوله الكاذب!

آدم لم يعر اهتمام كبير لما كان يردده عاصم أثناء الطريق، ذهنه كان في ركن آخر، شاردًا برغبته في عالم أهمر. وما أن وصلوا إلى منطقة أبي غريب، حتى التفت إليها وهو يشير متشبثًا بها عن بعد كطوق النجاة عن مكان كليته وتناسى من كان معه في السيارة:

- انظري.. هذه هي كليتي! وأردف: ما أحلاها.. لا تسمعين فيها إلا أصوات الحيوانات وهي تجتر.

أهمر شعرت بالحرج، شعرت بالدماء تصعد إلى رأسها، تورد خديها خجلاً، آدم أحاطها برعايته وهو يسألها ويخطرها بمكان كليته دون أن يعير أي اعتبار لأختها الكبيرة ولا لزوجها السكير. قالت وهي تشبك يديها المعروقتان:

- خوش.. مكان رائع، بناية كبيرة بحجم ملعب كرة القدم..

- بالتأكيد، رد عليها وتابع: هناك أقسام كثيرة، معالف، مختبرات، عيادات، ملاعب للرياضة، ناهيك عن القاعات التي ندرس فيها وقسم عمادة الكلية الواسع.

بعد برهة قصيرة أضاف:

- لابد لك من زيارتها، ستشعرين مع الحيوانات بسعادة ورضى وأجواء تختلف عما نشعره ونحن نتعامل مع البشر!.

ضحكت بدلع صادق، شرعت وهي تتفحصه باهتمام ومودة:

- ربما يحصل هذا، لِما لا؟

opelkandi.com

وعاصم يسمع حديثهما متأثرًا بحرارة كلماهما وروحه تلتهب ككتلة من نار يقود سيارته "الفولكسفاكن البرازيلي" البيضاء التي اشترها له زوجته من حر مالها إرضاءً له وطمعًا في رحمتها!.

• • • •

في يومه الثالث بعد رجوعه من الحبانية وفيما هو جالس مساءً بحديقة منْزلهم؛ استعاد شريط الأحداث التي مرت به دون موعد أو ترتيب مسبق.. تاه في سحب بعيدة خارج أسوار كونه.. متأملاً، سارحًا وكأنه يحلم، خاطب نفسه بصوت خفيض لا يسمع غير هسيسه: لماذا لم تتصل بي؟ عندها رقم هاتفي، اتفقنا أن نتهاتف عند رجوعنا بغداد، وها هو اليوم الثالث في نهايته يتسحب كلص لا يريد أن يترك أثرًا بعد رحيله ولم تتصل!، ترى ما عذرها؟ هل نسيتني؟ هل أضاعت رقم هاتفي؟ كل شيء جائز في هذه الدنيا، صفق بكلتا يديه وكأنه ينثر غبارًا عالقًا وأشار: عجيب أمرها، كيف لم تتأثر ببعد الزمن، هذا المارد الجبار الطاغي الذي لا يعرف الاستسلام؟ ثلاثة أيام تكاد تمضي ولم تهتف لي! ولكن، لماذا أريد منها أن تتصل؟ لماذا لا أقول هذا الكلام وأعتب على نفسي؟ لماذا لا أتصل بها أنا؟ غريب طبعك هذا يا آدم! أنت الرجل وفي مجتمع شرقي وتطلب من الفتاة هي التي تبدأ؟! تبًا لك من أخرق، هيا..

obeikandi.com

قم، ارفع سماعة الهاتف واطلبها، اسألها عن أحوالها وما آلت إليه ظروفها مع أهلها، ماذا تنتظر؟ قطع شريط أفكاره وحبلها صوت أمه وهي تناديه بأن هناك من يسأل عنه عبر الهاتف!!

بصوت مترقب متردد ومختلج:

- ألو...

- حبيبي الذي أعبده، متى رجعت؟

- إخلاص!

- وهل تنتظر غيرها يا حبيبي الذي أموت فيه؟ هل تعرف فتاة أخرى ولم تقل لي؟ سأسامحك حتى لو فعلت ذلك، فأنا لا أريد منك شيئًا بعد اليوم غير سماع صوتك، هل هذا كثير؟

بنبرة رحيمة كالابتهال:

- عزيزتي الغالية، لقد اتفقنا في مكالمتنا الأخيرة أنها ستكون آخر عهد علاقتنا، لا أريد أن أجرحك، أو أسيء إليك، أنتِ أرق وأجلّ مني وما أجمل، لكنني لا أستطيع المضي في طريق أعرف نهايته، الفراق لابد منه، لماذا نستعد ونخطط لعذاب طويل قاسٍ ومر؟ علينا أن لا نفكر بعاطفتنا فقط، هناك سلطة أقوى وأعظم في حياتنا لا ترحم المشاعر والرقة ولا حتى الأحلام الوردية مهما كانت نظافتها أو شرعية طموحها، أشياء كثيرة تقف أمامنا لا نستطيع مجابهتها وأولها الدين، وأخرها الأهل والأصدقاء والمقربين؛ الدين يا إخلاص قوة لا

obeikandi.com

يستهان بها، لا تنظر إلى ما هو كائن أمامها، سيل من التقاليد والأعراف، شرع وقانون يسري على الجميع وعلى الجميع الالتزام به، من يخالفه يهلك، يتمرغ في تراب أحمر حار لا يرحم، هل تفهمين ما أعني؟ أهلي سيكرهونكِ حتى لو كنتِ ملاكًا، لابد من مصارحتك وقول ذلك، أخوكِ لن يعبر الموضوع بسهولة ولن يتساهل معنا، الأصدقاء سينظرون لنا على إننا خائنان، أنا أنظر إلى كل هذه الأمور التي ستحصل لو استمرينا في غينا وعلاقتنا وعنادنا وتحدينا واقعنا، هذا الواقع الأرعن القاسي الذي لا قلب له، سيطحننا طحنًا، سيذر وينثر عظامنا كالرماد، سيتقولون علينا بأقذع الكلمات وينعتونا بأقساها، أنظر إلى كل هذا وكأنه حاضر وليس مستقبل، استحلفك بالله هل ترضين على نفسك وعليّ أن يحصل لنا ذلك؟!

سمعها وهي تشهق بالبكاء، احتار في أمرها، آدم غير مجبول من حجر، كان يتألم أكثر منها، لكنه يفكر بعقله، الواقع يسحبه بقوة نحو الأرض ويقول له: لا تتمرد أكثر، انّه علاقتك بها، هي لن تكون لك، إخلاص من دين آخر، هو كما قلت أنت لا يرحم، قوة.. من يحاربها يتقهقر، الدين رسالة والرسائل لا تموت، سيبقى عائقًا، حاجزًا يفصل بينك وبينها حتى لو تزوجتما، فالزواج لن يكسره ولن يحطم حاجزه بينكما، بل العكس، ستكون أسواره

أعلى مما تظنون، تسعون لارتقاءه ولا تنجحون، لأن أسواره نابتة من الأرض وإلى السماء؛ فمن هذا الذي يستطيع أن يتخطى حدودًا بهذا الارتفاع، منْ؟! وعي على نفسه وهو يشعر بأن داخله تحطم كآنية من فخار:

– إخلاص، يا قمرًا متألقًا في صحراء، ما عهدتك بهذا الضعف يومًا، أنا أتألم مثلك، ما أنا من حجر، علينا أن نواجه أقدارنا بدلاً من أن نجعلها تحطمنا، الدين قدرنا يا إخلاص، لماذا لا تريدين أن تفهمي؟

قاطعته بصوت تخنقه العبرات:

– لكنني أحبك، وهذا أيضًا قدري!

– وأنا أعزك كما تحبينني، ولنواجه قدرينا مواجهة الأبطال، لا تنكسري، كوني كطبع الأرض الذي تعطي، أنتِ أعطيتِني أغلى ما تملكين؛ قلبك؛ منحتِني حبك الذي عبَّرتِ عنه يومًا وقلتِ: أحببتك أكثر من أمي، وهذا غاية في العظمة، أنحني أمامك تبجيلاً وخشوعًا، لكن لا تنتظري من وراء هذا الحب جزاءً، هذا هو القدر بأبسط معانيه، ألم أقل إنه لا يرحم؟

بصوت خفيض:

– سأدعو الله مساءً صباحً لك بالتوفيق والسعادة مع من ستختار لتكون شريكة حياتك التي تمنيتِ أن أكون أنا..

توقفت لحظة، شهقت بقوة متعثرة وتابعت بمرارة قاتلة وألم لا يقاوم:

opelkandi.com

– لكنني لن أتوقف عن حبك لحظة واحدة، هذا أمر يخصني وحدي وأنا كفيلة برعايته أو قتله، ستبقى حبي الأول والأخير حتى لو تزوجت غيرك...

انقطع الخط، وباختفاء صوتها انهمرت دموعه التي لم يستطع السيطرة عليها، تشربت خدوده بها وانحدرت سريعة إلى رقبته وصدره ومن غير أن يشعر كان نحيبه يسمع عن بعد دون إرادة، ثم انسلّ إلى الخارج لا يلوي إلا على شم الهواء النقي الخالي من الحزن والآهات...

••••

كان المساء جميلاً، هواؤه منعشًا غير بارد والساعة قاربت على الثامنة والنصف؛ انطلق يعدو مسرعًا، هو يعرف تمامًا إلى أين ينوي الذهاب، في مثل هذه اللحظات لن يسعفه غير شخص واحد. المسافة التي كانت تفصله عن مسكن صديقه جبار يقطعها مترجلاً في أربعين دقيقة، لكنه قطعها بتسع عشرة دقيقة، كان يلهث سامعًا ضربات قلبه التي ترطن له بأغنية أدمن على سماعها، وصل الحي الشعبي الذي يعج بالأطفال الحُفاة والغبار ذي الإنارة الخجولة أبدًا الخافتة جدًا.

طرق الباب بتردد وانتظر متراجعًا خطوة إلى الوراء... جاءه صوت من الداخل ينادي ببحة يعرفها، صوت أخيه طالب الهندسة محمد:

– منْ؟...

أجابه بعد أن تقدم نحو الباب نصف خطوة:

– أنا.. آدم.

فتح له وهو يصافحه ساحبًا إياه إلى الداخل دون مقدمات، ثم تركه بصحبة جبار البدين الذي لا يقوى على حمل بدنه، مرتديًا ثوبه البلدي الطويل الأبيض العريض الفضفاض ذات الجيب الكبير في جهته اليمنى التي يمكن أن يأوي فيها بطة دون أن يتضايق! فبادره ضاحكًا مرحبًا بخبثه المعهود:

– إذا تناثرت الشظايا تصيب كل من حولها، ولا ينجوا من شرها حتى الملائكة!

أجابه بسرعة الطلقة:

– لماذا لا تقول، لا ينجوا من شرها حتى الشياطين؟

فضحك جبار مقهقهًا وهو يدعوه لشيء يشربه. أمسك بيده وقال:

– لا أريد أن أشرب شيئًا، جئتك لأمر مهم.

– خير إن شاء الله!

– إخلاص! أقصد، أمر...

ثم سكت وكأن على رأسه طيرًا.

obeikandi.com

– عن ماذا تتحدث؟ هل لك أن تهدأ!

– الحقيقة، لقد أنهيت علاقتي بإخلاص لتوي، بل، قبل ثلاثة أيام، واليوم كانت نهايتها، لكنني أريد أن أعرف رأيك فيما سأقدم عليه..

– وما هو؟.. نعم، أستمع إليك..

بتردد:

– دعنا نخرج نتمشى قليلاً وسأحكي لك القصة كلها.

– هيا..

أثناء سيرهما همس آدم بمرارة كألم لا يطاق:

– كما تعرف حظي، فهو مثل حظ الكفِ من الدفِ، وأضاف: أنت الصديق الوحيد الذي أثق به وأسرّه عن أشيائي الخاصة؛ تعرفت في الحبانية على فتاة من ديننا اسمها أنهر، جميلة جدًا وذكية، مازالت في سنتها الأخيرة من الإعدادية، تبادلنا هواتفنا وأنتظر منها أن تتصل ولم تفعل، صارحت إخلاص بحقيقة علاقتنا وطلبت أن نضع حدًا لها، حصل هذا قبل نصف ساعة تقريبًا، جعلتها تبكي، تركتني على الخط وهربت فارة بدموعها.. لا أكذب عليك، بكيت أنا كذلك، ولم أجد نفسي إلا بين يديك ألتقيك وأتحدث معك..

ببرود كقدر مستبد:

obeikandi.com

- مثلما تعرفني أعرفك، وأعرف أنك طاغٍ ولم تكتف بقتل إخلاص ستأتي على أنهر، ثم باغته بسؤاله الخبيث البريء: ماذا كان اسمها؟ أنهر أليس كذلك؟ وتابع بذات الرنة: أتوقع أن تكون نهاية المسكينة على يديك والحمد لله!!.

بعصبية مهتاجًا:

- لماذا تقول هذا؟ هل أنا بشع إلى هذا الحد ولا أعلم؟

- البشاعة مرادف للرحمة لو أرادها الإنسان هكذا ستكون، وأنت أعلم بأسرار النفس!

- افصح!

- قلت ما عندي.

- إذن إلى اللقاء..

وتركه وثوب جبار تهزه وتلعب به الريح كيفما تشاء، لم يفق الأخير من الصدمة إلا بعد أن غادره آدم وتوارى عن نظره...

• • • •

سمعته وسن ابنة أخته وهو يدخل البيت. وسن لم تكن تغادر منْزلهم وكأنها ساكنة معهم، والحقيقة هي كذلك، لا تفارقهم إلا ما ندر، ربما في الأعياد وبعض المناسبات الخاصة التي تتعلق بأهلها تذهب لزيارتهم! ثم تعود إلى بيت جدها، تحبهم كثيرًا ولا تعرف في الحياة

obeikandi.com

أسرة غيرهم، فالحرمان وما لاقته على يد أبيها من قسوة وضرب وشتيمة وحبس انفرادي.. حسام الذي لم يكن يختلف عن أخيه المخمور عاصم كثيرًا، يشبهه في الطبائع والتصرفات، سبحان الله، لهما نفس الميول البشعة وسلاطة اللسان المقذعة، وهوسهم في السكر والعربدة واختلاق العراك والتطبيل لها! لذلك فرّت وسن من أهلها وهي لم تتجاوز الثانية عشرة بعد أن تركت دراستها المتعثرة واستقرت عند جدتها التي تعبدها. وها هي تقترب من خالها الذي تحبه تسأله برفق يشوبه الحذر:

– ماذا هناك؟ هل لي أن أساعدك، كيف؟!

التفت إليها بسرعة وكأنها الملاك أو المخلص الذي كان ينتظره وهو يجفف دموعه بكفي يديه:

– أين أنتِ؟

برنة متميزة كرنة اصطدام صحون من الزجاج بعضها ببعض:

– وهل كنت تبحث عني وأنا لا أعلم؟

– اتصلي بها فورًا، هاكِ، خذي سماعة الهاتف واتصلي بها!!

باستغراب:

– أتصل بمن؟

– بأنهر طبعًا.

– أنهر!! ثم أضافت باستنكار: ما الذي ذكّرك بها الآن؟

– لا تسألي كثيرًا، قدمتِ خدماتك المجانية وأنا قبلتها، هيا.. اطلبيها وإن رد عليك شخص آخر قولي صديقتها.. كالعادة! وتابع غامزًا: أنتِ تعرفين ما أقصد!.

– ملعون لن تتغير.. أعطني السماعة وتنحى جانبًا..

أدارت أرقام هاتفهم.. أدت عملها بحرص ودقة كما قال لها بالحرف وسلمته سماعة الهاتف وتدهدرت في مشيتها وتركته وحده مع أنهر وهي تردد:

– بلّغها تحياتي القلبية...

– ألو...

– نعم؟

ردت أنهر بحنية كادت تفقده عقله..

– كيف حالك؟

– زينة*، وأضافت: كيف حالك أنت؟

– أنا بخير والحمد لله.. فترة صمت وجيزة.. ثم سألها مقتضبًا:

– هل تستطيعين التحدث؟ أشعر إنك محرجة، ربما هناك من هو قريب منك!

ضحكت بهمس طار فيها لُبُّ قلبه، ثم استدركت:

---

* زينة : جيدة

- كيف عرفت؟
- أنا طبيب يا أهر!
مازحة:
- هذه إهانة لا أقبلها، لأنك طبيب حيوانات.. أرجو أن لا تنسى ذلك؟
بمكر:
- لم أنس، ولأنني طبيب حيوانات أفهم الآخرين دون حاجتي إلى وساطة، أعني دون لغة أو إشارة!.
بصوتٍ خفيض وبحرص وجدية زائدة:
- سأتصل بك في وقت آخر، أهلي متجمعين حولي، لا أستطيع أن آخذ راحتي في الكلام.
ثم انهت مكالمتها وكأنها تحادث صديقة، بعد أن رفعت درجة صوتها بجدارة ودراية رائعة جعلت الجميع يسمعونها وكأنها بالفعل كانت تتحدث مع صديقة أو زميلة دراسة قائلة:
- نعم، سأتصل بكِ لنحدد الوقت الذي ندرس فيه معًا، انتظري مني مكالمة في القريب.. بلغي سلامي لأهلكِ.. مع السلامة..
وأرجعت سماعة الهاتف الأسود الكبير إلى موضعها.

• • • •

obeikandi.com

لم يمضِ على مكالمتهما الأخيرة يومان حتى اتصل بها بواسطة وسن، ضرب معها موعدًا في المنصور في مقهى فندق الساحة الخضراء عصر اليوم التالي. وجدها متوردة، صاح بتجلٍ:

– ما هذا؟ قبس من الله، نفحة من روحه، جسّدها بصورتك وهيئتك، ثم وهبها لي بعد أن هداني لمعرفتها..

ضحكت وهي تضع يدها على فمها، مد لها يده، صافحها، هام في وجدان لا حدود تحيط به.. مرتدية قميص أبيض بأكمام قصيرة، تناثر شعرها مرتاحًا على حافته العليا فوق الكتفين بتناسق مدروس مع ثوب قصيرة حد الركبة أو يعلوها سنتيمترين أو ثلاثة لا أكثر، لونه زيتوني فاتح، سألها مستفسرًا وهو يشعر بأنه أصبح شخصًا آخر، شخص لا تراث له أو ذكريات، كل ما يراه أمامه هو أبهر، شعورًا لم يخالطه من قبل ولم يعرفه، استغرب من تصرفاته، حاول السيطرة على نوازعه ولم يفلح، فجاءت بنتائج عكسية تمامًا، ازداد لوعة وحرقة ووجد:

– هل جلستِ في مقهى فندق الخضراء من قبل؟

أجابته بنعم مع أخوها وأختيها، جلسا متواجهين حول طاولة صغيرة مُعدَّة لشخصين، بجانب زجاج إحدى نوافذ المقهى المطلة على الساحة النظيفة أمام الفندق الراقي المعروف بالسمعة الطيبة، قال:

obeikandi.com

- سأطلب لك ما تحبينه دون سؤالك!

- خوش..

أجابته وهي تفرش ابتسامة على وجهها الجميل السمح، طلب لها عصير الرمان الطازج، وطلب لنفسه شايًا أسود؛ بات يعرف ما ترغبه، منتجع الحبانية علّمه الكثير.. مدت يدها في حقيبتها الصغيرة وأخرجت منها وردة مجففة حمراء وقدمتها له:

- أرجو أن تحتفظ بها بين طيات كتبك، ستبقى رهينة عندك حتى آتي وأسترجعها منك يومًا بنفسي!

تذوق كلامها الشهد بعفوية:

- لن أردها، هذا رمز، والرمز كالذكرى، شيء خاص جدًا، ستكون جزء مني لا يمكن استقطاعها إلا بموتي!

قاطعته مستنكرة:

- لا تقل مثل هذا الكلام أمامي.. ستجعلني أزعل منك.

- ومن يستطيع تحمل ثانية من زعلك؟ أعدك، لن أتفوه بمثل هذا الكلام مرة أخرى.

ضحكت بغنج متأصل كطبع فيها وهي همس من بين أسنانها البيضاء الشابة الجميلة:

- خوش..

opelkandil.com

سألته عن أحلامه وطموحاته وما يروم عمله بعد التخرج، حتى فاجأها بنيته للهجرة والسفر خارج العراق متى ما تتوقف الحرب ويسمح له باستخراج جواز سفر.. ولجواز السفر قصص شنيعة لا تنتهي، فهو شيء كالمحرم على العراقي! ليس من السهولة الحصول عليه كمكان في الجنة!! لم تتأثر من المفاجأة، بل أثنت عليها، قالت:

- لدي رغبة كذلك بزيارة أخي الذي يعيش في ألمانيا والاستقرار هناك بجانبه.

سألها بجرأة لا تعوزه وهو يلتهما بنظره:

- هل تحبين السفر؟

بنبرة أرق:

- وهل هناك عراقي لا يحب السفر؟!

- عندك حق، فنحن نعيش كما العناكب في بيوتها!.

همست وهي ترفع خصلات شعرها وتبعدها عن جبينها الناصع بحركة ألهبت مشاعره:

- ماذا تحب من الحياة؟

- أنتِ!!

وهي تنحني نحو الطاولة خجلاً:

- كف عن مزاحك، لن أتحمله..

- حسنًا، سأصمت كمتأمل بوذي في معبده، ومعبدي هو أنتِ!

opeikandi.com

– خوش.. لن نخلص اليوم إذن.

– ولماذا تريدين الخلاص ونحن لم نبدأ بعد؟

– محتال، تعرف كيف تصطاد الكلمات وتسقطها على مسامع الآخرين!.

– تهمة هذه أم إطراء؟

– حقيقة لذيذة!!

– تشتغلين نفس مهنتي.. جزاك الله خيرًا..

وضحكا كالأطفال في أول أيام عيدهم الذي ينتظرونه منذ عام...

ثم سألته بلهفة:

– احك لي قصة الديك؟

– ماذا؟ ثم بخبث مرواغًا: تقصدين قصة المغرور أليس كذلك؟

– الاثنان واحد!

– حسنًا.. كنت أتوقع طلبك، لكنني أحضرت معي نصًا آخر!.

– قصة أخرى؟

– بالضبط

– عن ماذا تتحدث؟

– عنكِ!

– عني!

obeikandi.com

- بلى، وأردف: أعجبتني الفكرة، فكتبتها بطريقتي الخاصة دون الإشارة إليك..

ابتسمت بعذوبة ولم تنبس وبقيت تترقب ما سيحكيه.. اعتدل في جلسته، فرش ورقته السمراء التي دَنّس الحبر عذريتها.. وبدأ يقص عليها برنة ذابت في حنيتها الغارقة في الوجد، هذا ما شعرت به وهي تستمع له كالمسحورة..

• • • •

الطبــق:

يقول الكاتب الروسي دوستويفسكي في إحدى رواياته:
"إن عَظمة بعض الناس تستمر فقط إلى اللحظة التي يفتحون فيها أفواههم"..

دخلت المرأة العجوز الأنيقة التي يبدو عليها الثراء متجر الآنسة نهاد للزهور مع كلبها الصغير النظيف الذي ما انفك من شم كل الأشياء التي حوله وعلى طريقته المفضلة؛ وما أن رأته صاحبته وهو يلهث وكأنه يحتضر حتى حدّثت نهاد بطريقة جاءت بين الرجاء والعطف:

- هلا أحضرت للكلب قليلاً من الماء ليشربه، ثم أردفت بقلق غريب: انظري إليه إنه يتنفس بصعوبة، أرجوكِ عجلي بالماء وسأكون شاكرة فضلك ومعروفك...

لم تتوان نهاد ولم تتباطأ.. أحضرت طبق مصنوع من الزجاج الملون الذي يشبه الصحون الصينية المنقوشة، فوضعته مملوءًا بالماء أمام الكلب بسرعة.. فتفاجأت المرأة متأسفة مهضومة ومقهورة وهي تردد بأسى منقطع النظير:

- مسكين كلبي هذا، لم يستطع الانتظار حتى العودة إلى البيت، فاضطر أن يشرب من هذا الطبق العتيق المتهالك الذي لا يبدو عليه آثار الصحة والنظافة!!

استغفرت نهاد ربها بصمت وبحسرة متفكرة كمن حانت منيته ولم تعلق أو تعقب على قول الزبونة، لأن طبقها الوحيد الذي تبرعت به من أجل أن يشرب الكلب العطشان الماء فيه هو الوحيد الذي تمتلكه في متجرها وهو الذي تتناول يوميًا غداءها فيه!!

••••

openkanda.com

صفقت له بقوة، نست نفسها في لحظة تجلي خارجة عن قيود الإرادة، قالت بانبهار:

– ما سمعته للتو أدب من العيار الثقيل دون محاباة، اخترت لشخوص قصتك القصيرة جدًا الرموز، الغنى والفقر، الغرور والتكبر وما يقابلهما من رحمة.. هذا ذكاء يا آدم، صدقني، أنا لا أجامل على حساب القيمة الأدبية..

قاطعها مندفعًا:

– على رسلك يا أنهر، أنا لا أستحق كل هذا الإطراء، إنها مجرد قصة قصيرة لعينة، منحوسة..

تدخلت صائحة وهي تزم شفتيها كطفل غاضب:

– لا تقل ذلك بحق ما تكتب وإلا غضبت منك!.

– لن أتفوه في المستقبل بمثل هذه الكلمات الرعناء.. أعدك وتابع: اسمعي يا أنهر، هناك من يخاف الموت، وهناك من يهاب الحياة، الأجدر بهؤلاء أن يزدروا الاثنين معًا، أنا أفعل هذا، جربي أن تفعلي ذلك، ستحيين السعادة في الحياة بلا شك..

– منطق.

– مشكلة علينا مواجهتها والانتصار عليها، هكذا أفسرها.

– رائع ما تقوله، أمل بلا حدود.

وهو يبتسم:

openkanadi.com

- لأنني أزدري الحياة والموت، خاصة وكما قيل إن الحياة لا تحترم إلا من يستهين بها..

- لكنك لم تقل لي بعد، لماذا اخترتني بطلة قصتك نهاد؟

- لأنني ببساطة شديدة وجدتك تمثلينها بحذافيرها، قلت لنفسي، لن يقوم بهذا الدور غيرك، ومع ذلك، لم أنوه عنك بصريح الاسم. يكفي إنني أعلم هذا..

مضى وقتهما بسرعة دون أن يشعران به.. نهضت وهي تردد:

- تأخرت، لا أعرف كم الوقت الآن لكنني أشعر أني قد تأخرت كثيرًا، أمي ستكون قلقة جدًا، قلت لها سأزور صديقتي وأذهب معها إلى معهد تقوية لأخذ حصة إضافية في مادة اللغة الإنجليزية التي لم أفلح بترويضها ولم تعارض، لم أكذب عليها، لدي حصة بالفعل في المعهد القريب من هنا، لكنني لم أذهب، اتفقت مع صديقتي أن تنتظرني وقت انتهاء الحصة لنعود معًا كما أتينا، أحببت لقاءك وحرصت عليه، وها أنا أجالسك وأقوي علاقتي بكَ بدلاً من تقويتي باللغة الإنجليزية اللعينة والاستماع إلى مفرداتها التي تجيب الهم والصداع.

أصرّت على أن تدفع حق شربهما:

– أنا من سيدفع اليوم، قمت بتجميع المبلغ من يوميتي التي يعطيها لي أبي.. لا تقلق، أملك اليوم ضعف هذا المبلغ وهي تلوح وتريه الورقة ذات فئة الخمسة دنانير..

أوصلها إلى باب المعهد، وجدت صديقتها تنتظر متوجسة، خائفة والقلق يأكلها، صاحت بها:

– أين أنتِ؟

وهي تضحك ضحكتها الخلابة الساحرة:

– أنا هنا، ألا تنظرين! هيا لقد تأخرنا كثيرًا، سيشكون بأمرنا ويكتشفونه.. هيا..

ودعها آدم بنظرة ذات معنى على أن يتصل بها في القريب العاجل..

وهو يشعر بأن الأرض لا تسع أحلامه وسعادته كعاشق ولهان..

obeikandl.com

- ١٦ -

إيثارًا لسلامتها لم يتصل بها، امتدت بهما الأيام دون أن يحاول أحدهما الاتصال بالآخر. حتى رن هاتفهم في اليوم السادس بعد لقاءهما وأهر تطلب وسن لمحادثتها.. وقتها لم يكن آدم في البيت، وسن هي التي أخبرته عندما عاد مساء ذلك اليوم بما دار من حديث بينهما. لم يتوان، أدركها صائحًا كمن لا يحسن إخفاء عصبيته:

– هيا يا فقمة ماذا تنتظرين؟ اسردي لي كل ما حصل بينكما، ثم عدّل من قوله: أقصد، الجزء الذي يخصني طبعًا.

لّفت حول نفسها ودارت، كراقصة على مسرح، ثم تنهدت بنبرة اعتراف وبصوت محايد:

– لا أقول شيئًا إلا إذا وعدتني!

– أعدكِ بماذا؟

كثمل انبعث من قلبه الخيال:

– تدعوني على عصير الزبيب في محلات الطارق بالأعظمية مع الكنافا!!

– موافق..

obeikandl.com

وهو يرمقها بنظرة متوسلة، شكرته بقلب يفيض حبًا، مسترسلة:

– الحقيقة، كانت مترعجة وقلقة قليلاً، كما تعرف إنها تتهيأ للامتحانات العامة، تفكر فيك وتريد أن تعرف عنك المزيد..

قاطعها مباغتًا كمن نفض عن نفسه الكدر:

– ماذا تريد أن تعرف؟

مناقرة:

– دعني أكمل، لا تقاطعني..

وتابعت بهمس مقصود كمن يناجي أحلامًا هائمة:

– وضعها غير مريح وسط أهلها، يضغطون عليها بغية موافقتها على ابن خالتها سيف وهي ترفض، يعاملوها بقسوة وكأنها ليست ابنتهم، أملها كبير بكَ، هي لم تقل بصريح العبارة ذلك، بل أحسست من نبرة صوتها الدافئة الحنونة عندما تنطق اسمك..

بعد برهة قصيرة أضافت:

– تستطيع أن تقول: ذكاء وحنكة نساء..

قالت الجملة الأخيرة وهي تنفخ خديها المنتفخين أصلاً وتقوس يديها وتضعهما على وركيها وكأنها تستعد لمعركة صامتة!

– وماذا بعد؟

وهي تطلق ضحكة رنانة مجلجلة:

obeikandi.com

– أبدًا.. مشتاقة إليك وترغب بسماع صوتك اللعين هذا الذي يؤرقني ويجعلني أنهض من نومي مذعورة وكأن أسدًا يلاحقني!! ثم أضافت: وما غير ذلك كان حديثًا نسائيًا بحتًا لا يهمك ولا يخصك!

– يا لئيمة..

– هيا!

– إلى أين؟

– هل تراجعت عن وعدك؟

– يا الله... لا تنسين شيئًا..

– ولماذا أنسى؟

– عفارم عليك، تفحصها باهتمام، صاح: هيا..

واصطحبها حيث تريد وهو يشعر بسعادة لا يسعها قلبه.

• • • •

بعد أن تدهورت حالة مروان النفسية، اقتنعت الأسرة بالتعجيل في أمر زواجه. فبدأت أمه بالبحث المضني بين الأسر التي تعرفها علها تجد فتاة تناسب ابنها، مروان كان يعرف أن أنمر على علاقة بأخيه، هو لم يصرّح لأحد بذلك ولم يعتب على آدم، نظراته له كانت تكفي وتترجم غضبه ونفوره منه، النظرات التي أصبحت أكثر

obeikandi.com

عمقًا وشراسة، لا يطيق التحدث معه، يزجره بسرعة حتى دون أن يأتي بذنب أو يقترف خطيئة وكأنه يقول ما لا ينطق به: اخص.
آدم لم يكن يقف على أسباب هذا التحول في علاقته بأخيه، حاول مرة أن يجرجره في الحديث لمعرفة الدوافع التي تجعله يتعامل معه بهذه الفظاظة والغلاظة والقسوة ولم يفلح؛ أصرّ مروان على عدم التوضيح وعلل ذلك بوجه مربد كاذبًا لأسباب تتعلق بنفسيته المتعبة إثر وفاة أخيهم سعيد المفاجئ.

اجتمعت الأسرة في مساء أحد الأيام وقررت أن تخطب له فتاة شبه متعلمة من أسرة متواضعة الدخل تسكن في نفس حيهم تناسبه وتدخل في قلبه المسرة وتبعده عن الأحزان.

تمت الخطبة بسرعة رهيبة لم يتوقعها أحد. في غضون أيام قليلة وبعد لقائين بين الفتاة ومروان ضمن وجود وحدود الأهل تم تعارفهما وموافقتهما وأعلنت خطبتهما وتم تحديد موعد زواجهما في الأشهر الستة القادمة.

الفتاة تدعى ظفر، ملهوجة وملهوفة على كل شيء ككائن غريب حلَّ من كوكب آخر على الأرض، ضعيفة، قصيرة، وصوتها ملعلع كالطبل. تحب الضحك والنفاق كثيرًا بقدر الكلام الذي لا تعجز عنه طوال اليوم. تعمل أمها المخيفة التي يجللها السواد كجحر

obeikandl.com

الفئران موظفة في إحدى دوائر التقاعد ببغداد، وأبيها دوارًا يبيع ويشتري الحلي الفضية والذهبية سارحًا بحقيبة صغيرة يحملها معه أينما يكون، تحوي على ميزانه الهوائي الذي يصلح بجدارة أن يخرج من الخدمة ليخلد إلى الراحة في إحدى زوايا متاحف الآثار التي تعنى بالأنتيك وما شابه، وعدّة لا تذكر لفحص الحلي من خلالها.

اشتق اسم ظفر على الأرجح من اسم أختها التي تكبرها بست سنوات تدعى ظافرة، وأخ يكبرها بعامين يدعى ظاهر، غالبًا ما كان الأخير مريضًا يعاني من انسداد وضيق في مسامات جلده، فتراه أصفرًا شاحبًا لا يطيق الشمس أو يتحمل حرارتها، يغمس نفسه بالماء كل نصف ساعة كي لا يهلك.

أحب مروان خطيبته بسرعة البرق، مذعنا لإرادته تحت تأثير قوى خفية كقوى الضمير الحي، نسى أو تناسى أمر وكأنه لم يرها أو يتعلق بها. تناسى حبه الكبير لفضاء أخت مقبولة. شعر بالفرح والسعادة وهو ما انقطع من تجهيز نفسه وبيته الزوجي القادم الذي كان عبارة عن غرفة في الطابق الثاني من بيتهم. فجأة أصبح يهتم بنفسه، يلبس ويتأنق ويغمر جسده بأحلى وأغلى العطور نفاذًا وهو يزور خطيبته أو يدعوها لدارهم، أو في ناديهم الترفيهي الخاص العريق ذو السمعة الطيبة كسمعة الزهور الذي يدعى "نادي

التعارف"، وهبته لطائفتهم الحكومة وقتها دون مقابل لكسب ودهم ورضاهم، وهذه عادة مزمنة تعودها الحكومة تقوم بها كلما دعت الحاجة أو الضرورة كي تبقى هي في سدة الحكم زمنًا أطول؛ فهي متمرسة بالإغراء في أحيان وبالترهيب في أحيان أخرى من أجل خنوع الشعب ورضوخه وبالتالي قبوله الإجباراي والسكوت عليهم وما يفعلون. هكذا سارت الأمور بمروان وهو بسعادتها مغمورًا.

••••

ما أن اطمئن على أخيه مروان، حتى ثارت غريزته عليه، لم يعد يفكر إلا بأهر، باتت معه في كل لحظة يحياها، يهمس في داخله كالصدى: أهر، يا نور عيني ونبض قلبي، يا سكوتيَ الناطق، من غير عيونك لن أستطيع النظر، حياتيَ ما هي إلا زمن منحدر من أعلى الجبل، سرعان ما تأقلم في واديك الأخضر، تعلقت بك تعلق الراعي بنايه، أشعر أن علاقتي بكِ علاقة النحلة بالزهرة، لا فكاك منها.. رأته وسن منهمك في سرحان لا قرار فيه، صاحت بتحرش:

– من أخذ عقلك يتهى به!

– منْ.. ابنة ملكة الجان؟

– ومن غيرها تعرف أسرارك يا خال؟

– جئتِ في وقتك!

بنبرة خبير:

– أعرف ما تريد.. سأتصل بها..

– ما أروعكِ يا ابنة أختي.. نبيهة وذكية تلقفينها وهي طائرة!.

ضحكت وهي تدور حول نفسها كعادتها عندما تكون منتشية، اتجهت نحو الممر الضيق خلف الباب الرئيسي للبيت، رفعت سماعة الهاتف وأدرات الأرقام التي تحفظها في قلبها.. وبعد حوار قصير أعطته أنهر وهي تقرصه من خاصرته:

– لا تتأخر معها.. عندهم ضيوف، لا تحرجها..

ابتسم غامزًا قائلاً:

– اعتقيني الآن!.

ثم عبر الهاتف:

– أنهر!.

بصوت خفيض كالهمس:

– نعم.

– كيف حالك؟

– كل شيء على ما يرام، وأضافت: غدًا لدي حصة كتلك التي لم أحضرها بسببك!

– إذن نفس الزمان والمكان!.

- خوش.. لا أستطيع الكلام أكثر.. مع السلامة.

- مع السلامة، وأضاف: أراكِ غدًا..

ترك البيت مباشرةً بعد المكالمة دون هدى وهو يصفر بلحن عذب كالبلبل بانتظار غده..

• • • •

جاء مساء اليوم التالي وهو يحمل في رحمه أكبر وأضخم مفاجأة لأنهر، تغيرت بعدها حياتها، انقلبت رأسًا على عقب، لم يكن في حسبان أحد من يعرفها بأنها ستقدم على فعل ذلك.. ولكن لماذا هذا الاختيار؟ طبيعة أنهر غير انهزامية، وليست متشائمة.. ترى ما الذي جعلها تنهار وتقدم عليه؟!

• • • •

حسب الاتفاق المبرم انتظر آدم على ناصية الشارع التجاري الرئيسي العريض في المنصور قدوم أنهر في أي لحظة.. يذرع الرصيف بخطى متوترة والشمس كانت رويدًا تميل نحو الغروب، فطلت الأرض وما عليها بصبغة حمراء خفيفة جميلة توحي للمرء وتغريه بالتأمل والمناجاة، حتى رآها تهبط من الحافلة التي أقلتها وهي

obeikandi.com

تمسك بطرف فستانها القريب من ركبتها كي لا يرتفع.. ناداها بصوت عالٍ بعد أن نسى نفسه:

– أنهر..

رفعت رأسها مبتسمة وهي تُشير بيدها أن يصمت، اقترب منها، صافحها بحرارة وقال:

إلى نفس المقهى؟.

– نعم، هناك أشعر بالأمان أكثر، لا أريد أن أتسبب في أي مشاكل.

غادرا محطة الحافلات متجهين نحو فندق الساحة الخضراء الذي يحوي في جوفه تلك المقهى الهادئة الأنيقة المطلة بزجاجها النظيف الذي يلمع على الساحة.. سألها بعد أن عادت له الروح:

– ما أوله اتفاق أخره نور؛ سأتولى دفع الحساب اليوم بنفسي..

وأردف بعد أن انتشرت ابتسامة على وجهه المهلهل:

– لكن لن أطلب لك على مزاجي ما تودين تناوله، هذه مسؤوليتك أمام الله ونفسك!

ضحكت ببراءة وانشراح ملفت معقبة:

– لك ما تريد..

وفي هذه اللحظة وقف النادل بانتظار الطلبات مبتسمًا، فطلبت لنفسها قهوة عربية، وأشار للنادل أن يحضر له مثلها؛ انحنى الأخير برفق وانسحب بهدوء كالظل، فاستغل آدم العزلة وسألها متلهفًا:

obeikandi.com

– لقد قلقت عليك كثيرًا..

قاطعته:

– لذلك كنت تسأل عني يوميًا!.

– وماذا عن أهلك؟ لو فعلت ذلك ربما أنتِ الآن في المستشفى أو السجن!.

– آه.. لم أعرف أنك متشائم إلى هذا الحد.

ضحك ومن خلف أسنانه قال:

– لا والله.. لا أقصد ذلك، بل أردت أن أقول إنني سأسبب لك إحراجًا لا حدود له، ومشاكل أنتِ في غنى عنها، هذا كل ما في الموضوع.

– أعرف.

أجابته مقتضبة، ابتسم وهو يضع يده فوق راحتها الممدودة أمامه على الطاولة كورقة العنب اليانعة، لم ترفع يدها ولم تغير من وضع جلستها، استأنست، ارتاحت لما فعله، جعلها تسرح في خيال جميل متسامي، سألها وهو يرى نظراتها الهائمة..

– سوف ترسبين في مادة اللغة الإنجليزية لهذا العام لو بقينا نلتقي بهذه الصورة في كل مرة!.

– لا عليك، يكفي بأني أشعر بالسعادة والأمان معك.

ذاب في جوابها مثل قطعة السكر في الماء، قال:

obeikandi.com

- هل تشعرين بالخوف؟

- على نفسي أحيانًا، وعليك كثيرًا..

- ماذا؟ تخافين عليّ، ممنْ؟.

- من أهلي طبعًا.

متهكمًا:

- يقتلونني مثلاً؟

مازحة:

- لا.. يقتلعون عينيك الجميلتين هذين أولاً، ثم يسلخون جلدك بالماء الساخن.

- عفارم عليهم، وأضاف: هكذا إذن!.

- وأكثر..

ردت عليه وتابعت بحماس مسرحي تراجيدي:

- ربما تشتعل الحرب بيننا وبينكم!

- تقصدين مثل الحرب الدائرة الآن؟

قطع حديثهما الناري الهازل النادل وهو يضع على الطاولة طلباتهما مع كأسين من الماء البارد وتركهما بأمان الله وهو ينحني كما المرة الأولى بأدب ثمين.. غلبهم الزمن كما في المرة السابقة.. ومن ذا الذي يستطيع أن يقهر الزمن؟! قامت من مكانها فجأة وهي تردد:

- تأخرت عليها!.

obeikandi.com

– على منْ؟

– على صديقتي طبعًا، هي الآن تنتظرني أمام باب المعهد كما اتفقنا، عليّ أن أذهب إليها فورًا، وسألته بحرج: كم الوقت الآن؟

– التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة..

عاطت منفعلة:

– يا إلهي، أكثر من نصف ساعة وهي تنتظر في الشارع! أرجوك، يجب أن نغادر المكان حالاً..

كانت قلقة جدًا، انزعج لمنظرها وحالة التوتر التي كانت عليها، متناغمًا مع الحدث نبر:

– لحظة من فضلك..

ذهب من فوره إلى البارمان ودفع الحساب عنده مباشرةً وهو يعتذر لضيق وقته. خرجا مسرعين وهما يتجهان نحو محطة الحافلات، وإذا بها ترى أخاها كمال وهو يستقل الحافلة التي فاتتها، تخاذلت قواها، لم تعد ساقاها تحملانها، همست بحلق جاف:

– لقد رأيت كمال وهو يصعد الحافلة بخفة كالومضة.

منفعلاً:

– ماذا؟ كمال أخوكِ؟

– بلى، أتمنى أن لا يكون قد رآني وإلا ستكون هناك مصيبة لا يعلمها إلا الله، وعواقب وخيمة لا تُحمد عقباها..

obeikandi.com

ردد متماسكًا بعض الشيء محاولاً امتصاص رعبها وذعرها:

- لا تقلقي، ربما لم يركِ، لا تفاولين على نفسك، اهدئي، اذهبي إلى صديقتك واتصلي بي عندما تصلين البيت، لن أرتاح إلا بعد أن تطمئنيني، لا تتأخري عليّ..

ثم غادرها متوترًا مسرعًا دون أن يلتفت وراءه..

obeikandl.com

- ١٧ -

مضت إلى أحلام التي لم تتحرك من مكانها، رأتها تنتظر بقلق محموم، صاحت بها صديقتها ما أن رأتها:

- لن أخرج معكِ بعد اليوم، كدت أموت من الخوف عليك.. أين كنتِ؟ ولماذا تأخرتِ هكذا؟

حاولت أن تواصل كلامها، فقاطعتها أنهر بصوت مرتجف متأثر على غير طبيعتها:

- لا أعتقد أننا نستطيع أن نخرج أو نحضر معًا إلى هنا بعد اليوم!

بتعجب مستفسرة:

- لماذا؟ هل تخاصمتِ مع آدم؟ وتابعت مسترسلة: ما هذا الوجوم المخيم على محياك، أرجوكِ، قولي كلمة، لا تجعليني أكلم نفسي كالمجنونة.. ما الذي حدث؟

- المشكلة ليست بآدم..

وصمتت وكأنها تمثل دور متعبد بوذي وهي تحث خطاها مسرعة، لاهثة:

- ما هذه الألغاز المحيرة؟ تركتكِ على أحسن حال، ورجعت متجهمة وكأنكِ خارجة من معركة خاسرة!

obeikandl.com

بعناد وتصميم وكأنها عادت إلى طبيعتها المعروفة بالصلابة المتمرسة على الإباء والشموخ:

– لن أسمح أن تكون معركتي خاسرة!

بصبر نافد:

– عن أي معركة تتحدثين؟ وهي ترتعش وتهتز وتحاول اللحاق بأنهر مرددة: لقد قلبت الأشياء إلى جد لا يطاق أو يحتمل.

– هي كذلك.. لقد رأيت كمال أخي بوضوح وهو يستقل الحافلة الفائتة راجعًا للدار، أنا أعرفه، لم يشأ أن يعمل فضيحة في الشارع، سيحكي لأمي كل شيء، هذا أول ما سيفعله، ثم يلهب الجميع ضدي؛ عقله صغير لا يتحمل النقاش، لن يصدق أي شيء أقوله..

قاطعتها أحلام مرتبكة وكأنها هي التي ستقدم للمحاكمة الأسرية:

– لكن آدم من دينك، وتابعت بحماس حقيقي: ومادم الأمر كذلك لا مشكلة في الموضوع، فلماذا تكبرين المسألة وتعطيها أكثر من حقها؟

باستنكار:

– تتحدثين وكأنك لا تعرفين أهلي؟، ثم سألتها عن الوقت، وأردفت: علاقتنا لم يتعد عمرها بضعة أسابيع، يعني جنينًا في رحم؛ آدم مازال طالبًا جامعيًا في سنته الثانية وأنا كما تعرفين، كيف يمكن لنا مواجهتهم ونحن على هذا الحال؟ سيتصلون من فورهم بسيف

الذي تعرفينه، ابن خالتي المزعوم المهزوز ويحددون ويتفقون معه على كل شيء وبغيابي، تابعت وكأنها تندب حضها: أهلي وأعرفهم.

- يا الله..

قالت أحلام وأضافت متحسرة:

- ما هذا الفأل السيء، لماذا يحدث كل هذا وبهذه السرعة غير المتوقعة؟

في هذه الأثناء كانت الحافلة قد ركنت في محطتها المخصصة، صعدتا وهما تصارعان الأرق القاتل بعد أن تلبدت سماء أنهر بالسحب التي تنذر بالشؤم، ساد الصمت.. لم ينبسا بأي كلمة طوال الطريق حتى وصلا.. تفرقا وأنهر تنتظر مصيرًا مجهولاً.

• • • •

ما حسبته كان مقدرًا ومحسوبًا؛ اجتمع المؤتمرون المتحمسون يترقبون حضورها، دخلت دون جلبة بوقار.. تلقفتها الأيادي، وأولها كانت يد الأم الغليظة الصلبة القاسية.. سحبتها من يدها بعنف متوقع ووجهها مربد وفمها يزبد، ثم صبّت الكلمات في أذنيها كالشمع المنصهر، كلمات لا يمكن تحملها، أقسى من الموت وأكثر إذاءً من الألم، لم تعرف من الذي كان يتفوه ويتقول،

obeikandl.com

الأصوات كثيرة متداخلة كطنين الصدى.. تقدم كمال منها فأمسك بشعرها دون رحمة وهو يصرخ كالمعتوه:

- أين كنتِ؟ ومن هذا الشاب الذي كان بجانبك؟ وتابع بازدراء: خُيل لي شخص أعرفه، آدم أليس كذلك؟؛ سأقتله دون تردد كما أقتل أي حشرة ضارة، ماذا كنتِ تفعلين معه في وقت كهذا؟ ها.. تضحكين علينا وتخدعيننا، تقولين كاذبة إنك تأخذين حصة في مادة اللغة الإنجليزية وأراكِ تلهين معه على كيفك وهواك..

طراق.. صفعها بقوة، ترنحت، ثم هوت على الأرض مستسلمة لقدرها، تناوشتها الأم بتقريع يقشعر له البدن، كلمات لا تقال إلا لقحبة.. حاولت النهوض، تأرجحت في بادئ الأمر ثم ارتكزت على وركها، نهضت بجهد، وقفت وجابهتهم بقولها القاصف بتحدٍ وهي ترمقهم بنظرات احتجاج واستنكار:

- أنا لم أقترف ذنبًا ولم ألوث سمعتي التي هي سمعتكم.. التقيت بآدم وسط المدينة، أمام الناس وفي مكان عام، لم يختلي بي ولا أسمح بذلك، نحاول أن نقرّب وجهات نظرنا ونخطط لمستقبلنا بروية وهدوء دون تعجل، هذه حياتنا ونحن نسعى للاهتمام بها وعنايتها، ماذا في ذلك؟

واتجهت نظراتها الحارقة نحو كمال مشفقة:

- من الظاهر أنك لم تتعلم من الدرس الذي أعطيته إياك يوم كنا في المنتجع! نسيته بهذه السرعة والسهولة؟ مسكين، تجهل الكثير وتنقصك الخبرة مازلت تعتقد أن العضلات هي عقل الرجل!، لقد فاتكَ شيئًا مهمًا، حيث لا خوف من الحقد أو الحسد أو الغيرة ومصدرها العجز.. لأن الذكاء هو القوة الحقيقية، والطيبة هي العظمة يا أخي يا ابن أمي وأبي..

نظر لها بارتياب وهو ساهم كالمسافر.. ثقبتهم بنظراتها وهمت متابعة بجرأة السكران:

- آدم تعرفونه، من أقربائنا وعلاقتنا بهم جيدة، وهو شابًا مثقفًا، جامعيًا وسيتخرج طبيبًا بعد عامين ونيف، ما الذي يضايقكم أو يسبب لكم الحكة أو الحساسية؟ ألم يقم كمال علاقة من هذا النوع من قبل وفشل؟ ويا ليتها كانت من هذا النوع وأنتم تعلمون! ماذا عن نداء.. هل تنكرون دخولها وخروجها قبل خطبتها؟ ثم التفتت إلى سارة وأضافت: أما عنكِ فلن أقول شيئًا.. كل شخص يعرف تمامًا ما يفعله في هذا البيت!

نداء تنظر لها بتشفي وعدم اقتناع ولم تحرك ساكنًا، سارة كانت قد بدأت تلعنها وتنهرها بغير وعي وتكيل لها ما لا يقال بصوتها المثقوب ذاك، أنهر لم تتأكد عن ماذا كانت أختها تتحدث، كمال فقد أعصابه، بدأ يدق الأرض بقدميه كمن يمارس طقوسًا وثنية وهو

obeikandi.com

يهددها بالحبس داخل البيت، ويتوعد آدم بالشر. أبوها لم يكن موجودًا وقتها.. تسللت من وسطهم بخطى وئيدة ثابتة، متجهة إلى غرفتها وهي تردد:

- ما تفكرون به لن يكون، أنا لست بقرة تحلب أو تباع..

قالت ذلك وهي تحاول جاهدة أن تسيطر على نفسها وتتحكم في انفعالاتها قدر المستطاع، الإهانة التي لحقت بها لم تخطر على بالها، كانت أكبر من ظنونها، إهانة لا يمكن تصديق حدوثها، ركلت ما كانت تحمله بقدمها وتمددت على سريرها منهكة متعبة، والهم يتغذى على حواسها ومشاعرها ويجعلها فارغة لا تقوى على شيء.. شعور قاسٍ لم تجربه من قبل، كلمات أمها تطن في أذنيها، صفعة كمال الملتهبة، كرامتها تمرغت في التراب، غفت بفستانها ونامت مع همها الذي عجن بدموعها حتى الصباح دون حراك..

••••

آدم لم ينم ليلتها، توسل لزوجة أخيه سعيد أن تتصل بهم محاولة تقليد إحدى صديقاتها ولم تفلح، صاحت نداء بغبطة وكأنها لحظة نجاحها:

- هي.. أقصد هو.. لا.. زوجة أخيه لمياء، عرفتها، تحاول خداعنا والتحدث مع أنهر لإتمام مسرحيتهم التي كشفناها!

نبر كمال بارتجال خالٍ من أي عاطفة أو ذكاء:

- سيكون حسابه معي شخصيًا.. لن أجعله يفلت من قبضتي.

لحظتها أغلقت نداء الخط بكل وقاحة في وجه لمياء.. وبات الاتصال بأمهر أمرًا مستحيلاً بعد أن عرف آدم حجم المشكلة التي تواجهها، والوضع السيئ الذي تعيشه ملكة أحلامه دون أن تبرق في ذهنه أي خطة أو فكرة لإنقاذها.. فظل طوال الليل ساهدًا، متأثرًا ومتفكرًا والقلق يأكله.

••••

في الصباح لم يتغير شيء.. سوى جديد قرارا‌تهم المتعسفة، أن تبقى أمهر في البيت، لا يُسمح لها الخروج إلا للضرورة القصوى، أن تقطع علاقتها بآدم فورًا ولا تحاول الاتصال به بأي شكل من الأشكال، ثم يتقدم السيد سيف ابن خالتها لخطبتها على أن يتم الزواج بأسرع ما يكون، وفي أبعد تقدير خلال شهر واحد فقط بعد إعلان الخطبة.. وهم موافقون ولا يطلبون منه شيئًا سترًا للعار الذي لحق بهم!.

لم يتبق لأمهر الكثير من الحلول لاختيارها وإنقاذها من ورطتها، هي تعلم جيدًا مواجهة أهلها ليس بالأمر الهين، أبوها سمع بالخبر مساءً

oppeikandi.com

بعد أن رجع من عمله، لم يمارس طقسه اليومي المعتاد في الشرب، ولم يعلِّق، اكتفى بالتحديق ثم اتجه إلى غرفته الخالية إلا من السرير وخزانة الملابس الجامدة المرصوفة إلى يساره عند الجدار، أعطى لها ظهره ونام لكن شخيره لم ينم. بعد الظهر اتصلت بها صديقتها أحلام وزارتها عصرًا، وقفت على آخر التطورات بذهول طار معها لب عقلها مستفسرة:

- كيف يتجرأون أهلك على فعل كل تلك التصرفات الشنيعة بحقك؟ أمر لا يصدق! كنت أظن إنك تعيشين في نعيم داخل أسرة متفتحة، تمارس حريتها بشكل يدعو للحسد أحيانًا، يختلف تعاملها مع أبنائها، وأعرافكم متفتحة غير متعصبة، فكما تعرفين، الخطورة تكمن في التدين الكثير..

وهي تتنهد بكبرياء مجروح تابعت بجزع وقنوط كيائس يغرق نفسه بالعبادة:

- ماذا أقول، خذي مثلاً أبي، فهو رجل يعتبر نفسه مؤمن، يصلي ويصوم، ولكن في ساعات غضبه يفقد عقله، ينقلب زوبعة، فيكفر بالرب ويسب الدين وسط هياجه المجنون!! أستنكر تصرفه ذاك الشائن كثيرًا كما تستنكره أمي، لكننا لا نجرؤ على محاسبته أو توبيخه، هذه بالحقيقة مشكلة، لأنه بالنسبة لي مؤمن وغير مؤمن في نفس الوقت، لا أستطيع وأنا ابنته وحتى يومنا هذا أن أقف على

حقيقة إيمانه وعلاقته بالله!، حتى بات يتراءى لي أن الفضيلة مجرد شعار لا يردد إلا في بيوت العبادة!، أغفر له تناقضه تقديرًا لتعاسته الغافل عنها كشخص مدمن دائم الذهول وكأن لا شيء حقيقي في حياتنا غير الكذب والخداع والتضليل والوهم، تُرى أي حياة نعيشها؟ هل نحن بالفعل صادقون مع أنفسنا والآخرين، وإلى أي مدى؟ أشك بأن يظهر لي أحدهم ويقول الصدق الذي يفقأ العين ويجيبني على تساؤلي هذا..

ثم واصلت وكأنها تردد على نفسها صلاة الشكر:

- اسمعي يا أنهر أنتِ تعرفين سميرة؟
- زميلتنا التي في الصف؟
- نعم هي بعينها، سألتها بالأمس باستغراب عن سبب تحجبها المفاجئ؟ فردت دون أن تعلم ماذا تقول: هذه هويتنا؟! فأجبتها بدهشة: أين كانت هويتك قبل أول أمس إذن؟! فرت هاربة من وجهي لا تعرف بماذا تجيب!! وحاولت أحلام أن تخفف من جدية الموضوع نوهت متأوهة وهي تداري غيظها الممزوج بالخجل: لكنني صدمت، حقيقةً صدمت، كيف يعطي كمال الحق لنفسه لضربك؟

وظلت تهذي أمام أنهر والأخيرة مطرقة لا تعرف بماذا تجيب.. وهي تسمع صوت أمها الصاروخي الذي يصلها وهي تشتمها وتهينها

opeikandi.com

بأبشع وأقذع الكلمات.. نظرت إلى صديقتها من خلف دموعها وقالت بحزن منقطع النظير كفريسة من فرائس الزمن:

– اسمعي كي تتأكدي بنفسك.. واستطردت: الدين لا دخل له، هو أخلاق وحماية للإنسان من نفسه، الإنسان هو الذي يُسخر الأسباب ويجعلها طوع يده كالعجين، يلويها، يسقطها، يحييها، يميتها، أو يقذف بها إلى البحر، على هواه يعني لأننا وفي غالب الأحيان تسيطر علينا نوازعنا فتجعلنا نخدع أنفسنا فنتمسك بالإيمان الظاهر الشكلي، كما حصل مع زميلتنا سميرة كما نوهتِ للتو، والدليل هروبها منكِ دون أن تقف وتجيبك وتدافع عن حجتها لو كانت مقتنعة بما تفعله، لكنها ولت هاربة كما هو شأننا غالبًا، نهرب من مواجهة الحقائق التي تخيفنا، ونتناسى أننا بهروبنا لا نحلها، بل نزيدها توترًا وعمقًا نحو الهاوية، حقيقة الأمر وفي غالبه إننا لا نؤمن إلا بما تنطق به مصالحنا وأهواؤنا ورغباتنا وشهواتنا غير المنتهية..

ثم بانفعال كانفعال حمى الخلق لحظة الإبداع أضافت:

– مشكلتنا هي تمسكنا الخاطئ بالقشور والمظاهر تاركين اللب والجوهر وحقيقة ما يتوجب علينا أن نؤمن به، فالله محبة يا أحلام، حب خالص دون شهوة أو رغبة، صدق لا يعرف الذات والآنا، عطاء البخل فيه مجهول، دموع فرح، خفقات جناح فراشة، قطرة

opelkandil.com

مطر على أرض جدباء، ابتسامة طفل، براءة عذراء، هذا ما علينا أن نعرفه ونؤمن به..

ثم سمعت رشقة جديدة من الإهانات التي لا تغتفر من أمها:

– ماذا تفعلين عندكِ؟ هيا انزلي.. تقتل القتيل وتمشي بجنازته!!.

– ما يفعلونه أهلك بكِ ظلم لا يقبل به الله.

– الفتاة في شرقنا دائمًا مظلومة، وأنا لست الأولى ولن أكون الأخيرة..

– هل علم آدم بما حصل لكِ؟

– لا.

– مسكين، تراه قلقًا لم ينم ليلته..

– هذا ما يجعلني حزينة حد الموت.

– آه.. كيف لي أن أساعدكما؟

– في الوقت الحالي لا، لن يفيد تدخلك بشيء، سأخبركِ لو خطرت لي أي فكرة جديدة، أشكركِ كثيرًا..

ورشقتها أمها برشقة جديدة من الكلمات النابية الملتهبة التي لا تتحمل سماعها أي قحبة محترفة.. فغيرت أنهر رأيها بسرعة، قالت لصديقتها بصوت خفيض:

– انظري، أحتاج إلى مساعدتك، بل لا أحد غيركِ يستطيع ما ستفعلينه في الوقت الراهن.

obeikandi.com

قطعت من دفتر مركون في إحدى زوايا الغرفة من ليلة الأمس القاتمة قطعة من الورق وكتبت عليها رقم هاتف آدم ونوهت بحرص:

– خذي، اتصلي به، وأخبريه بكل ما حدث، قولي له أنا بحاجة إليه، هو سيعرف ما سيفعله وما ينتظره، آدم سيقدّر الموقف، كلامه سيحوله إلى أفعال، أنا متأكدة من رد فعله لوضع حد لهذه المهزلة.. وليكن غدًا لقاءنا هنا بعد رجوعك من المدرسة لمعرفة آخر التطورات.. ثم صاحت: آه.. نسيت أن أقول: أرجوكِ بلغي المديرة غدًا بظروفي الراهنة الصعبة واشرحي لها ما أعانيه وأعدها أنني سأجد حلاً سريعًا لمحنتي قبل الامتحانات..

ثم بكت بصمت وهي تُغطي وجهها الملائكي براحة كفيها الصغيرتين كجناحي عصفور..

••••

المماحكات والإهانات لم تنقطع، لم تختلط أنهر معهم منذ الساعات الأولى من الصباح، تجنبتهم بشكل نهائي، لم تقترب من أحدهم، لم تأكل معهم ولم تشاركهم جلوسهم، قراراتهم استمعت لها بصدر رحب واسع ولم تعلق بأكثر مما قالته في أمسها، هي لن تتزوج من ابن خالتها، هذه مسألة منتهية بالنسبة لها، أمر لا رجوع فيه، كلمتها لا تسقط على الأرض التي يقفون عليها، أنهر هكذا، عندما

تقتنع تعطي من كل كيانها، وعدت آدم وهي له، قلبًا وروحًا. لماذا لا يريدون أن يصدقوا؟

حدثت نفسها وأضافت: هناك الملايين مثلي، عندما يتخذون قرارًا مقتنعون به لا يرجعون فيه على قص رقبتهم، آدم سينقذني وينقذ علاقتنا من تلك البراثن اللئيمة التي لا تفكر إلا بمصلحتها، ثم نادت كالدعاء بجلستها الانفرادية: أين أنت الآن؟ بماذا تفكر؟ هل اتخذت قرارك، أم مازلت تتحين الفرصة؟.

••••

طرقت أحلام الباب الخارجي لبيتهم، ثم علا صوت الجرس، دخلت تحاول الابتسام ولم تقدر، خرجت ابتسامتها ميتة، صعدت مباشرةً إلى أنهر، وجدتها مقرفصة على حافة السرير، نهضت واحتضنتها بقوة، وبلهفة سألتها:

– ما هي الأخبار؟ هل اتصلتِ به كما اتفقنا؟

– ما هذا.. دعيني آخذ نفسي أولاً..

– أعتذر منكِ، سأحضر لكِ كأسًا من الماء..

رجعت إلى الوراء خطوة بعد أن تذكرت حصارها.. قالت مجاملة:

Obeikandi.com

– أنتِ تعرفين بيتنا أكثر مني.. هلا جلبتي لي ولكِ كأسين من الماء، بل، أقول: احضري دلوًا مملوءًا، أشعر بالعطش..

وهي تخفض رأسها نحو الأرض خجلاً..

– لا عليك، فهمت.

نزلت أحلام مسرعة، شربتا الماء.. انتعشتا، بلهفة وبنبرة حنونة وحزينة أعادت عليها السؤال ذاته:

– ها.. ماذا قال آدم؟

– الحقيقة.. لا أريد أن أكذب عليك، لقد جعلت أخي حامد هو الذي يتصل به، أنت تعرفين أسرتنا، محافظة إلى حد لا يطاق أحيانًا، ولو قمت بالاتصال به شخصيًا لحلت بي اللعنة كما حلت بك وأكثر، سيدفنوني حية..

– أرجوكِ.. لم أعد أحتمل الصبر، النتيجة، أريد أن أعرف ماذا كان رد فعله؟ ماذا قال؟ هذا هو المهم الآن..

متحرجة:

– لا تزعلي مني!

بتوجس:

– ولماذا الزعل؟

– لأن أخي قال لي.. أعني، شعر بأن..

فقاطعتها أمر منفعلة وكأن كرامتها قد أهينت:

obeikandi.com

- ماذا قال لك أخوكِ.. بالحرف.. أريد أن أعرف، وهي تؤكد على الكلمة الأخيرة.. بالحرف يا أحلام..

ببطء جنائزي:

- وجده.. مترددًا وقلقًا، لم يتخذ بعد قراره، يحتاج ربما إلى مزيدًا من الوقت للتفكير.. يعتقد أن المفاجأة أربكته، أخي يقول من حقه، فهو مازال طالبًا وله أخوين أكبر منه مازلا عازبين، كيف يقفز بينهما ويطلب من أهله أن يوافقوا على زواجه بهذه السرعة؟

- لا أريد أن أسمع المزيد..

قالت أهر ذلك وتابعت مختنقة بحسرة جلجلت داخلها:

- يكفي، لا أريد سماع المزيد، ليأخذ وقته، هو حر، يفعل ما يراه مناسبًا، لكنني سأفعل ما يناسبني كذلك..

قبل أن تغادرها أحلام شعرت بمرارة ما تقاسيه صديقتها، تأملتها مليًا ثم استطردت وكأنها لم تبدأ:

- انظري إليّ يا أهر، هناك أمر مهم لابد لي من التصريح به..

خزرها صديقتها بمعنى ولم تنبس، فتابعت حديثها الناري بلباقة مدفوعة بحبها لها:

- حدّثني أخي بصراحة مطلقة أن آدم يعاني الأمرين!

فزعت أهر لدى سماعها الجملة الأخيرة، فزّت من صمتها، خرجت منه باندفاع لمعرفة المشكلة التي يعاني منها آدم، فقالت:

obeikandi.com

– أكملي.. أرجوكِ.

تابعت أحلام وكأنها لم تسمع نداء صديقتها ولا رجاءها:

– لكنه أخذ وعدًا من أخي ألا يتفوه بأي كلمة من الحديث الذي دار بينهما، قال له ذلك من باب الأخلاق، هو لا يحب اللعب بمشاعركِ، ليس لديه الرغبة لفعل ذلك ولا الوقت، لكن هناك أمور من الظاهر أقوى منه هي التي تمنعه أن يخطو الخطوة القادمة التي تنتظرينها!.

بعصبية قاطعتها وهي تدقق النظر فيها باهتمام:

– أريد أن أعرفها، أن أعرف تلك الظروف التي يعاني منها، من حقي أن أعرف، لماذا يأخذ هو خبرًا بكل شيء عن موقفي وما يحيط بي وأنا لا؟ ربما نستطيع أن نفكر معًا، أن نجد طريقة ما تنقذنا مما نحن فيه، بل أن يبقى مغلقًا على آلامه وذاته فهو عين الخطأ، بل شيء لا يحتمل، يكون أقسى من الموت بعظمته، إذ كما ترين، حديثي معكِ يريحني، يزيل عني بعض همومي، وأسمع رأيك أيضًا.

فتدخلت صديقتها مهدئة:

– اسمعي.. هو لا يريد أن يضيف لجراحكِ جرحًا آخر، يكفي ما تعانيه وما تلاقيه، هو يقول ذلك ولست أنا أو أخي، نحن ننقل ما حصل لكِ بالضبط..

opeikandi.com

– أنا متأكدة من إخلاصكما، لا أشك فيه، لكن عليكِ أن تقولي ماذا يعاني آدم كي أفهم، أستوعب، وربما يكون عندي حلٌّ أو منفذ آخر أدخل منه لمعالجة الموقف الذي وضعنا فيه كمال..

بدأت تتقهقر رويدًا.. فهي فتاة لها قلب أرق من قلب قديسة على فقراء العالم، تسمع عن مَنْ ما مالت إليه وأعجبت به يعاني مثلها وربما أكثر منها على الرغم من أنه الرجل؟ ترى ما حجم المشكلة التي تواجهه؟ همست أنهر ذلك وهي تسترق النظر لصديقتها الواجمة أمامها. نهضت بخجل، استأذنتها مودعة وخرجت لا تلوي إلا على البكاء وحدها.. وما أن دخلت أحلام بيتهم الذي لا يبعد كثيرًا عن بيت أهل أنهر وأصبحت وحيدة، حتى أطلقت لنفسها العنان في بكاء حاد متشنج لا تعلم أصل منابعه.

أنهر لاذت بالصمت، غرقت في حيرة عميقة وصراع داخلي لا قاع له كحيرتها.. عادت فسألت نفسها ورددت ما قالته لتوها: آدم لا يحق له الصمت، يجب أن يشاركني أفكاره، سعادته وأحزانه على السواء، أن يفتح لي قلبه ويقول ما تخالجه نفسه، هكذا كنا نتحدث وهكذا اتفقنا ساعات جلوسنا القصيرة اليتيمة، أن ينغلق ويعاني ويكابد ويصمت فهذا أمر لا يمكن السكوت عليه.

ثم جاءت بطرف الخيط من الجهة الأخرى بقولها: ترى لماذا يبعد عني قلقه وكدره؟ من يعتبرني؟ إنسانة غريبة عنه إلى هذا الحد! لو لم نحكِ اليوم مع بعضنا بكل صراحة ووضوح مهما كانت نتائج حديثنا مؤثرة أو خطرة، فهي بالتالي نتائج تخص حياتنا، فمتى إذن؟ عند السراء فقط؟ نتشارك بالضحك واللهو! أي نمط من الحياة يفكر به؟ خوفه على مشاعري ليس سبب وجيه أقبله، الإنسان الصادق الواضح والصريح لا يخبئ شيء على من يحب، حتى ما يزعج ويؤلم الطرف الآخر الذي لا يكن له غير أسمى آيات الحب والتقدير، الحياة ليست سكة قطار، ولا نهر صافٍ لا يعكر سيره شيء، بل هناك مطبات كثيرة لا حصر لها تواجه الإنسان مادام حيًا، إذن عليه أن يعرف إنني لا أتفق معه فيما يفكر به من أجلنا..

عند فجر اليوم التالي قررت الاتصال به قبل ذهابه إلى كليته مهما كلفها الأمر، بعد أن سمعت أهلها ليلاً وهم يحددون موعدًا يحسب بالساعات لسيف لإتمام مراسيم خطبتها القدرية...

••••

نفذت ما عزمت عليه، تسللت خفية بخفة حافية القدمين نحو غرفة الجلوس، أغلقت الباب عليها واتصلت بآدم بوجه جففت العزلة بريقه.

– ألو.. منْ؟

بصوت خفيض لا يكاد يسمعه كالهمس:

– أنا أنهر يا آدم.

– لقد حزرت، فنمت بغرفة الضيوف القريبة من الممر الموجود فيه الهاتف، لا أريد أن أزعج أحدًا، ولو لم تتصلي لحاولت أنا بطريقة ما مكالمتك..

بصوت مبحوح هزيل:

– حددوا يوم خطبتي بسيف..

ثم تحجرت الكلمات في حلقها واختنقت بالعبرات..

– ماذا؟ خطبتك! هكذا.. حتى دون موافقتك؟ أين نعيش وفي أي زمن؟

– أنت لا تعرف أهلي إذن!

– وما العمل؟

باستغراب مميت:

– تسألني أنا ما العمل؟ وهل أنا الرجل؟ سبحان الله..

– لم أقصد ذلك، لا تفهمي كلامي خطأ، أعني، وقعنا في مطب كبير غير متوقع، أنتِ تعرفين ظروفي، كمال أشعل الدنيا دون سبب وجيه مقنع، سامحه الله، ماذا يعني لو تكلم بهدوء منفردًا بك دون ضجة؟ ما فعله لا يقوم به صبي في العاشرة، والدتك عصر الأمس

opeikandi.com

اتصلت بأخي نصير وشرحت له الموقف من وجهة نظرها طبعًا، هو لا يعرف أصلاً بعلاقتنا ولقائنا، ليس عنده خبر بما كنا نفعله، وعندما رجع أخي مساءً...

شعر بورطته، بلع كلماته الأخيرة وعدل عنها، ثم تابع بشكل مقصود تلافيًا للموقف الذي لا يريد الخوض فيه:

– لا يمكن لي إلا أن أفسِّر تصرف أخيك بالغباء المطلق..

قاطعته وهي تنظر صوب الباب كي لا يدخل عليها فجأة أحدهم ويقلب الأمور المقلوبة أصلاً:

– نعم.. وماذا بعد؟

– اسمعيني جيدًا.. لقد قلت هذا يوم أمس إلى حامد شقيق أحلام، وأكرره بصراحة متناهية: أحتاج إلى مزيدٍ من الوقت، لا أستطيع التقدم اليوم خطوة واحدة إلى الأمام، المسؤول الأول والأخير عن هذه المأساة هو كمال، أربكنا بتصرفه الأرعن غير المسؤول، لو تكلم معي لكنت أقنعته بصدق شعوري نحوك، لكن الوقت مهم بالنسبة لنا، خاصة لي، أرجو أن تقدري موقفي، في الأمس تحدث معي نصير بالأمر، لكن كان النقاش حاميًا، لم أستطع أن أشرح له مشكلتنا بشكل دقيق، ماذا أقول له؟ أحب أنهر، تعجبني وأريد الزواج منها؟ هكذا؟ أين سأتزوج؟ من سيدفع تكاليف الزواج؟ ماذا عن دراستك؟ بل ماذا لو رزقنا بأولاد ونحن مازلنا طلبة؟ أسئلة

obeikandi.com

كثيرة تجعلنا نقول دون تردد: الوقت، نحن بحاجة إلى مزيد من الوقت، وعلينا أن نصبر ونقاوم ونستمر، هذا ما أستطيع أن أقوله لكِ وما أعدك به، أكثر من هذا أكون كاذبًا، منافقًا ولا أستحقك.

بنبرة منسابة كالماء الرقراق في ساقية لا انحدار أو تعرج في طريقها:

– ماذا عن أخيك نصير يا آدم؟ لماذا تحاول أن تخبئ عني آلامك؟ من أكون بالنسبة لك؟ اصدقني القول!

متراجعًا باندفاعه:

– ماذا قالت لكِ صديقتك؟ بل ماذا نقل لها أخوها حامد؟

– لم تقل لي شيئًا. أقسم على ذلك، أريدك أنت أن تحدثني عما يدور في بيتكم.. فأنا طرف مهم في المسألة كما لا يخفى!

تلعثم بالكلام، شعر بنفسه محاصرًا، هو لا يريد أن يجرح مشاعرها، يعلم بأنها أرق وأسمى وأعظم من أن يفعل بها ذلك، حتى لو فهمته خطأ لن يكدرها، معزتها في نفسه أكبر من كل ما تفوه به أهله وخاصة أخوه نصير وما جاء بسيرة أمها وعلى أن صديقه عاصم سيكون عديله، وبأنه سوف لن يجد الهدوء ولا يرى السعادة، نصير قال أكثر من ذلك.. ردد الكلام الذي لم تستطع أنهر أن تجزم بصحته أو تفنده، أمها أودعت زوجها السجن بتهمة ملفقة ومن ثم مستشفى الأمراض العقلية، أنهر تعلم ذلك جيدًا وحاولت فك رموز وطلاسم تلك الشفرة المستعصية على الحل ولم تفلح، هل

opeikandi.com

ستبقى تلك الشفرة بلا حل تطارد أنهر حتى أبد الآبدين؟ خرج آدم من صمته وقال:

– عزيزتي الغالية، وكما يقول أبوكِ أنت ملاكي وحارسي، هناك أشياء تحدث لنا في الحياة نخجل من التصريح بها، لا تقدم شيئًا، لا نفع في ذكرها وترديدها، علينا أن ندير لها ظهرنا، نستفيد من ظهورها ووجودها دون أن نعير أي أهمية لها، هذا عين الحكمة، ما يدور في بيتنا أمرٌ أستطيع التكفل به والتعامل معه، لا تقلقي، كل ما أريده وأطلبه هو الوقت.

– كيف صحتك؟

– عال.

– دراستك؟

– على أحسن حال.

– ما أخبار الفقمة؟ أعني وسن طبعاً.. ثم ضحكت.

– تسلم عليك وتسأل عنك.

– اعتنِ بنفسك.

– سأعتنِ بها.

– عدني بذلك.

– وحياتك.

– خوش..

بنبرة صافية كمن يريد أن يودع الحياة أضافت مقتضبة، بيأس تسلل إلى قلبها كالسرطان وهي تشعر بأنه نسف ما تبقى من إرادتها:

– لننتظر ونرى ما ستأتي به الأيام القادمة.. أستودعك الله يا أغلى الناس.

– خذي حذرك واعتنِ بنفسك قدر ما تستطيعين.. مع السلامة..

بكى بصمت، الضغوط التي كان يعانيها أكبر من طاقته بكثير.. فبعد أن اجتمع نصير به مع أخوته الذين أحاطوا به وأمهم كانت تستمع مهضومة غير راضية على ما تسمعه وما يدور حولها؛ هي تعرف ابنها آدم جيدًا، تثق بتصرفاته وحكمته، لا يمكن أن يكون على خطأ، لكنها وقتها اختارت الصمت ولاذت به، هي تريد أن تعرف تمامًا ما سيقرره نصير، عندها تقول كلمتها النافذة الصارمة والحاسمة، تعرف مكامن قوتها، في الوقت المناسب تتدخل وتحسم الموقف، لم تنبس وقتها ببنت شفه، تركتهم يتزلون عليه لعناتهم وقراراتهم المتعسفة ويمنعونه من التقدم خطوة واحدة في طريق إنقاذ أهم من أزمتها التي اشترك بفعلها.

استمع آدم لهم بهدوء لا يملكه ميت، متعود هو على مص النقمات بصمته وهدوئه؛ آثر الصمت.. بقي لليالي طوال يكابد القهر، لم

obeikandi.com

ينقطع عن التفكير في الكيفية التي يساعد بها أنهر، أهمل نفسه بشكل مروع، بات لا يشتهي الطعام ولا يقربه، سقط شعره السرح المسبسب الطويل بشكل فظيع سريع مقلق غير متوقع، أخافه ذلك كثيرًا، راجع طبيبًا خاصًا بالجلدية، نصحه بالإقلاع عن التفكير فورًا بعد أن شرح له آدم السبب الحقيقي الذي يعاني منه والضغوط التي تُمارس ضده وبحقه.. هو لم يشرح ذلك لأنهر، ربما لو علمت بذلك لهانت لها أشياء كثيرة، ربما رفضت الاقتران بآدم أصلاً، لا أحد كان يعلم ردود أفعالها فيما لو عرفت.. صديقتها أحلام امتنعت عن التصريح بما سره آدم لأخيها، لم تفضح سره. بكت في بيتها وحدها مقهورة واكتفت بعدالة وجزاء الدموع.

• • • •

بقيت أنهر على عماها، لم ينور أحد طريقها، بكت مختنقة بعبراتها بعد أن أغلقت الخط وانهت مكالمتها مع آدم، تشنجت، التهمها اليأس، هي تعرف أهلها، سيزوجونها عنوة، في عرفهم الفتاة لا رأي لها، تستطيع أن تقول نعم فقط! أداة النفي "لا" غير موجودة في قاموس حياتهم، وها هو آدم يطلب منها المستحيل الذي هو الصبر.. من أين تأتي به؟ ولو استطاعت، فمن يصبر على جرمها الذي اقترفته؟ ومن هذا الذي سيقنع الأم بالعدول عن قرارها؟.

لم تمضِ إلا أيام قليلة بقيت حبيسة الدار والأفكار، منعوا صديقتها من زيارتها، حصارها بات خانقًا فوق قوى التحمل، حتى جففت عزلتها ووحدتها بريق وجهها، انهارت معنوياتها التي كانت قبل فترة وجيزة قوية كرخام التماثيل، ذابت تحت تأثير الظروف التي صنعها كمال لها.. لا تعرف ما تفعله بالضبط، غرقت في بحيرة من اليأس القاتل وهي تشعر أنها أصبحت مجرد حشرة زائدة في الحياة لا أهمية لها، على ماذا تستمر؟ كلمات أمها الفاحشة ترن في أذنيها، تلسعها كالسوط، صفعة كمال لها، دبيب أصابعه مازلت تشعر بها عالقة على صفحة خدها، هجوم سارة عليها كقطة متوحشة تريد تقطيع أوصالها، حبسها، منعها من الذهاب إلى مدرستها، مستقبلها، خِطبتها التي تعد بالساعات التنازلية لحدوثها..

لماذا كل ذلك؟ بدأت تهذي كالمحمومة: لأنني خرجت مع آدم الذي من ديني؟ نحن نريد الارتباط معًا، لم نفكر بارتكاب أي جرم بحق أنفسنا أو أهلنا، لم نأتِ بفعل مشين أو مهين، الفتاة بناموسهم أقل درجة من الحيوان، يفعلون بها ما يشاؤون. لم تكن لحظتها في وعيها، لا مفر من ورطتها، القدر حكم عليها، رفعت الجلسة وانتهى الأمر. حصارها صارم، الحبس في البيت، لم يُسمح لها بالاتصال بأي كائن خارج نطاق الأسرة..

الأدوية التي كانت تستعملها نداء ضد الكآبة كانت كفيلة بالخلاص من محنتها، هذا ما رأته أمامها، تفكيرها توقف على دقائق خارجة عن نطاق الكون المحاصر بالإرادة الإلهية.. لم تكن تحلم يومًا بمثل هذا الزمن الخارج عن تلك السيطرة الكونية، اكتشفت نفسها فجأة تحت وطأة القهر الزائد عن الحد والتحمل داخل بيت أهلها بشكل مروع، مهين، لا يمكن الاستمرار معهم تحت سقفهم هذا..

مدَّت يدها حين كانت في غرفتها وحدها بسرعة دون خوف أو تردد، وقت العصر الذي سبق موعد إعلان خطبتها بيوم واحد، فتحت العلبة الحمراء المرقطة بالأصفر، هزتها وهي تفتح غطاءها، وضعت في كفها ما نزل من العلبة الملئى، غرستها في فمها الجاف الذي ألهبته الدموع الحارقة، لم تمكث أكثر من دقائق معدودة حتى تطوحت على الأرض.. ارتطامها بالأرض أحدث دويًا مرعبًا في نفوسهم، بحثوا عن مصدر الصوت، دخلوا غرفتها.. وإذا بهم يتفاجأون بأنهر ملقاة على الأرض وعلبة الدواء فارغة بجانبها تتدحرج ببطء كدم مقتول مراق.

ترى، هل تذكرت أنهر كلمات آدم.. ازدراءه للموت واستهانته بالحياة من أجل السعادة الحقة التي يؤمن بها في العيش والحياة؟!.

ماذا كان داخلها لحظة شروعها بالانتحار يفكر؟!. أي صور تراءت لها وأي قول رنَّ به قلبها؟!.

بعد ساعات قليلة من عمر ذلك الزمن الفقير، وعلى الرغم مما حدث.. بدأت الظلمة تتسحب في الخارج بصمتٍ كصمت الغابة وهيبتها، ظهرت حزم النور مندفعة من الأفق البعيد، تتقدم رويدًا معلنة عن فجرٍ جديد.

obeikandl.com

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

المؤلف في سطور

- كاتب وقاص عراقي، من مواليد بغداد ١٩٦٥م.
- مهندس زراعي.
- هاجر مع زوجته إلى ألمانيا عام ١٩٩٠م.
- أسس مجلة ناطقة باللغة العربية بعنوان (ميمرا الكلمة) في ميونخ عام ١٩٩٩م، وترّأس تحريرها.
- نشر مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والحكايات والمقالات في مواقع ومجلات عربية عديدة منها: مجلة آفاق مندائية، مجلة العهد، مجلة أقلام الثقافية، مجلة أصوات الشمال، الناس، أدب، شبكة حنين، وطيور دجلة، وغيرها الكثير.
- له محاولات عديدة في الرسم.
- أقام أثناء دراسته في الجامعة ثلاثة معارض رسم تشكيلي.
- أحد المطالبين بتأسيس رابطة للأدباء والفنانين المندائيين ثم عضواً في لجنتها التحضيرية بعد إنبثاقها عام ٢٠١٤
- البريد الإلكتروني: haitham65@hotmail.de

obeikandl.com

- الإصدارات :

- نتاج السنين : مجموعة قصصية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٥م
- الشك وأشياء أخرى : مسرحية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٧م
- الدين والنبي في التاريخ : دراسة. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠١٠م
- الموتى لا يتكلمون : مجموعة قصصية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م
- الهروب إلى الجحيم : مجموعة قصصية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م
- عجائب يا زمن : مجموعة قصصية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٥م
- أنهر بنت الرافدين : رواية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٦م
- كروان الروح : رواية . (تحت النشر)
- التحدي : مجموعة قصصية . (تحت النشر)
- تأملات في عالم الإنسان : خواطر ومقالات. (تحت النشر)

obeikandi.com

obeikandl.com

شمس
للنشر والإعلام

(+2) 02 27238004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net